

اعترافات

كتابي



جان چاك روسو

الجزء  
الاول

Looloo

www.dvd4arab.com

المؤسسة العربية الحديثة  
للطباعة والنشر والتوزيع

بناية ١٠٠٠ شارع ١٠٠٠ - الرياض - ١١٥٦٦٠٠

مأمون

## حلم .. طالبا تمنيت تحقيقه !

عزيزى القارئ ..

■ بصدور هذه الترجمة الكاملة « لاعترافات » جان جاك روسو ، يتحقق حلم من أضخم الاحلام الادبية التى راودتنى منذ عشقت الاديب ، وادركتنى حرفته ! .. ويتجسم هدف من اعز الاهداف التى اغرتنى بإصدار سلسلة (مطبوعات كتابى) منذ زمن قريب . ولئن كانت هذه المطبوعات قد تمكنت من أن تبلغ هذا الهدف فى مثل هذا الزمن القصير ، بعد أن ظلت « اعترافات » روسو منبعا « مستعصية » على النشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين ، ترجمت خلالها إلى جميع اللغات الحية ، ما عدا لغتنا العربية ! .. فإن هذه السلسلة ما كانت لتحقيق هذا الهدف من اهدافها لو لم تتلقها أنت وتتميدها منذ ولدت برعايتك وإعازلك اللذين مكناهما من تدليل جميع الصعاب التى تعترض طريقها ، والسير قدما نحو غايتها . وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به ( مطبوعات كتابى ) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ سلامة موسى فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة ( اخبار اليوم ) .. إذ قال : « .. واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. فلقد تغيرت أوروبا بتأثير أفكار هذا الاديب . ونستطيع أن نعزو أهم التطورات التى حدثت فى هذه القارة إلى آرائه ، التى يتلخص مغزاها فى كلمات معدودة : هى : أن الطبيعة حسنة ، والإنسان طيب ، ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيئ .. فما احوجنا فى البلاد العربية إلى هذه الضمائر ؟ »

.. كما كتب الاديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى مقال بمجلة ( الثقافة ) بتاريخ ١٤ فبراير عام ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجهمة القراء عن مطالعة ( العقد الاجتماعى ) و ( اميل ) و ( هيلوز الجديدة ) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة ( اعترافات ) » ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغير والتبديل ، اما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل ، فنحن نتعرف فيما نحس فى أعماقنا على غرائز رجل الكهوف .. فكم بالحري إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب ( الاعترافات ) ، أقرب إلى عصرنا بثقافته ، وإن كان أشبه بأهل الفطرة فى صراحته ، وجراته ! » .

والواقع أن هذه ( الاعترافات ) التى تقدم « مطبوعات كتابى » إليك اليوم أول ترجمة امينة كاملة لها باللغة العربية ، والتى تعتبر من اعظم الشوامخ الخالدة فى الادب « الكلاسيكى » ، هى ادق واصدق مصدر لمسيرة الفكر العبقري « جان جاك روسو » ، فى الثلاثة والخمسين عاما الاولى من حياته على الأقل .. ولقد كان من اهم الميزات التى كتبت انخلود لهذه ( الاعترافات ) ، أنها كانت أول عمل ادبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فيظهرها على حقيقتها الكاملة دون أى زيف او تستر .. فقد سجل « روسو » فى هذا الكتاب ادق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يحفل من مواجهة الحقيقة ، وكأنه مؤمن صادق التوبة ، بصريح الهم بأخطائه يرهانا على صدق توبته ، والتعاضد لصفحة ..

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذي ابتغاه « جان جاك روسو » من وراء تسجيل اعترافاته ؟

قد نجد الجواب عن هذا السؤال في مؤلفاته التي سبقت « الاعترافات » ، وفي كتاب « أميل » بالذات .. فلقد أورد « روسو » في هذا الكتاب ، وفي بعض مؤلفاته السابقة ، صورا من حياته ، ومن الشخصيات التي صادفته وأثرت فيه . ولكنه كان يسدل عليها سترا من الزيف و « الرقوش » ، شأن كل كاتب وأديب ، حين توحى إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تنساب على طرف قلمه أثناء الكتابة ، فيحاول أن يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التي تباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية في نظر القارئ !

ولكن « روسو » كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى أكثر من مجرد رسم شخصيات ، أو افتعال أحداث . كان يسمى إلى أن يقدم تجاربه للناس ، سيما في ميدان التربية ورعاية النشء . فلما واتته الجواة - نوع ستر الزيف والتضليل - وساق الحديث صريحا واضحا ، واعترف بالسرقة والانحراف - مثلا - لئنه الإبقاء إلى العوامل التي قد تدفع بالأبناء بعيدا عن جادة الصواب .. ولينبه المجتمع إلى الأشياء التي تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء .

وهذا ما نلمسه واضحا في بعض مواضع من « الاعترافات » : فهو يقول تعليقاً على معاملة أبيه لأخيه الأكبر : « كان من جراء الحنان الإضافي الذي أسبغته أبي علي ، أن أهمل هذا الأخ .. وتأثرت تربية أخي بهذا الإهمال ، فلك مسالك سوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع أدمان الفجور ! » .. الخ .

.. وبين - في سياق حديثه عن المدة التي قضاه في تعلم حرفة الحفر على المعادن - كيف أن مخالطة الصغار لزملاء يكبرونهم سنا ، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة ، يدفعهم إلى الخضوع لما يوحى به إليهم هؤلاء الكبار .. إذ تعود « جان » الصغير السرقة بإيعاز من زميل له !

كل هذه الصور توحى بأن « الاعترافات » لم تكن - في غايتها - سوى دروس اجتماعية وتربوية .

### الاضطهادات تلاحقه في كل مكان !

● ولقد تناولت « الاعترافات » حياة « روسو » حتى سنة ١٧٦٥ .. ومن الطريف أنه بدأ في وضعها عندما هاجر إلى إنجلترا . فإن بعض كتبه السابقة - « أميل » و « العقد الاجتماعي » و « هيلويز الجديدة » - تضمنت من الآراء والمهاجمات ما أثار غضب حكومة فرنسا ، ورجال الكنيسة ، وأنصار المدارس الفلسفية في فرنسا وهولندا وجنيف ، حتى لقد أحرقت كتبه علنا في بعض البلدان ، واضطر إلى أن يهرب من فرنسا إلى جمهورية ( بيرن ) ، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها ، فرحل إلى ( مورتير ) بمقاطعة نيوشاتل - وكانت تحت حكم فريدريك الثاني البروسي ..

على أن « روسو » ما لبث أن أصدر كتاب « خطابات الجيل » ، فإذا الضجة التي أحدثها هذا الكتاب ، تضطره إلى الرحيل إلى جزيرة ( سان بيير ) في بحيرة ( بين ) .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية ( بيرن ) عاد فأمره بمساحقة هذه الجزيرة التي كانت تابعة للجمهورية !

وكان « روسو » قد تلقى دعوة من صديق إنجليزي ،  
 سافر إلى إنجلترا .. ووصل إلى هناك في يناير سنة ١٧٦٦ ،  
 فمكث شهرين في لندن ، ثم انتقل إلى الريف في ( ووتون )  
 بسترادفوردشاير ، حيث وضع الكراسيات الست الأولى من  
 « الاعترافات » . وتصادف أن نشرت الصحف في تلك الأثناء  
 خطابا بتوقيع ملك بروسيا ، يطن في أخلاق « روسو » ، فظن  
 هذا بمضيئة واصدقائه في إنجلترا الظنون ، ونزع في مايو سنة  
 ١٧٦٧ إلى ( اميين ) ، حيث نزل بقلعة ( تراسي ) التي كانت ملكا  
 للأمير دي كونتي ، فأقام بها رحا تحت اسم « رينو » ..  
 وهناك استأنف كتابة « الاعترافات » . ثم رحل إلى ( جرينوبل ) ،  
 فما لبث أن ملها وسُم أهلها ، ومن ثم رحل إلى ( اورجوان ) ،  
 يبدآن جوها لم يلائم صحته ، فانتقل في سنة ١٧٦٩ إلى  
 ( مونكان ) ، حيث أتم الكراسية العاشرة من اعترافاته ..  
 وما لبث « روسو » أن عاد إلى باريس ، حيث سمح له  
 بالإقامة ، على شريطة أن لا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين .  
 فانصرف إلى نقل « النوتات » الموسيقية ، وإلى الاختلاط بعلمية  
 القوم . حتى إذا كان شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب  
 الفيلسوف — الذي كان قد بلغ السادسة والستين من عمره —  
 إلى كوخ في ( ارمونفيل ) يمتلكه الكونت جيراردان .. وهناك ،  
 توفي فجأة في ٣ يوليو من ذلك العام . وقد ذهب فريق من  
 الناس — ومنهم مدام دي ستايل — إلى أنه انتحر .. كما ذهب  
 فريق آخر إلى أنه مات في نوبة صرع .

#### الطبعة التي ترجمنا عنها الاعترافات

● ولقد كان من عادة « روسو » أن يشرف بنفسه على

إصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على أنه كان يتدخل  
 في الطبعات التي تصدر بعد ذلك ، فيضيف إليها بعض الملاحظات ،  
 دون أن يحذف أو يغير شيئا من موادها .

ولقد تولى ثلاثة من اقرب خلصائه — هم « دوبيرو »  
 و « مولتون » الجنيفي ، و « مريكيز » جيراردان — فحص  
 مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم  
 .. وقد انتهت تحقيقاتهم بصدد « الاعترافات » إلى إصدار  
 طبعة منها في جنيف في سنة ١٧٨٢ .. على أن « دوبيرو »  
 لم يرض عن التعديلات التي أدخلت على الكراسيات الست ،  
 فأصدر بنفسه طبعة أخرى ، استند فيها إلى ما كان بين يديه  
 من وثائق ، لا سيما رسائل « روسو » .

وفي سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من « الاعترافات » ،  
 أخذت عن أصول قدمتها مدام « روسو » ، ولا تزال محفوظة  
 في البرلمان الفرنسي .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات  
 الثلاث وبين الآخرين ، لا يعدو مجرد تعديلات بسيطة في بعض  
 العبارات ، وليس في الوقائع .

والترجمة التي تقدمها لك « مطبوعات كتابي » اليوم ، أخذت  
 عن طبعة أصدرتها دار « لوفيفر » في سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة  
 الطبعات الثلاث وتحقيقتها ، ومن ثم هي تعتبر أدق طبعة صدرت  
 من « اعترافات جان جاك روسو » .. وقذ بذل الزميل القدير  
 المرحوم محمد بدر الدين خليل في نقلها إلى العربية كل جهد  
 ممكن ، للمحافظة على النص والروح بأمانة تامة ، لم يشبها  
 أي اختصار ، أو حذف ، أو تحوير .. بل لقد نبذنا خاتمة

لجعل التمييز والاسلوب اقرب ما يكونان إلى النص الذي كتبه  
الاديب العبقري ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية ..

وأخيرا ، فاملئ ان تكون « مطبوعات كتابي » ، بثقلها هذا  
التراث الإنساني الخالد إلى لغتنا ، قد ساهمت في تزويد المكتبة  
العربية بأثر شامخ من شوامخ الاعمال الأدبية الباقية على الزمن ..

ولهذه المناسبة ، أحسبك تفرنى على انه لم يكن من الممكن  
نشر كتاب يبلغ الالف صفحة تقريبا ، في جزء واحد من (مطبوعات  
كتابي ) ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هذه « الاعترافات » في  
خمسة أجزاء متتابعة : أولها هذا الجزء الذي بين يديك ..

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثاني من هذه الاعترافات .

والله ولي التوفيق

حلمي مراد

—



**Looloo**

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)





# اعترافات جان جاك روسو

الجزء الأول

**Looloo**

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)



## الكراسة الأولى

١ - من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إننى مقدم على مشروع لم يسبقه مثيل ، ولن يكون له نظير . إذ أننى أبغى أن أعرض على أقرانى إنسانا فى صدق صور طبيعته . وهذا الإنسان هو : أنا ! أنا وحدى ! . . . فأنى أعرف مشاعر قلبى ، كذلك أعرف البشر ! ولست أراهم قد خلقت على شاكلة غيرى ممن رايت ، بل إننى لأجرؤ على أن اعتقد بأننى لم أخلق على غرار أحد ممن فى الوجود ! . . . وإذا لم أكن أفضل منهم ، فأننى - على الأقل - أختلف عنهم ! . . . ولن يتسنى البتة فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ اتلفت القالب الذى صاغتني فيه ، إلا بعد قراءة هذه الاعترافات !

نأذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث ، عندما بقدر له أن يدوى ، فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يدي . ولسوف أقول فى رباطة جأش : « هذا ما فعلت ، وما فكرت ، وما كنت . . . لقد رويت فى كتابي الطيب والخبيث على السواء ، بصراحة ، فلم أمح أى ردىء ، ولا انتحللت زورا أى طيب . . . وإذا كنت قد استخدمت بعض التزييق الفارغ - بين وقت وآخر - فما ذلك إلا لأبلا غراغا نثسا عن نقص فى الذاكرة . ولربما تظلمت بصدق أمر أعرف أنه « قد » يكون صحيحا ، ولكننى قط لم أزعج صدق ما عرفته زيفا . . . لقد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعفها وزرابتها . . . وفى

صلاحها ، وحصانة عقلها ، وسموها . . . تبعا للحال التى كنت فيها ! . . . لقد كشفت عن أعيق أغوار نفسي ، كما كنت أنت تراها ، أيها الخالد السرمدى . . . فاجمع حولي الحشد الذى لا حصر له من أبناء جنسى ، ودعهم يصفون إلى اعترافاتي ، فيوثقون لخسيتي ، ويخجلون لمثالي . ثم ادع كلا منهم إلى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة - أسرار مؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل إن جرؤ : « لقد كنت خيرا من ذلك الرجل ! »

\*\*\*

ولدت فى ( جنيف ) ، فى عام ١٧٢١ ، للمواطنين « ايزاك روسو » و « سوزان برنار » ، وكان تقسيم ميراث أسرة أبى - على قتلته - بين خمسة عشر ابنا وابنة ، قد هبط بنصيب أبى إلى نذر لا يكاد يفكر ، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ « ساعانى » - وكان فى الحق جد بارع فيها - أما أمى فكانت أحسن منه حالا . كانت ابنة القس البروتستانتي « برنار » ، وكانت ماهرة ، جميلة ، وقد وجد والدى عشاء فى الطفر بيدها ، إذ بدا جبهما منذ طفولتهما الباكرة ، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء فى طريق ( تروى ) ، أبداع طرق جنيف . . . بلها صارا فى العاشرة ، لم يعودا بفترتان . وعزز التعاطف والائتلاف الروحي ذلك الإحساس الذى خلقته الألفة بينهما . . . ولم يكن كل منهما - وقد خلق مرهف الحس رقيق الشعور - ليرجو سوى تلك اللحظة التى يتاح له فيها أن يكشف منذ الآخر نفسى ما كان يخالجه من إحساس . . . أو - على الأصح - كانت تلك اللحظة ترتقيهما ، فأسلم كل منهما قلبه للآخر فى أول فرصة . . . وكانى القدر - حين لاح

انه يعارضهما - قد زادهما وجداً .. وإذا بالمائق الشاب الذى عجز عن الظفر بحبيبه - إذ أبى أهلها أن يزوجوه إياها - يذوب أسى وحزناً ، فنصحته فتاتنه بالترحال ، وبأن يسمى لتسيانها - مسافراً ، ولكن .. دون جدوى ، إذ عاد مدلهما أكثر من ذي قبل ! ووجد تلك التى احبها لا تزال وغيبة ، صادقة الحب . فلم يبق لهما - بعد تلك التجربة التى اخبرها بها ماظلتها - إلا أن يظلا متحابين طيلة عهدهما .. فاقسما أن يفعلا ذلك ، وباركت السماء تعاذهما !

وحدث أن وقع « جابريل برنار » - شقيق أمى - فى حب إحدى شقيقات أبى ، فلم توافق على خطبته إلا على شريطة أن يتزوج أخوها من اخته . وهكذا دبر الحب كل شيء ، وعقدت الزيجتان فى يوم واحد ، فأصبح خالى زوج عمى ، وقدر لأولادهما أن يكونوا أولاد عمومة وخؤولة لى .. وفى نهاية العام الأول للزواج ، رزق كل من الفريقين بطفل ، ثم تشقت شملهما .. فتد كان خالى مهندهما ، نعين فى خدمة الإمبراطورية - فى المجر - تحت إمرة الأمير « يوجين » ، واستطاع أن يبلى بلاء حسناً فى معركة ( بلجراد ) . أما أبى ، فقد رحل - بعد مولد أخى الأوحد - إلى القسطنطينية ، حيث استندمى ليتولى منصب « ساعاتي السلطان » ! واستطاعت أمى - فى غيبابه - أن تكسب ولاء عدد كبير من المعجبين ، بفضل جلالها وفكائها ومواهبها (١) . وكان من أشد هؤلاء

(١) كانت مواهبها تنوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فإن أباهما القس كان يحبها إلى درجة العبادة ، وقد بذل فى تعليمها وتربيتها عناية فائقة ، ومن

المعجبين تهافتاً ، مسيو « ديلا كلوزير » ، المندوب الفرنسى الغيم . ولابد أن شغفه بها كان عارماً ، فقد رأيته شعيد التأثير وهو يحدثنى عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاماً ! على أن أمى كانت تتفرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة .. كانت تحب زوجها حباً مبرحاً . وقد راحت تلحف عليه فى العودة ، فترك كل شيء ورجع . وكانت الثمرة الثمينة لهذه العودة ، إذ ولدت بعد عشرة أشهر ، ضعيفاً سقيماً . وقد كببت أمى حياتها ، وكان مولدى أول ما حاق بى من نحس وتعاسة !

ولم يقص على أحد قط كيف احتبل أبى هذا المصاب ، ولكنى أعرف أنه لم يتعز أبداً ، وكان يضال أنه يرى زوجته فى شخصى ، دون أن يقوى على أن ينسى أننى الذى حرمته إياها ! .. أبداً لم يحتضنى دون أن لاحظ - من تهدياته والاختلاجات التى كانت تعتربه وهو يضمنى إلى صدره - أن حسرة مريرة كانت تخالط قبلاته ، فلا تزيدها إلا خفاناً . وكان إذا قال لى : « لنحدث عن أمك يا جان جاك » ، أجبت : « حسناً ، لسوف نبقى إذن يا أبت ! » .. وكانت هذه العبارة

تم قاتها كانت تجود الرسم ، والفناء ، والمزق على آلة تشبه العود . كما كانت كثيرة الإطلاع ، وكانت تنظم اشعاراً لا بأس بها . وقد حدث - أثناء غياب زوجها وأخوها - أن خرجت للزخمة مع زوجة أخوها ، فصادفنا شخصاً فكريها بالفتيان ، وإذا هى تقول على الفور لشعرا هذا معنا :

وهذان السيدان الفاتكان .. عزيزان عليهما .. وحبيبتاه .. وهما زوجاتنا وشقيقتنا .. وهما





وحدها كفيلا بأن تبعث الدمع إلى عيني ، فكان يهتف بتأوها :  
« آه ! .. لا اردھا إلى ! .. كن عزائي عن فقدھا ، وأملأ  
الفراغ الذى خلفته فى نفسى ! .. انقرانى كنت أحبك هذا الحب  
كله ، لو انك كنت مجرداين لى ! » .. وبعد أربعين عاما  
من مصابه فيها ، مات بين ذراعى زوجة ثانية .. ولكن اسم  
الأولى كان على شفتيه ، وصورتها فى قرارة فؤاده !

وهكذا كان الاثنان اللذان أوجدانى ، ولم يورثانى - من كل  
النعم التى استيقظت عليهما السماء - سوى قلب رقيق مرهف  
الحس .. ولقد كان قلباهما منبعى سعادتهما ، أما قلبى فقد  
كان منبع كل شقوة فى حياتى !

\*\*\*

ولقد هبطت إلى الدنيا فى حال تقرب من الموت ، فلم يكن  
ثمرة أمل يذكر فى إنقاذ حياتى ، وكنت أعمل فى كيانى بذور  
ملة أخذت تقوى على مر الزمن ، ولا تبارحنى فى بعض  
الأوقات ، إلا لتقسو فى تعذيبى بشكل آخر . وقد أولفتى إحدى  
عماتى سوكانت شابة لطيفة فاضلة - من الرعاية ما أنقذ  
حياتى ، وهى لا تزال حتى كتابة هذه السطور على قيد  
الحياة ، وقد بلغت الثمانين من عمرها ، وتوفرت على تريض  
زوج يصغرها سننا ، ولكن الانحراط فى الشراب أنهك قواه  
.. اننى لأغفر لك ، يا عمى العزيرة ، أن أبقى على حياتى .  
وما أعمق أسفى إذ ارأى عاجزا عن أن أرد اليك - فى أواخر  
أيامك - تلك الرعاية السابغة التى أوليتنيها فى أوائل

أيامى ! (١) .. كذلك لا تزال مرضعتى العزيزة العجوز  
« جاكلين » على قيد الحياة ، وتغور الصحة والقوة . وكأنى  
باليدين اللتين فتحنا عيني عند مولدى ، مستغضائهما عند  
وفاتى !

ولقد نثيه إحساسى قيل أن ينثيه نكرى .. وهو شئ يحدث  
لجميع البشر ، ولكننى كنت أكثر من سواى خبرة به وتجربة  
له .. ولست أدري ماذا كنت أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو  
السادسة .. ولا أعرف كيف تعلمت القراءة .. وكل ما أذكره ،  
أول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها  
تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات .. وكانت  
أُمى قد خلفت بعض قصص غرامية ، شرعت فى قراءتها مع  
أبى ، عقب العشاء ، فى كل ليلة . وكان القصد من ذلك - فى  
البداية - مجرد تدرييبى على القراءة ، بالاستعانة بالكتب  
المشوقة . وكان الشغف لم يلبث أن دب فيها ، فكلما يتناوب  
القراءة دون توقف ، وتنفق ليالى باكلمها فى هذا العمل . وكنا  
نعمز عن النحول من الكتاب حتى نفرغ منه . وكان أبى يقول  
أحيانا فى استحياء ، وهو يسمع العصافير تشرع فى الشقشقة  
مع مطلع النهار : « هيا بنا إلى الفراش .. كأتى أنا الطفل  
ولست أنت ! » .

(١) كانت هذه اللمعة تدعى مدام جوتسيرو . وقد رقب لها روسو - منذ  
مارس سنة ١٧٦٧ - معاشا قدره مائة جنيه ، كان يدفعه إليها دائما ، وفى  
مراقبة دقيقة ، حتى فى أشد أوقات شيبته

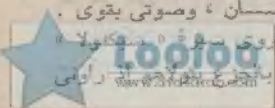
وبفضل هذا الأسلوب الخطر ، استطعت في أمد قصير أن أكتسب حذقا بالغا للقراءة والنهم . . ليس هذا محسب ، بل أنني أحرزت أيضا دارية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل في سني . فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدي ، وإن لم أكن أدرك كتبها . . كنت أحس بكل شيء ، دون أن أفقه كنهه أحاسيني . فمن المؤكد أن هذه المشاعر المهوشة المبهمة — التي كنت أشعر بها واحدا بعد آخر — لم تؤلف نسيجا قوى الإدراك لدى ، لأنني لم أكن أحظي إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنها ساعدت على تشكيلها في أعماقي على نسق خاص ، وأوحت إلى بانكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية ، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تبرئني تماما منها طيلة حياتي !

### ٢ — من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٢

وغيرنا من الروايات في صيف سنة ١٧١٩ ، فإذا الشناء التالي يوافينا بمادة تختلف عنها . إذ أننا لم نكد نستفد مكتبة أمي ، حتى تحولنا إلى نصيبها — الذي آل إلينا — من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمة ، لحسن الحظ . وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك ، إذ كانت جزءا من مكتبة جميعها قس ، كان — في الوقت ذاته — عالما ، على غرار ما كان مألوما في أيامه ، كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء ! وكان من هذه الكتب التي ألت إليها : « تاريخ الإمبراطورية والكنيسة » للومبور ، و « رسالة في تاريخ العالم » لبوسويه ، و « حياة مشاهير الرجال » لبلوتارك ، و « تاريخ البندقية » لناف ، و « التطورات »

### اعترافات جان جاك روسو - الجزء الأول

و « الأصول » لأوفيد ، و « المعوالم » و « حوار الموتى » لقونستيل ، وبعض مؤلفات موليير . . فنقلت كل هذه إلى غرفة أبي ، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمله . وكنت استوعبها في استساعة نادرة ، بل لعلها كانت غدة بالنسبة لعمرى . وأصبح « بلوتارك » — بوجه خاص — هو أحب المؤلفين إلى نفسي . فأبرأني الاستمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذي كان قد تملكني نحو الروايات ، وسرعان ما شغلت بأبطاله : وبدأت أفضل « أجيسلاوس » و « بروتس » و « أرسقيدس » على « اورونداتيس » و « ارتامينس » و « جوياء » . وقد أدى هذا الاطلاع المشوق ، والمحادثات التي كان يثيرها بيني وبين أبي ، إلى تولد روح الحرية في نفسي . . تلك الروح الأبية ، المتبعة ، التي لا تطبق العبودية أو الاسترقاق ، والتي عذبتني طسوال حياتي ، في مواقف كانت بعيدة عن أن تتيح لها مجالا . . وهكذا أصبحت أتكاري في شغل لا ينقطع بروما وأثينا ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد أذكى حماسي أنني ولدت مواطنا في جمهورية ، وأبنا لأب كانت وطنيته هي أشد عواطفه انتقادا ، فكنت أخال نفسي إفريقيًا أو رومانيا — حسب شخصية العظيم الذي أقرأ سيرته — وكنت أذيب شخصيتي في شخصيته ، كما كان الأسهاب في ذكر صفات الجلد والبسالة — التي كانت تستهويني — يجعل عيني تومضان ، وصوتي يقوى . وقد حدث ذات يوم ، أن انطلقت « روسو » في رواية للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا ، فإذا



في غمرة التحمس انقدم فاضم قيصتي على المشواة  
- « الشواوية » - الساخنة ، لأصور عملا من أعمال البطل !

وكان لى شقيق يكبرنى بسبع سنوات - يتلقى عن أبى  
حرفته « وقد كان من جراء الحضان الضافي الذى أبغفه أبى  
على ، أن أهمل هذا الأخ ، وعى معاملة لا أقرها ولا أحبها ..  
وتأثرت تربية أخى بهذا الإهمال ، فسلك مسالك السوء قبل  
أن يبلغ سنا تتناسب مع إيمان الفجور . وقد عهد به أبى إلى  
معلم آخر ، فكان لا يترك يهرب منه . ومن البيت . حتى أننى  
نادرا ما رأيته : واكاد أقول أننى لم أكن أعرفه ! على أننى لم  
أكف عن أن أحبه فى سبغ . أما هو فقد أحببني كما يحب  
الشريد أى شيء !.. وأذكر أن أبى عاقبه - فى إحدى  
المناسبات - بغلظة وغضب . فاندفعت ملقيا بنفسى بينهما ،  
واحتضنته .

وبذلك حجب جسمه بجسمى . فطقت عنه الضربات التى  
كانت موجهة إليه !.. وظللت مسبئا بهذا الوضع فى عناد :  
حتى اضطر أبى فى النهاية إلى أن يتخلى عن العقاب ، إما لأن  
صرخاتى ودموعى الانت قلبه ، أو لأنه خشى أن يؤذنى أكثر  
مما كان يؤذى أخى . على أن حال هذا الأخ ما لبث أن  
ازدادت سوءا ، ففر واختفى كل أثر له . وسعدنا بعد ذلك  
بزمن أنه كان فى المانيا . بيد أنه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا  
عنه نبا على الإطلاق ، ومن ثم صرت الابن الوحيد لأبى !

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالاهمال ، إلا أن هذه  
لم تكن حال أخيه .. أنا ! فما كان أبناء الملوك لبحظوا بأكثر

من الرعاية التى حظيت بها فى سنى حياتى الأولى .. كنت  
محبود كل المحيطين بى .. على أن هذه العبادة لم تجعل منى  
طفلا مدبلا مفسودا ، كما هو المألوف فى الأطفال الذين يحلون  
بحب أهلهم . ولم يتح لى قط - إلى أن غادرت دار أبى - أن  
أجرى فى الطرقات مع سوى من الأطفال . ولا احتاج أحد  
إلى أن يشجع أو يكبح فى نفسى تلك النزوات الخيالية التى  
نعمرض حياة الأطفال ، والنمى نمزى - خطأ - إلى الطبيعة .  
وهى فى الواقع من ثمار التربية .. ولقد كنت ارتكب المآخذ  
المألوفة لدى أقرانى فى السن : فكنت ثرثارا ، نهيا ، كذوبا فى  
بعض الأحيان .. وربما كنت أسرق بعض الناكهة ، أو  
الطوى . أو المأكولات .. ولكنى لم أنشد قط متعة فى إيذاء  
الغير ، أو الإضرار بهم . أو انتهاهم ، أو فى تعذيب الحيوانات  
البكماء المسكينة . وإن كنت أذكر أننى قبولت مرة فى قدر أو  
وعاء لجارة لنا - تدعى مدام «كلو» - بينما كانت فى الكنيسة ،  
وانى لأجبر . حتى بعد أن بلغت هذه السن : بأن ذكرى هذا  
الحادث تثير ضحكى .. فقد كانت مدام كلو أكثر الذين عرفتهم  
إيمانا فى الشكوى ولجاجة فى التذمر . برغم أنها كانت طليبة  
فيها عدا ذلك .. وهذه - بابجاز وصدق - كبرى إساءاتى  
فى الطفولة :

\*\*\*

وكيف كان من المكن أن أغدو شريرا ، وقد كانت عيائى  
لا تتعان إلا على أمثلة اللطف الدمثة ، ولم يكن يحيط بى سوى  
خسر ناس فى الدنيا ..؟ والحق أن أبى وعمنى وسعدنى  
وأقربنى وأصدقائى وجرائى ، لم يكونوا يحسنون عيائى .

ولكنهم كانوا يحبوننى ، وكنت أنا الآخر أحبهم . وقبلها ما كانت رغباتى تثير - أو تستحق - معارضة ، حتى ليخطر لى أننى لم تكن لى أية رغبات على الإطلاق ! .. وبوسمى أن أقسم على أننى ما عرفت كنه النزوات أو الشطط فى الهوى . لى أن قدر لى أن أعمل فى خدمة معلم . وفيما عدا الأوقات التى كنت أقضيها فى القراءة أو الكتابة - بصحبة أبى - لو التى كانت مربيتى تصحبنى فيها للنزهة .. فمما عدا هذه الأوقات . كنت دائماً مع عمى ، أجلس أو أقف إلى جوارها . أرتقبها وهى تطلرز ، أو أصفى إليها وهى تغنى . . وكنت أغتبط بهذا . ولقد طبعتم بشائستها ولطفها ووجهها السمح النيرا عموماً ، بهيجا ، فى ذهنى . حتى أننى لا أزال أتمثلها بخلقتنا وبظهورها وتصرفاتها . ولا أزال أذكر لهجتها الحنون . . وبوسمى أن أصف ما كانت ترتديه من ثياب ، وكيف كانت تصف شعرها . دون أن أنسى الجميلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغيهما ، من شعرها الأسود ، على غرار ما كان شائها فى ذلك العهد .

وانى لأعتقد بأننى عديت لها بهيلى - بل ولعى - بالموسيقى ، وهو الوله الذى لم يستكمل نوره فى نفسى إلا بعد ذلك برهن طويل . وكانت تعرف عدداً من الألحان والأغنى الممتازة ، التى اعتادت أن تردها بصوت جد رقيق رخيم ! .. وقد كان الطرب الذى نظرت عليه نفسى هذه المرأة الرائعة ، يطرده عنها وعن كل المحيطين بها الوسواس والاكتئاب . وكان السحر الذى يفرضه غناؤها على نفسى عظيماً ، حتى أن بعض

أغانيها بقيت على الدوام فى ذاكرتى . . بل إن كثيراً من أغانيها التى كنت قد نسيتها تماماً منذ أيام طفولتى . ترتد اليوم إلى ذهنى - بعد أن فقت هذه العمة . وبعد أن تقدم بى العمر - مصحوبة بسحر لا قبل لى بوصفه ! أفيصدق أحد أننى وقد غدت شيخاً مخرفاً ، فتنهيه المهوم والمتاعب ، أجد نفسى - فى بعض الأوقات - منخرطاً فى البكاء كالطفل . عندها أتروم بأحدى هذه الأغنى بصوت متحشرج مهتم . . بل إن إحدى هذه الأغنى عاودتنى بكل جزئية من لحنها ، وإن استقصت على بعض كلماتها . برغم كل جهد أبذله لاستعادتها . وما هو ذا مطلعها . وكل ما أستطيع أن أذكره من بقيتها :

« لست أجرو يا « تيرسيس » على سماع زممارك تحت شجرة الدردار .

« فقد بدا القوم يتحدثون عنا فى قريتنا !

« ... راع . . . من خطر ، فالشوك دائماً تحت الورد » (١)

وانى لاتساءل : أين السحر المؤثر الذى يجده نوادى فى هذه الأغنية لا . أنها نزوة واهمة لا أستطيع أن أفهمها . ومع ذلك فمن المستحيل تماماً أن أردد هذه الأغنية دون أن تقطع

(١) لا تزال هذه الأغنية معروفة فى باريس . وثانمة بين طبقات العمال فيها . وهذه هى نية الكلام التامى :  
« القلب إذا ما اشتبك بحب راع ، لا ينجو من خطر  
« فالشوك دائماً تحت الورد »

على دموعي الاسترسال فيها ! ولقد اعتزمت مرارا لا حصر لها أن أكتب إلى باريس متحررا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها ، على أنني أكاد أكون موقنا من أن تسطو من الطرب الذي أشعر به إذ أتفكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى ، إذا تبينت أن هناك من يؤمن بهذه الأغنية غير عمتى « سوسن » المسكينة !

\*\*\*

وهكذا كانت مشاعري الأولى في بداية عهدي بالحياة .. وهكذا بدأ يتكون ويتكشف في صدري ذلك القلب الأبي الشفوق وتلك الشخصية التي لا تلين ولا تنفك برغم رقتها القويمة من الأنوثة ، والتي استطاعت خلال حبسني - بنفذهما بين الخجل والجرأة ، وبين الضعف والسيطرة على النفس - أن تجعلني مقلبا ، والتي تسببت في أن أصبحت التقوى والمتعة ، واللهو والتعقل ، تغلت من قبضتي على السواء !

ثم قطع على المضي في الخطوة بهذه التربية حادث . كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك في حياتي : فقد أشعر أبي مع « يوزباشي » في الجيش الفرنسي يدعى « جوتيه » . كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبي . ولقد نرف أنف ذلك « الجوتيه » - الذي كان جباناً ، وقحا - أثناء الشجار . فأراد أن يثار لنفسه ، وأتهم أبي بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تشبث أبي - الذي أرادوا أن يلقوا به في السجن - بأن لا بد لصاحب الاتهام أن يرسل هو الآخر إلى السجن ، وفقاً للقانون . فلما عجز عن أن يحقق هذا ، أقر أن

يجبر ( جنيف ) ، وأن ينفي نفسه من وطنه بقية حياته ، على أن يتغلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراهي له !

وبقيت أنا في كهف خالي « برنار » ، الذي كان في تلك الحقبة يعمل في إنشاء استحكامات ( جنيف ) . وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقي له ابن في مثل سني . فأوفدنا معا إلى (بوسى) لتقيم في رعاية القس البروتستانتي « لامبرسيه » ، كي نتلقى - إلى جانب اللغة اللاتينية - كل تلك السغاسف الداعية للأسف ، والتي يزوج بها تحت اسم التربية والتعليم . وقد الأنت المستعان اللذان قضيتهما في القرية من خشونتي الرومانية بعض الشيء . وردتاني طفلا من جديد . فلى جنيف كنت أهوى المطالعة والإطلاع ، إذ لم تكن ثمة مهام مفروضة على .. أما في (بوسى) فإن واجباتي جعلتني أحب الألعاب التي كانت تتيح لى الفرار من تلك الواجبات . وكان الإقليم جديدا بالنسبة إلى . فلم يهن استمناى به ، وقد تملكنتي عاطفة قوية نحوه ، لم تضب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التي قضيتها هناك تملأ نفسي حزنا محسورا إلى بهجتها : في كل فترات حياتي ، حتى اليوم الذي قدر لى فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم !

ولقد كان مسيو « لامبرسيه » ليبيبا . ذكيا . لم يسرف قط فيما كان يرضه علينا من واجبات - ولم يهمل في تعليمنا . ويكفى دليلا على أن أسلوبه في التعليم كان جيدا . أنني برغم كراهيتي للقيود ، لم أذكر مرة سويغات دراستي بامتعاض .. واننى ، حتى إذا كنت لم اتعلم شيئا على يديه ، أنسيت في





فأنتى لم أشهد ، ولا خبرت - خلال عامين كاملين - أى شعور  
أهوج عنيفا ، بل كان كل شيء يفدى فى قلبى تلك الميول التى  
أودعته الطبيعة ليأها . ولم أكن أعرف سعادة تسمو على أن  
أرى كل الدنيا راضية عني ، وعن كل شيء ! ولن أنسى ما حييت  
أن شيئا لم يكن يقض راحة بالي ، تسدر مشاهدتى أمارات  
القلق والاستياء على محيا الأنسة « لامبرسييه » - أخت  
القس - عندما كان يقدر لى أن أتردد أو اتلعم ، وأنا أتلو  
الدرس الدينى من الذاكرة فى الكنيسة . كان هذا - فى حصد  
ذاته - أكثر إزعاجا لى من أن أكشف عن عجز فى أمام اللا ،  
على ما كان فى هذا من إيلاام لنفسى . ذلك لأنه وإن لم يستخفى  
الاطراء ، إلا أننى كنت شديد التأثر بما يخجل . وأنى لأذهب  
هنا إلى القول بأن التفكير فى تانيات الأنسة « لامبرسييه »  
كان أقل إزعاجا لى من الخوف من أن أخرج شعور ما !

على أن الشدة لم تكن تموز الأنسة وشقيقتها . إذا دعا إليها  
الامر .. ولكن هذه الشدة كانت عادلة فى الغالب - ولم تكن  
قط صادرة عن انفعال أو مودة ، ومن ثم فإنها كانت تؤلنى  
نون أن تشير تهدى .. كان الاخفاق فى الارضاء أفسى وقعا  
على نفسى من العقاب ، وكانت أمارات الاستياء أكثر إيذاء لى  
من العقاب البدنى .. وقد يكون من المخرج أن أمضى فى الحديث  
عن نفسى بأكثر من هذا ، ولكننى لا أجدر بدا .. فما أشد ما  
تتغير إليه معاملة المرء للصفار ، إذا قدر له أن يرى بجلاء مدى  
آثار أسلوب المعاملة المألوف ، الذى ينتهج دائما دون ما تبصر  
ولا حكمة ! .. وإن الدرس المهام الذى قد يستمد من مثال

واحد - شائع بقدر ما هو خطير المواقب - ليحمانى على أن  
أروى هذا المثال :

كانت الأنسة « لامبرسييه » تكن لنا حنان الأيومة . ولكنها  
كانت كذلك تفرض علينا سلطان الأم ، وكانت أحيانا تذهب  
فى ذلك إلى حد معاقبتنا - كما يعاقب الأطفال - عندما نستحق  
ذلك . ولقد اكتنبت - بعض الوقت - بالتهديدات ، فكان  
الانذار بالعقاب يبدو لى رهيبا « إذ كان جديدا على .. على  
أتنى تبينت - بعد تنفيذه - أن الواقع كان أقل رهبة من  
التقرب .. والأغرب من ذلك ، أن العقاب جعلنى أكثر تعلقا  
بتلك التى أنفقت فى ! ووجدتني بحاجة إلى أن أترد بقوة هذا  
التعلق ، وبكل ما أوتيت من وداعة قطرية ، لأكبح نفسى من  
اتيان ما قد يجعلنى أهلا لتكرار العقاب ، إذ أننى كنت أشعر  
فى الألم - على ما فيه من خزي - بسدة تجعلنى أقل خوفا ،  
وأكثر رغبة فى أن أحظى به مرة أخرى ، من نفس اليد ..  
ولا ريب فى أن غريزة جنسية ما ، ذات نضوج مبكر سبق  
أوانها ، كانت تخالط هذا الشعور ، لأن عين النوع من العقاب  
لم يكن يبدو مستحبا إذا ما أوقعه بى شقيق الأنسة ! .. على  
أنه لم يكن ثمة خوف من أن يحل القس محل أخته فى معاقبتى ،  
نظرا لرقعة مشاعره . وإذا كنت قد نأيت بنفسى عن أن استحق  
العقاب ، فما كان ذلك إلا عن خوف من أن اتسبب فى استياء  
الآنسة لامبرسييه . ذلك لأن كرم الخلق كان أقوى تأثيرا على  
نفسى من كل لذة حسية . ومن ثم فقد كان دائما يصيطرها  
هذه الأخيرة فى أعماتى !

ولقد نجم تكرار العقاب - الذي تعاقبته دون أن أخشاه - عن غير ذنب مني .. ولى أن أقول أنني أفدت منه ، دون أي تيكيت من ضميري .. ولكن هذه المرة الثانية كانت هي الأخيرة كذلك . لأن الأنسة لامبرسييه - التي لاحظت ولا شك شيئاً اتعنها بأن العقاب لم يؤث الأثر المنشود - أعلنت أن هذا العقاب يضرنيها ، وأنها لذلك اعتزمت أن تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام في غرفتها ، بل وفي سريرها أحياناً ، أثناء الشتاء . ولكننا - بعد يومين - نقلنا للنوم في غرفة أخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعاملة كفتى كبير ، وهو شرف كنت على استعداد لأن أنخلي عنه مقتطاً !

\* \* \*

ومنذا الذي كان يصدق أن هذا العقاب الصعيباني الذي كانت تفزله بي - وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمري - شابة في الثلاثين ، قد أثر على ميولي ، ورغباتي ، وفرواتي ، وعلى نفسي ذاتها ، طوال بقية حياتي ، وبشكل يناقض تماماً النتيجة الطبيعية التي كان ينبغي أن يؤدي إليها ؟ .. فما أن اتقدت مشاعري مرة ، حتى انطلقت شرواتي . وإن لم تحفل بأن تتطلع إلى أكثر من الأرضاء المحدود الذي شعرت به بالفعل في ذلك العقاب ! .. على أنني برغم دمي الحار - الذي كان يتقد بالشهوة منذ مولدي تقريباً - صنت نفسي عن كل شائبة ، حتى السن التي نستيقظ فيها أبعد الطباع وأكثرها فتوراً وبطشاً ! .. نقضت زمناً طويلاً التهم كل الحسان اللاتي كنت أقابلهن بنظرات متقدة ، وأنا أتعذب دون أن أدري لذلك سبباً ! .. وكان خيالي لا يفتر يذكرني بهن ، لا لشيء إلا لاستقلال



كانت كذلك تعرض علينا سلطان الأم ، وكانت أحياناً نذهب في ذلك إلى حد معاشتنا ..

لطيفهم على طريقتي الخامسة ، فاجعل منهن نسحا عديدة من الأنسة لامبرسييه ! .. بل إن هذا الذوق الغريب - الذى ظل كائنا فى نفسى على الدوام : والذى ذهب سلطانه على إلى حد أن غرض على الحرمان واستبد به إلى درجة تثير القبيح - أن أخلاقى : حتى بعد أن بلغت سننى النضوج ، برغم أنه كان خليقا - بطبيعته - بأن يقوض من هذه الأخلاق !

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة ، فهذه هى تربيتى يتينا . فان عماتى الثلاث لم يكن أمثلة للفقوى نحسب ، بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل . وكان أبى محبا للهو ، ولكنه كان فى لهوه من أتباع المدرسة القديمة فى الكياسة ، فما نطق يوما بكلمة يمكن أن تبعث حمرة الخجل إلى وجنت العذارى ، ولو فى حضرة نساء يؤثرن بهما لم يكن يؤثر به سواهن من حب .. ولم يكن الوتار - الخلقى بأن يلتزم فى حضور الصغار - موضوع مراعاة فى أسرة ما ، قدر ما كان مرعيا فى أسرتى ، وفى حضورى ..

وقد وجدت من السيد لامبرسييه نفس الحرص فى هذه الناحية : حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعا ، لمجرد أنها استعملت فى حضورنا تعبيرا كان يعتبر مستهجنا غير لائق ! .. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فكرة واضحة عن الجماع بين الجنسيتين .. ليس هذا نحسب ، بل إن الصورة البهيمية « غير الواضحة المعالم عن الجماع ، لم تكن لتخطر ببالي إلا فى أقبح الأشكال وأزرها . وكنت أشعر نحو البغايا بازدراء عارم لم تخف حدثه يوما ، وظل أى مشهد

للتجور يملأ نفسى بالسخط . بل وبلاشمنزاز دائها .. وهكذا ولد استبشاعى للفسق منذ اليوم الذى سرت فيه إلى تساليل ( بيتى ساكونيكس ) - على غير قصد واضح منى - فشجنت على الجائبين حقرا فى الأرض ، قيل لى أن تلك المخلوقات - البغايا - كن يمارسن فيها بغاءهن . وقد ظل مجرود التفكير فى أى بغى ، يبعث فى ذهنى صورة جماع الكلاب . نكالت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشهنزازى !

هذا الاتجاه الذى اتجهت إليه تربيتى . والذى أدى - فى حد ذاته - إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب .. اقول إن هذا الاتجاه رجد - كما ذكرت - ما يعززه فى الاتجاه الذى اتخذته أولى بوادر الحس الشهوانى فى حالتى . فان اقتصرارى فى شغل خيالى على ما أحسست به بالفعل - برغم ما كان يورث دمي بسببه لى من مضاعف - ملهنى كيف أحول شهوانى نحو هذا النوع من اللهو الذى كنت آلفه ، دون أن اتمادى إلى ذلك النوع الذى وجدت نفسى تيفضه ، والذى كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر ! .. تمكنت فى تصوراتى الطائشة ، وفى يورانى الجنسية المكبوتة - وفى التصرفات الهوجاء التى كانت تدفعنى هذه وتلك إليها أحيانا .. كنت فى كل هذه ، الجأ فى « خيالى » إلى الاستعانة بالجنس الآخر : دون أن يخطر قذى ببالي أن هذا الجنس يصلح لخدمة أى غرض سوى ذاك الغرض الذى كنت أتصرف شوقا إلى أن استخدمه فيه . وعلى هذا النحو استعانت - برغم ما جلت عليه من طبيعة شهوانية عوجاء - بغير أى شئ للنضوج -

أن اجتاز فترة البلوغ دون شهوات . بل دون ما إدراك لأية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التي نبهت الأنسة لامبرسييه حسی إليها في براءة تامة ، ودون أن تفتن !

فلما بلغت - مع الزمن - مبلغ الرجل . إذا بالاحاسيس التي كانت خليقة بأن تقضى على : هي ذاتها التي صانعتني من الدمار . . وبدلاً من أن يخفق شعوري الصبياني القديم ، إذا به يقترب بالشعور الآخر - المثاسي - بدرجة تعذر على معها أن أقصيه عن الرغبات التي أخذت شهواتي تذكيها في نفسي . . وكان هذا الجنون . إلى جانب ما جبلت عليه من خجل فطري ، يجعلني دائماً أبعد ما أكون عن أن أروق في نظر النساء ، إذ كانت تعوزني الجراءة على أن أقول كل ما ينبغي أن يقال ، كما كانت تعوزني القدرة على أن أفعل كل ما ينبغي أن يفعل . . ذلك لأن النوع الذي كان يروق لي من المذعة - والذي كانت اللذة الأخرى هي الحلقة النهائية المكملة له - لم يكن مما يلجأ إليه المشوق إلى اللذة ، ولما مما يخطر ببال المرأة التي تجد من نفسها استعداداً لأن تمنح اللذة !

\*\*\*

وهكذا قضيت عمري في شوق متعاسف ، دون أن أنبس ببنت شفة في حضرة أولئك النساء اللواتي احببتن كل الحب . . على أنني أرضيت ذوقی آخر - وأنا أشد ما أكون استحياء من المجاهرة به - في مواقف كانت تتشظى معه ، وإن احتفظت في نفسي بالفكرة . . فكان مجرد الاستلقاء عند قدمي سيدة جليلة ، وإطاعة أوامرها ، واستغفاري إياها ، أحلى

متعة في رأيي . . وكلها أذكى خيالي الشفيط وقدة دمهاني . ازداد ظميري بمظهر العاشق الخجول . ومن السهل أن يتصور أي امرئ أن هذا النيج في النوى لا يقود إلى نتائج عاجلة . ولا هو جد خطير على غضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه . . ومن أجل هذا . ندر أن ضاجعت امرأة . ولكنني - مع ذلك - متعت نفسي بطريقتي الخاصة . . أعنى ، في خيالي فقط . . وهكذا نسني لأحاسيسي المنسجمة مع طبعي الخجول وروحي الخيالية الشاعرية . أن تصون مشاعري نقية . وأخلاقى خالصة مما يعاب . وذلك بفضل نفس الزوايا التي كانت خليقة - إذا ما اقترنت بقليل من الفزق - بأن تخرج بي إلى أبشع مسلك شهوى حيواني !

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات في الظلم وأقذر الدروب في اعترافاتي . وإِنَّه لايسر على المرء أن يعترف بالذنب . منه بأن يقر بالفزق الذي يدعو إلى الخزي . ومن ثم فإني وافق من أنني - بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت - لن أجفل من شيء . وفي وسع أي إنسان أن يقدر مدى ما كيدتني هذه الاعترافات . إذا علم أنني خلال حياتي كلها لم أجسر قط على أن أنقض بشيء من ضلالاتي لأولئك الذين احببتهم بعاطفة هوجاء حرمتني البصر والسمع ، وسلبتني مداركي ، وجعلتني ارتجف في اختلاجات غنية . . فما استطعت يوماً أن أحمل نفسي على أن أسأل امرأة أن تمنحني النعمة المشتهاة دون كل النعم ، مجاً كنت وثيق الصلة بها . . أجل لم يحدث لي هذا سوى مرة واحدة ، وكان ذلك في حدائتي ، ومع غتاة من سني . . وحتى في تلك المرة ، كانت الأنسة لا تملك أن ترضى



وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى في حياتي الداخلية ،  
اعتبر على عوامل قد تبدو - في بعض الأحيان - غير ذات بلاء ،  
ولكنها مع ذلك اتحدت لتنتج في قوة أثرا بسيطا مهيبا . . كما  
أعثر على عوامل أخرى - قد تبدو - في ظاهرها - كسابقتهاء  
ولكنها كانت اتحادات مختلفة عن تلك . بغض تعاون ظروف  
معينة ، دون أن يتصور المرء مطلقا أنها كانت مترابطة . . .  
تمثالا ، منذ الذي يعتقد أن نزعته من أقوى نزعات نفسي قد  
هذبت وذلك في أعماق النبع الذي فاض منه في دمي سيل  
من الشهوة ومن التخنث . . . ولسوف أرسم على ضوء هذا  
الموضوع - ودون أن أخرج عن نطاقه - صورة أخرى مختلفة:  
نقد حدث ذات يوم أن كنت استذكر درسي في عزلة في الحجرة  
المجاورة للمطبخ . وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الأنسة  
لامبرسييه أمام المدفأة لتجف . فلما جاءت لتستعيدها ، وجدت  
مشطا قد تحطمت جميع أسنانه . . فعلى من كان يقع اللوم ؟  
لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواي ! فلما سمسكت ، انكرت  
أفنى مسبب الأمشاط : فشرع السيد والأنسة لامبرسييه  
في أخذى بالرفق ، ثم بالضعف ، ثم بالوعيد . ولكنني أصررت  
على إنكاري في عناد . على أن القرائن كانت جد قوية ، بحيث  
فاقت كل احتجاجاتي - برغم أنها كانت المرة الأولى التي ظن  
فيها أنني أكذب بمثل هذه الجراة ! - فاعتبرت المسألة خطيرة ،  
وكانت في الواقع جديرة بذلك . وبدأ الذنب . والكذب ،  
والعناد . خليفة كلها بأن تتطلب العقاب . ولكن العقوبة لم  
تفخذ بيد الأنسة لامبرسييه في هذه المرة ، وإنما أرسل خطاب  
إلى خالي برنار ، تحضر وأنهم ابن خالي المسكين بذنب آخر

خطير . لا يقل عن ذنبي ، فحق عليه نفس العقاب ، وما كان  
أفظعه . . . غلو أنهم شاعروا أن يستخلصوا العلاج من الداء ،  
وأن يقتلوا إلى الأبد أحاسيسي المكبوتة ، لما فعلوا أكثر مما  
فعلوا في هذه المناسبة . فقد كتبت مشاعري الشهوية عن  
إزعاجي أمدا طويلا بعدها !

ذلك أنهم لم يستطعوا أن ينتزعوا مني الاعتراف المنشود .  
ومع أنني مثلت بين أيديهم عدة مرات . وعرضت لمحاولات  
أرهقني إلى درجة خليقة بالراء : إلا أنني لم أترمزع عن  
موقفي . وكنت على استعداد لأن أصمد حتى الموت . وقد  
عقدت عزمي بالفعل على ذلك ! واضطرت القوة إلى أن تراجع  
أمام « العناد الشيطاني » الذي كان صادرا عن غلام صغير -  
كما وصفوا نباتي - وأخيرا نجوت بجلدي من هذه المحاكمة  
القاسية وأنا محطم . . ولكنني كنت منتصرا ! ولقد انقضى  
حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث - فلمست  
أخشى أن أعاقب ثانية من أجله - ومن ثم غانني أعلن على  
مشهد من السماء أنني كنت بريئا من الذنب ، وأنتي لم أكسر  
المشط أو أمسه . ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت في ذلك  
. . . ولا جدوى من وراء سؤالي عن كيفية حدوث ما حدث !  
فانني لا أدري ولا أستطيع أن أدري . . كل الذي أعلمه عن  
يقين : هو أنني لا شأن لي به !

\* \* \*

ولكم أن تصورا شعور غلام خجول . ومطيع في حياته  
العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز

إننى لأشعر - إذ أكتب هذه الكلمات - بأن خفقات قلبي تتسارع - فليسوف نزل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامي أبداً ، ولو عشت مائة ألف سنة !.. لقد ظل أول شعور لي بالعنف والظلم محفوراً في نفسي إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تردني دائماً إلى الانفعالات الأولى التي خالجتني . وقد اشتد هذا الشعور ، الذي لا قيمة له في جوهره إلا لدى أنا وحدي ، اشتد في حد ذاته ، واستقل عن كل تأثير أو ميل شخصي ، حتى أن قلبي ليكتوي حنقاً كلما سمعت أو رأيت أي عمل من أعمال الظلم - مهما تكن قريسته أو أينما يرتكب - وكأنما ينصب تأثيره على أنا . وعندما أقرأ عن فظائع أي جبار طاغية ، أو منكورات أي قس لئيم ، قائني لا أتردد في أن اتحمق خنجراً في قلب شقيين كهذين ، وأنا مسرور . ولو قضى على بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك !.. وكثيراً ما انهكت نفسي - حتى يتقصد المشرق مني - وأنا أطارد ، أو أرمي بالأحجار ديكاً أو بقرة أو كلباً ، أو أي حيوان أكون قد رأيته يعذب حيواناً آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى !.. وقد تكون هذه النزعة طبيعية بالنسبة لي - وإنني لأعتقد أنها كذلك ! - ولكن الأثر الذي خلفه الظلم الأول في نفسي ظل طويلاً مرتبطاً بها بقوة بالغة ، إلى درجة أنه يمكن من الممكن معها ألا يتقوى ويشتد !

وبؤقوع الحادث الذي رويته ، ولت طمانينة ملفولتي ووداعتها ، تكلفت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية . ولا أزال أشعر - إلى

المواطف . . غلام لم ينفذ قط إلا إلى صوت العقل . ولم يعامل إلا بالرفق . والانصاف . والتقدير . فليست لديه أية فكرة عن الظلم . . تصوروا غلاماً كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم . وعلى أيدي أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم أكثر من غيرهم !.. غيالباً من صدمة خيبت آراءه ! ويا له من حادث أخل باتزان مثاعره ! ويا له من انقلاب المم بقلبه وعقله وكل كيانه الذهني والمعنوي على صفره ! تصوروا هذا إن استطعتم !.. أها أنا - نائني اعجز عن تبين أو تتبع أي أثر من الآثار التي خالجتني من جرانه !.. ذلك أنه لم يكن لي من الإدراك يومئذ ما يمكنني من أن أرى إلى أي مدى كانت الظواهر تتضد ضدتي . ومن أن أضع نفسي في موقف الآخرين . لقد صمدت في موقفتي . فكان كل ما شعرت به بمثل في تسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه . . ولم أحس بالألم الجسدي - برغم شدته - إلا قليلاً . وإنما كان كل شعوري ينحصر في السخوط ، والغضب ، والقنوط . . وكذلك كان ابن خالي - الذي كانت حاله مشابهة لحالي . والذي عوقب لخطأ صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملاً مدبراً متعمداً - فقد لاذ بسخط مثل سخطي ، وانساق إلى عين الانفعال الذي انسقت إليه . وإذ كنا ننام في سرير واحد . فقد احتضن كل منا الآخر في ضمت تشنجية ، حتى شعرنا بأننا نوشك أن نخنق . وعندما سرى من قلبي الصفرين بعض الشيء - في النهاية - بدا القلببان ينثان غليها . فاستويتا جالسين في سريرنا ، ورحنا نصرخ بأعلى صوتنا . مرات لا عداد لها : « أيها الجلال !.. الجلال !.. الجلال ! »

طفولتي ، وقتت عند ذلك الحد ! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور في ( بوسى ) ، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا في جنة ارضية ، ولكننا لم نعد نستمتع بها ! صحيح ان حالنا ظلت في ظاهرها على ما كانت عليه . ولكنها كانت مدبغرة في جوهرها تغيرا تاما . فان التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم تعد تربط التلميذين برأئديهما . ومن ثم غابا لم نعد نعتبرهما من « الآلهة » ! لم نعد نعتبرهما إلهين قادرين على استدلال قلبينا . ولهذا أصبحنا أقل من ذي قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء . وأكثر خوفا من أن نعرض للانهمام . . . وبداننا نفقد سذاجتنا . وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب . . . وقوضت كل رذائل السن التي كنا نجتازها . براءتنا ، والقت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا ! بل إن الريف ذاته فقد في نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاشنين تتفلقلان في القلب : وأصبح يلوح لنا بوحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استقر وراء قناع حجب جماله عن أعيننا . فكففنا عن فلاحه حوضينا في الحديقة . وعن غرس نباتاتنا وزهورنا . . . ولم نعد نفلح الأرض في رفق ونصبح فرحا حين نرى البذرة التي غرسناها قد بدأت تنشق وجه الأرض . أصبحنا نكره الحياة ، وأصبح الغير يكرهونا . ومن ثم اصطحبنا خالي معه : فافترقتا عن السيد والآنسة لامبرسييه وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر : فلم نأسف على الفراق إلا قليلا . . . بل لقد مكثت حوالي ثلاثين عاما بعد مغادرة ( بوسى ) دون أن استعيد فتسرة إقامتي بها مصحوبة بأي سرور أو ذكريات !

أما الآن — وقد تجاوزت شرح العمر ، وأخذت أدنو من الشيخوخة — فأننى أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالي . بينما يتوارى سواها . . . إنها لتتطبع علي صفحة ذاكرتي بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم . وكأنتي — إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل منى — أدول أن أمك بناصيتها . فاعتبط باتفه أحداث ذلك العهد . لا شيء إلا لأنها تنمى إلى تلك الفترة من حياتي . . . واكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكا في تنسيق الغرفة ، أو عصغورا يهرق خلال النافذة ، أو ذبابة تحط على يدي وأنا اتلو ما استذكرت من دروسى . . . بل إننى لأتمثل الغرفة التي اعتدنا أن نقيم فيها . بكل تفصيلاتها . . . وإلى يمينها غرفة مكتب السيد لامبرسييه ، ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات ، و « بارومتر » ، ونقويم ( نتيجة حائلا كبير معلق على الجدار . وأشجار الخدش ) ، الكيفية — التي كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة — تواجه مؤخرة الدار . ومن ثم فإنها كانت تفسر ضلالتها على النافذة . وقد تتقحمها أحيانا . . . وإنى لأدرك أن القارئ غير راغب في الإسلام بكل هذا ، ولكنى مسوق إلى أن أفسه عليه . فلماذا لا توانيني الجراءة على أن أروى له كذلك بل الحكايات التافهة التي وقعت في ذلك العهد السعيد . والتي تهزنى نشوة حين أذكرها ؟

إنني لأتوق إلى أن أروى خمسا أو سنا منها - بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صنقة بيننا ! سأنزل عن خمس منها ، بيد أنني راغب في أن أروى لك السادسة ، على شريطة أن تسمح لي بأن أرويها بكل تفصيل ممكن ، لكي أطيل في اغتيابي .. ولو أنني اقتصرمت على ما فيه نكاهة لك ، لاخترت لك قصة سقوط الأنسة لامبرسييه في المرج ، واكتشاف ظهريها - أو عجزها على الأصح - لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله لك سردينيا ، الذي تصادف مروره في تلك الفترة .. ولكن قصة شجرة الجوز المظلة على الشرفة ، أكثر إمتاعا لي . إذ قمت فيها بدور - في حين كنت مجرد متفرج في قصة السقوط في المرج ! - كما أعترف بأنني لا أجد ما يدعو قط إلى الضحك في حادث أثار - برغم طرافته - خوفا على سلامة شخصي كنت أحبه . فقد كنت أحب الأنسة لامبرسييه كام ، بل أكثر من أم !

والآن ، انصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المظلة على الشرفة .. انصتوا إلى الأنسة الرهيبة ، وحاولوا أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم ! .. ففى خارج باب فناء البيت ، كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فميا بين الظهرة والأصيل . ولما كانت في ثمر وقاء من الشمس مطلقا ، فقد أمر السيد لامبرسييه بإقامة شجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها في أكثر مظاهر الاحتمال جلالا ، إذ اختير نزيلا الدار - أنا وابن خالي - أشبينيين للشجرة ! وبينما كان التراب ينهال في الثغرة التي أقيمت فيها الشجرة ، أسند كل منا الشجرة باحدى يديه ، ورحنا نردد

اناشيد الانتصار والفوز ! .. وارى الشجرة ، انثىء حول أسفل جذعها ما يشبه الحوض ، وإذ رخت وابن خالي نرقب ربيها كل يوم بشنف ، اشتد بنا الاقتناع - بطبيعة الحال - بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى في الشرفة ذاتها ، فإن هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على أن نستائر بما في هذا العمل من فضل ، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرننا فمقطعنا غصنا من صفصافة ، وغرسناه في الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شجرة الجوز الضخمة . ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التي حفرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت في ابتكار طريقة للماء القناة بالماء ، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنا أن نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن نمة غنى عن اجتلاب قدر منه لمصفاقتنا . وقضينا بضعة أيام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة في الشجرة ، فنبئت عليها أوراق صغيرة . وأقمنا نموها - الذي كنا نحسبه ونقيسه في كل ساعة - بانها لن تلبث أن تنبث علينا ظللا ، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحدة ! .. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا حتى أننا لم نعد قادرين على تلقى أو استذكار أى درس ، وأمصبنا في غشية حجبنا عن عقولنا كل شيء آخر .. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لا يعرفان ما لهما

رأينا أن اللحظة الحاسمة التي لن نجد فيها ماء لشجرتنا وشبكة الحلول . قطارت نفسانا شعاعا لجرد التفكير في رؤية الشجرة تذوي من العطش . . . وأخيرا ، أوجت لنا الحاجة — وهي أم الاختراع — وبطريقة نجبنها الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد . وذلك بأن نحفر قناة تحت سطح الأرض ، تسرب إلى صفتاننا — خفية — قسطا من الماء الموجه إلى شجرة الجوز . . . على أن المشروع فشل في البداية . برغم الحماس الذي اكتنف تنفيذه . فقد حفر النفق بطريقة بدايه . فلم يجر الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة . وإملا المدخل بالطين ، وتلف كل شيء ؛ ولكن شيئا من هذا لم يلبط من عزمنا . فان الداب يقهر الصعاب جميعا . ومن ثم زدنا المجرى عمقا لنتمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا تيمان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة . بسط بعضها على القاع — شريحة إثر شريحة — وأقيمت الباقية على الجانبين بميل اقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسنا بضغ قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت أشبه بحاجز أو مصفاة نصد الوحل والأحجار دون أن تمنع انسياب الماء . . . ثم غطينا مجرانا بتراب دسناه في حذر وعناية حتى سويتاه مع سطح الأرض . وإذا انتهى كل شيء . شرعنا نتأمل — ونحن في أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف — موعد الرئى . . . وحانت الساعة أخيرا ، بعد انتظار خلناه استغرق قرؤنا . نجاء السيد لامبرسييه ليعاون في العملية كالمتعاد . يتجهنا حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكي نحجب شجرتنا ، التي كان — لحسن الحظ — يولها ظهره !

وما أن سكب أول دلو من الماء ، حتى رأينا بعضه يجري إلى قناتنا . وعند هذا المنظر غارقنا تعقلنا ، نبدانا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد لامبرسييه على أن يلتفت ، وكانت هذه هي الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التي قامت فيها شجرة الجوز من جودة ، وكيف ابتليت الماء بشراة . وإذا دهش لرؤيته المساء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وانعم التخلسر ، فتيين الحيلة ؛ وإذا ذاك أمر باحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثا من خشبنا ، ثم صرخ بصوت جهوري : « قناة ! قناة ! » ، وراح يكيل الضربات في كل اتجاه ، دون ما رحمة . فكانما كانت كل منها تحسب قلبنا مباشرة ؛ وإن هي إلا لحظات حتى كانت شرائطنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها ، والمصفاة ، وكل شيء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدمري بكلمة ؛ اللهم إلا ذلك التعجب الذي راح يكرره دون توقف : « قناة ! » . . . وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء : « قناة ! قناة ! » . ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن المقامرة انتهت أسموا نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ؛ ولكن هذا الحدس خاطيء ، فقد انقضى ذكرها بانتفاء الهمم . ولم ينبس السيد لامبرسييه قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا في استياء ، كما أنه لم يشر إليها بشيء مطلقا ، بل أننا لم نلبث أن سمعنا بعد قليل يتفقه مع أخيه ، فقد كانت تفهقه تسمع من بعد . . . على أن الأكثر مدعاة للدهشة هو أننا — بعد أن رأينا الخوف الأول — لم نشعر بأي انزعاج أو ضيق ، بل انقاعا في شجرة متبقية في



بقعة أخرى ، وكثيراً ما كنا نذكر أنفسنا بالنكبة التي انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رخنا نردد في لهجة ذات معنى : « قناة ! قناة ! » .. وكانت تواتني - حتى ذلك الوقت - نوبات من الزهو - بين آن وآخر - إذ أخال نفسي مثل « أريستدس » أو « بروميس » أو غيرها من أبطال التاريخ . ولكن هذه التوابع لم تلبث أن زابتني إذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لي أن إنشائنا قناة بأيدينا ، وغرسنا قرعا من شجرة لتتحدي به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى إلى ذروة المجد .. وهكذا كنت - وأنا في العاشرة من عمري - أقدر على تمييز المجد من « قيصر » حين كان في الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها ، حيتين في ذاكرتي ، أو أنني عادت إليها بعد حين ، حتى لقد كان من المشروعات التي وفرت لي سرورا عظيما - خلال رحلتي إلى جنيف ، في سنة ١٧٥٤ - أن قررت الذهاب إلى ( بوسى ) وزيارة مراتع صباي ، وفي مقدمتها جميعا « شجرة الجوز » التي كان عمرها في ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن ! .. ولكنني شغلت طيلة فترة وجودي هناك ، ولم يكن لي كثير سلطان على نفسي ، فلم أجد لحظة أرضى فيها هذه الرغبة . وليس ثمة احتمال يذكر في أن تسفح لي هذه الفرصة مرة أخرى ، ومع ذلك فإن الرغبة لم تتلاش ببعد الأمل في تحقيقها ، بل أكاد أوقن من أنني إذا قدر لي أن أعود إلى تلك البقاع

الحبيبة ، وأن أجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيسد الحياة ، فلن أحجم عن أن أروبها بدموعي !

\*\*\*

وبعد عودتي إلى جنيف ، اهتمت مع خالي عامين أو ثلاثة ، ريثما يقرر اصداقائي ما ينبغي أن يتم بشأني . ولما كان خالي قد أراد ابنه على أن يكون مهندسا ، فقد جعله على أن يتلقى شيئا عن الرسم ، كما عليه مبادئ « إيوكليد » (١) ، فاستفكرت هذه المواد معه ، وتولاني ميل إليها ، وإلى الرسم بوجه خاص . وفي تلك الاثناء ، كان الجدول يدور حول ما إذا كان يخلق بي أن اصبح صانع سامات ، أو من رجال القانون ، أو قسسا واضعا ! .. وكان ميلي يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها ، إذ كان الوعد يدعو لي أمرا بغيما ، بيد أن الدخل الضئيل الذي كان يدره عقار أمي - والذي كان يجب أن يقسم بيني وبين أخي - لم يكن كافيا لأن يمكنني من متابعة دراساتي . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار ، نظرا لمشي في تلك الفترة ، ولذلك مكثت مؤقتا مع خالي ، دون أن أفيد كثيرا من وقتي ، ودون أن أدفع مبلغا يذكر لقاء نفقات إقامتي ، كما كان الانصاف يقتضي .. أما خالي ، فمع أنه كان محبا للهو مثل أبي ، إلا أنه كان عاجزا عن أن يكون مثله في تقيده بالواجب ،

(١) كان « إيوكليد » عالما رياضيا عاش في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد وضع اصولا - أو مبادئ - للعلوم الرياضية في ١٣ مجلداً ، خمس الهندسة منها بنسمة مجلدات .

على إعداد مسرحيات فككة من وضعنا . ولما كانت تعوزنا  
الأداة التي تصدر ذلك الصوت الموصو المصروع ، فقد  
عمدنا إلى تقليده بأصوات تصدرها من حلقينا . لكي نخرج  
مسرحياتنا الفككة البديعة ، التي تفرح أقاربنا المساكين  
المتفضلون بالصبر كي يجلسوا وينصتوا إليهما ؛ ولكن خالي  
برنار قرا على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من تأليفه . ناذر  
بنا نهجر المسرحيات الفككة لنؤلف المواعظ !

وإني لاعترف بأن هذه التلصيلات ليست مشوقة جدا ،  
ولكنها تبين كيف أن تربيته الأولى كانت موجهة خير توجيه ،  
كما يبدو من أننا ندر أن انشقنا إلى أساءة استغلال الفرص  
التي كانت متاحة لنا : برغم أننا كنا سيدي أنفسنا وصاحب  
السيطرة على وقتنا . في تلك السن المبكرة . . . ذلك لأننا لم  
نكن بحاجة تذكر إلى أن نشهد رقاقا وزملاء . حتى أننا كنا  
نهمل الفرص التي تقود إلى ذلك . فكنا إذا خرجنا للتريض ،  
نظفنا ، ونحن نمر بإندادنا في السن . إلى وسائل لهوهم ،  
دون ما أدنى رغبة ، بل دون مجود التفكير في أن نشركهم  
أياما . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلوبنا نهم الماء . حتى لقد  
كان يكفي أن نجتمع معا . كي تجعل من أبسط أسباب التسلية  
ملهاة سارة . . . وما لبثنا أن استرعيانا الانتباه بتلازما هذا ،  
وعدم اعتراقتنا . سيما وأن ابن خالي كان غارح الطول . بينما  
كنت أنا جد قصير . فكنا نؤلف فثانيا غريب التكوين . . . كان  
قوام ابن خالي الطويل التحيل ، ووجد . . . الصغار الشبيهة  
بالتضاح المسلوقة . وأخلاقه الرقيقة . . . وشعره البني

كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا . وكأنت عمتي  
تعتبر من المنصرفات للثقوى . . بحيث كانت تؤثر أن تتشدد  
المزاجير على أن تعنى بتعليمنا ! . . ومن ثم فقد أتاحت لنا حرية  
كادت أن تكون مطلقة ، ولكننا لم نسمي استغلالها قط ، فكنا  
دائما قاتمين بحجبتنا أحدا للآخر . إذ لم تكن تفرق قط ،  
كما أننا لم نتعرض لمخريات تحملنا على أن نتخذ من اندادنا من  
أبناء الشارع رقاقا . فلم نتعلم شيئا من العادات النحلة التي  
كان التطفل خليقا بأن يفودنا إليها . . بل إنني لأخجل ، إذ أقول  
إننا كنا متبطلين « فأننا لم نتخط قط إلى هذا الدرك في حياتنا .  
وكان من أعظم ما حيانا به الحظ أن كل الطرق التي كنا ننتهجها  
لتسلية أنفسنا ، والتي شغفنا بها على التوالي ، كانت تشغلنا  
معا في البيت . دون أن تنساق لغواية الخروج إلى عرض  
الطريق . . فكنا نصنع أقماسا ، وصانرات « الناي » ،  
وخذاريق ( النحلات التي يلعب بها الأطفال ) ، وطبول ،  
وبيوتا ، وقاذفات للحمى ( أو مقاليح ) ، وأقواسا للرماية .  
ولقد اطلفنا أدوات جدنا في محاولتنا أن نصنع ساعات ، كما  
كان يصنع هو . . . وكان لنا مزاج خاصر في الأسراف في هزاح  
الورق ، وفي الرسم ، واستخدام الألوان المائية . وتوزيع  
الأضواء . وإفساد الألوان . ولقد وقد على جنيف صاحب  
سرح إيطالي يدعى « جابيا - كورتا » ، فذهبتنا لمشاهدة عرضه  
مرة . لم نرغب بعدها في الذهاب مرة أخرى . . . ولكنه قدم  
فينا قدم عرضا للدمى ( على غرار خيال الظل ) ، فأعشرنا  
نصنع دمي . . ولما كانت عرائسه تمثل نكاهات . فقد عكفتا

المختلطة ، تستثير مسخف الأطفال ، فكان يسمى في مساحة  
الحى « بارنا بريدانا ! » ، وكنا حين نغادر البيت لا نسمع  
سوى صيحة « بارنا بريدانا ! » تحف بنا . وقد احتل عو  
ذلك بهدوء ناعق هدوئى ، إذ كنت أفقد جلدى ، وأبدى الرغبة  
فى العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار . وقد  
لى ان انتحار مرة ، فميت بالهزيمة . وحاول ابن خالى  
المسكين ان يساعدنى ما استطاع ، ولكنه كان ضميئا ،  
فصرمته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجى . على اننى -  
وإن ظنيت لكلمات وأقرفة - لم أكن المهدف الحقيقي للعنوان ،  
وإنما كان « بارنا بريدانا » هو المهدف . وما ليث غيظى  
المستعر أن زاد من استفحال الموقف . حتى اننا لم نعد نجرؤ  
على الخروج من الدار - فيما بعد - إلا فى أوقات المدرسة ،  
خشية ان يمتعنا الأطفال ليسخروا منا !

الأترون إذن اننى أقممت من نفسى ماحيا للمظالم . . . ولكى  
أصبح « بالادين » (١) حقا ، كنت فى حاجة إلى سيدة ، ولكننى  
أوتيت اثنتين ! فلقد اعتدت ان أذهب - بين وقت وآخر -  
لزياره أبى فى ( نيون ) ، وهى بلدة صغيرة فى إقليم ( غود ) ،  
استقر به المقام فيها . وقد حظى بحب القوم هنالك ، وقد  
لأبنه أن يشعر بأثار ذلك « على الفترة القصيرة التى كنت  
أملكها معه ، كان الأصدقاء يتبارون فى الاحتفاء بى . وقد  
أقترنتى سيدة منهم - كانت تدعى السيدة « دى فيلسون »

(١) رمز للبلال الذى يدافع عن الحق وينزع الجور عن المظلومين .

- بالف قبلة ، ثم توجهت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتني ابنتها  
عشيقا لها . . . ومن الميسور أن تنهوا معنى « العشيق » هنا  
إذا تذكرتم اننى كنت فى الحادية عشرة من عمرى ، فى حين أن  
النساء كانت فى الثانية والعشرين . . . ولكن هؤلاء الشابات  
الخبثات - جميعا ! - لم يكن يتورعن قط عن أن يلعبن  
أمام الملاء بضمي صغيرة - مثلى - لكى يسترن وراءها عشاقا  
كبارا ، أو لكى يغوين بها هؤلاء الكبار . . . أما أنا ، فلم أر  
شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محل الجد ،  
وانغمست بكل قلبى - أو بالصرى بكل رأسى - إذ اننى لم  
أقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسى ، فتهاديت إلى درجة  
الجنون ، وكان طربى وانفعالى وخبسالى تؤدي إلى مفاخر  
كافية لأن تجعل أى فرد لا يتمالك نفسه من الضحك حتى  
ينشق جنباه !

ولقد الفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن  
الأخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما أى تشابه ، وإن  
كان كل منهما حارا مشبوها ، كما انهما يختلفان - كلاهما -  
عن الصداقة العاطفية . . . بل إن عمرى كله كان موزعا بين  
هذين النوعين من الحب : برغم اختلافهما الجوهرى ، فاعتدت  
ان أشعر بهما معا ، وفى آن واحد . . . مثال ذلك اننى فى الفترة  
التي أتحدث عنها ، وفى الوقت الذى كنت فيه مغرما بالآنسة  
« دى فيلسون » جهارا وفى أنائية طاغية - حتى اننى لم أكن  
أطلق من يقترب منها أى رجل ! - فى تلك الاثناء بالذات ،  
حظيت - عدة مرات بلقاءات قصيرة

معينة - ندعى الأنسة « جونون » - فكانت تعبد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة ! وكان هذا غاية الأمر . ولكن « غاية الأمر » هذه - وكانت هي « الغاية » فعلا - بالنسبة لى - بدت في نظري بتتجى السعادة . . وإذا شعرت بقيمة القموض ، وإن لم أكن أدرى كيف استغله اللهم إلا في نطاق حبل الطفولة ، رحت أكل بنفسي الكيل للأنسة « دى غيلسون » - التى لم ترتب في الأمر - جزاء دأبها على استغلالى كسثار لإخفاء عشاق آخرين ! بيد أن سرى لم يلبث أن تكشف - وبأ لعظم أسنى ! - أو أنه لم يحط من معلمتى الصغيرة بطل ما كنت أحيطه به من كتمان . ومن ثم فسرعان ما اقترقسا . . وحدث بينما كنت اجتاز « كوتانس » ، في طريقي إلى « جنيف » - بعد ذلك بوقت قصير - أن سمعت بعض فتيات صغيرات بهتلن متهمات : « جونون تيك - ناك روسو » !

ولقد كانت هذه الأنسة « جونون » الصغيرة فتاة غدة . . فمع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها أوتيت وجهها لا يسهل نسيانه . ولا أزال أمثله في مخيلتى في كثير من الأحيان . في حنان لا يليق بشبح أرعن ! . . وما كان شكلها ، ولا أخلاقها . ولا عيناها - قبل كل شيء - بالتى تتناسب مع سنها . وكان لها مظهر اسم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كعلاقة : بل إن مظهرها هذا هو الذى أوحى إلينا - في الواقع - بأول تنكير في هذا الدور . . ولكن أغرب ما كان فيها . هو امتزاج بين الرعونسة والتحفظ ، لم يكن من الهين إدراك ما ناه . . كانت تتصرف معى بكل حريتها ، ولكنها أبدا لم تسمح لى بأن أعالجها

بأى تحرر . . كانت تعاملنى كما تعامل طفلا نصيب . . مهما بوحى إلى بان اعتقد أحد أمرين : إما أنها لم تعد - إذ ذاك - طفلة . وإما أنها كانت - على العكس - من الطفولة بحيث أنها لم تر في الخطر الذى كانت تعرض له نفسها سوى لون من القسوة واللهو !

وكنيت أحب نفسي تملها - كما ينبغي أن يقال - لكل من هاتين الفاتنتين . فإذا ما كنت مع إحداها . لم أفكر بطلقا في الأخرى . وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة أى شبهة - مهما يكن ضيلا - بين المشاعر التى كانت كل منهما تبعثها في نفسى ! كان بوسعى أن أنفق كل حياتى مع الأنسة « دى غيلسون » دون أن يخطر لى أن أفارقها ، ولكن اغتباطى بالقرب منها كان عادئا وخلوا من الانفعال . وكنيت أحبها أكثر مما أحببت أية فتاة من فتيات المجتمع الراقى ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماع . والمجون المستظرف ، وما كانت تديه ، من مظاهر الفيرة العابرة : تستهوينى وتبثثر بشغفى . وكنيت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه على من مظاهر الإيثار أمام المراهقين الكبار الذين كانت تعاملهم في ازدياء . . وكنيت أتعجب ، ولكنى أحببت العذاب . . وكان التصفيق : والتسجيع . والضحك . تبعث الفتاة والإلهام في نفسى . . وكنيت فتاتين نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفض في فكاهات جريئة . . كان الحب يحيلنى شخصا آخر ، في المجتمعات . . أما في الخلوات . فنكنت محرجا ، غائرا ، بل لعلى كنت ضيق الحسرة . ومع ذلك ناننى كنت أشعر

وكنفت انا لم اذا هي مرضت ، بل انني كنت اتفنى لو اهبها  
صحتي كي تستعيد عافيتها - برغم انني كنت أعرف ، بالتجربة ،  
معنى المرض ومعنى العافية ! - وكنفت اكرر فيها واقتندها  
حين اغيب عنها .. اما حين اكون بالقرب منها ، فان عناقها  
كان يهز قلبي ، دون ان يهز حواسي ! كنت متعلقا بها دون  
ما طمع يشوب حبي ، فكان خيالي لا يطلب اكثر مما كانت عي  
تنعم على به ، ومع ذلك فاني لم اكن اطيع ان اراها تفعل  
مثل ذلك للغير . كنت احبها حب الاخ لاخته ، ولكنني كنت اغار  
عليها غيرة العاشق على معشوقته .. وكنفت خليقا بان اغار  
على الانسة « جوتون » غيرة التركي ، او المجنون او النمر ،  
لو انني توهمت مرة انها قادرة على ان تبدي لغيري ما كانت  
تبديه لي من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل ان هذه  
المعاملة كانت صنيعا اعتدت ان اسالها اساءه وانسا جاث  
امامها !

كنفت اسمي إلى الانسة « دي فيلسون » بفرح طاع . ولكن  
دون ما انفعال ، في حين انني كنت لا اكاد ارى الانسة  
« جوتون » حتى تنبهر حواسي ، فلا اعود ارى سواها ! ..  
كنفت آلف الاولى دون ما كلفة ، بينما كنت في حضرة الثانية  
على التقبض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى في اقمعي درجات  
الفتنة . واماقتد انني كنت خليقا بان اموت لو انني مكنت منها  
طويلا ، فان خفقات قلبي كانت كثيلة بان تخفق انفاسي ! ..  
وكنفت اخشى ان تستاء مني الاثنان على السواء ، ولكني كنت  
اغير الاولى بمزيد من حفاوتي ، وأبدي للثانية مزيدا من





خضوعي، فما كان لاي شيء في الدنيا ان يجعلني على ان اصف  
الآنسة « دى فيلسون » . اما إذا امرتني الآنسة « جوتون »  
بان التي بنفسى في اللوب . فاعتقد اننى كنت غيبه بان اطيعها  
في الحال . . . ولم يستمر حبي - او بالحرى لقاءتى - لالاخيرة  
سوى وقت قصير . قصير بالنسبة لمساعدة كل منا ! ومع ان  
علامتى بالآنسة « دى فيلسون » لم تكن في خطورة علاقتى  
بالأخرى . إلا انها لم تخل من الخطر ، بعد ان استمرت أمدا  
أطول . وجدير بجميع العلاقات التى على هذه الشاكلة ان  
تنتهى دائما بطريقة شاعرية ، وأن تصبح مادة لزقرات الاسى .  
ومع ان صلتى بالآنسة دى فيلسون كانت أقل شدة واضطرابا  
من علاقتى بالآنسة جوتون ، إلا انها كانت أكثر وثقا ومثانة .  
نلم نفرق قدا دون دموع . وكان من الخلق بالعجب حقا .  
ذلك الفراغ المحير الذى كنت اشعر باننى أتردى فيه بمجرد  
ان كنت أنارقها . . . فما كنت اتحدث او أفكر فى سواها .  
وكان اسأى صادقا ومحترما . ولكنى اعتقد ان هذا الاسى  
المنطوى على البطولة لم يكن - فى قراره - من اجل القضاء  
نفسها . وإنما كان للمتع الذى اعتقدت ان انعم بها فى تربيتها .  
دور فى خلقه . وإن لم أظن إذ ذاك . . . ولقد اعتدنا - لتخفيف  
لوعات البعاد - ان نراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون  
ما يذيب قلب الصخر !

وظفرت فى النهاية ، إذ ان الفتاة لم تستطع ان تمضى فى  
التجلى ، فجاءت إلى ( جنيف ) لترانى . وفى هذه المرة . فقدت  
حجائى تماما ، فكلت منتشيا ، مجنونا ، أثناء اليومين الطويلين

مكتبتها . فلما رحلت ، رغبت فى ان ألقى بنفسى فى الماء  
وراءها . وتردد صراخى فى الهواء . . . وبعد ثمانية أيام :  
أرسلت لى بعض الحلوى وقفازين . وكنت خليقا بأن اعتبر  
هذا مجاملة عظيمة لولا اننى علمت - فى الوقت ذاته - انها  
تزوجت ، وان الزيارة التى راق لها ان تشرفنى بها إنما دبرت  
فى الواقع من اجل شراء ثوب الزفاف . . . ولن أحاول ان اصف  
حقى . فنى الوسع تصويره . . . واقسمت - فى فضيى  
السمامى - الا أرى « الفادرة » مرة أخرى . إذ لم أكن  
لأتصور عقابا أكثر قسوة عليها من هذا . . . ولكنها لم تمت من  
تمسوى . إذ حدث - بعد عشرين عاما - بينها كنت أنفزه مع  
أبى فى النهر . أثناء إحدى زياراتى له . ان سألته عن سببتين  
كانتا فى تارب على غير « بعدة منا ، نهتف أبى مبتسما :  
« عجباً ! الا يبتلك ظبك . . . انها حبيبك القديمة . التى كانت  
الآنسة دى فيلسون ، وأصبحت السيدة كريستان ! » . . .  
واجملت إذ سمعت الاسم الذى كاد يصبح منسيا ، وسألت  
التوتيين أن يحولا اتجاه قارئنا . فمع ان الفرصة كانت سانحة  
- فى تلك اللحظة - لكى أثار لنفسى . إلا اننى لم أراية قيمة  
لان اعاقب امرأة فى الأربعين ، وان أجدد خصاما مضى عليه  
عشرون عاما !

٣ - من سنة ١٧٢٣ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بدأت أعلى فترات صباى فى الحماقات ، قبل ان  
يستقر الراى على مهنتى المقبلة . وبعد حذر طويل بشأن  
مبولى الطبيعية ، اتعد العزم على مهنة لم أكن لها

سوى أقل ميل . فقد عهد بى إلى السيد « ماسيرون » - كاتب البلدة - لأتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة ! .. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة - « مفتصب الأجر » - بغضاً لدى غاية البغض ، ولم يستهوى الأمل فى كسب عدد من « الكراوات » (١) من مهنة « وضيفة » كهذه ! .. بل إن العمل ذاته بدا لى مملاً لا يطاق ، فإن المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية إنما كراعتى « فما ولجت المكتب مرة دون أن اشمع بنفوس أخذ يزداد حدة يوماً بعد يوم ! كذلك كان السيد ماسيرون من ناحيته ضيقاً بى ، فكان يعاملنى بازدراء ، ولا يفقا يرمينى بالغباء والبلادة ، ويردد على أذنى كل يوم أن خالى انباه يأنى على قسط من المعرصة ، فى حين أننى كنت - فى الواقع - لا أعرف شيئاً ! .. وأنه بشره بأننى فتى ذكى ، فى حين أنه ابتلاه بجحش ! .. وفصلت أخيراً من المكتب ، بوصفها بأننى غير كفاء مطلقاً ، وصرح معاونو السيد ماسيرون بأننى لم أكن أصلح لشيء سوى نقل الملفات !

وإذ انتهت الأمر فى تقرير مهنتى على هذه الصورة ، أرسلت لأتعلم حرفة .. لا لدى « ساعانى » ، وإنما لدى أحد الناقشين على المعادن (٢) . وكان الصنف الذى عاملنى به السيد ماسيرون قد أذل نفسى كثيراً ، قاطعت بدون تضرع . وكان معلمى الجديد - السيد ديكومين - شاباً غفلاً ، قاسياً أفلح

(١) « الكراون » حيلة تتبادل ثلاثة غزركات .

(٢) حجار يصنع الأختام و « اليداليات » بالحفر على المعادن .

فى أمد وجيز فى إطفاء كل ما كان لى فى طفولتى من ذكاء ، وفى تخدير طبيعتى الوجود النشيطة ، وفى الهبوط بى إلى مرتبة « مسبى الصانع » فصلاً ، سواء فى العقل أو فى المركز ! .. وقدر لما كنت قد حصلت من اللاتينية والتاريخ ، ولما عرفته عن الاقدمين وآثارهم ، أن ينسى أمداً طويلاً .. بل إننى لم أعود أفكر أن قد كان فى الدنيا أى من الرومان ! ولم يعد أبى يرى فى - حين ذهبت لزيارته - معبوده القديم .. كما أننى لم أعود فى نظر السيدات ، « جان جاك » الكيس المقرب إلى قلوبهن . وابتقت أنا نفسى ، من أن الأخوين لامبرسييه ما كانوا ليعرفان فى شخصى تلميذها القديم ، حتى أننى خجلت من أن أزورها ، فلم أرهما منذ ذلك الحين . وحلت أرذل الميول واحط مناسد السوق محل اسباب التسلية السانحة ، بل إنها محت كل فكرى لها ! ولابد أننى كنت قد أوثقت استعداداً عظيماً للانحدار - برغم أننى حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة - ذلك لأن الانقلاب أصابنى بصرمة عظيمة ، دون أنه عسر ، فما قدر قط « التيسر » مبكر النضوج أن أصبح « لاريدون » يظل هذه السرعة (١)

ولم تكن الحرمة - فى حد ذاتها - هى التى لم تصادف هوى من نفسى ، إذ كان لدى ميل أكيد للرسم ، وقد لاذ لى العمل

(١) اسمعبر هذا الاسم من « لافونتين » الذى أطلقه على الكلاب المنحلة ، فى أسطورة يمتنون : « القرية » ، اذ يقال : « آواه ! كم من تصامرة أصبحوا لاريدونات ! »

بالآلة الحفر ، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به في صناعة الساعات ، فقد ساورنى الامل في أن أبلغ الكمال في هذه الحرفة ، ولعلنى كنت بالغاً هذه الدرجة لولا أن فظاظه معلمى الوحشية ، وإفراطه في مرض القبود على . حملانى على أن أكره عملى ! وكنت استغرق بعض ساعات العمل لاأوفر على بعض أعمال مشابهة - ولكنها كانت تفتتنى بها كنت أحسه في ممارستها من حرية - فكنت أحفر الأوسمة التى ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسى ولزملائى . وفجائئى معلمى مرة وأنا في هذا العمل المحظور ، فضربنى ضرباً مبرحاً ، معلناً اننى كنت اقتررب لأقود مزيفاً للنقود ، إذ أن الأوسمة التى صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية . . . واقسم اننى لم أوت - إذ ذاك - أية فكرة عن النقود الزائفة . بل اننى لم أوت إلا اقته فكرة عن النقود الطليعية ! . . . وكان إلهامى بميمات الرومان - التى قرأت عنها في الكتب - يفوق معرفتى بفنودنا المستعملة !

وأخيراً . أدت رغبة معلمى إلى أن صار العمل - الذى كنت مهياً لأن اشغف به - شيئاً لا يطاق . وانعميتنى برذائل كنت خليفاً بأن أكرهها لولا جبروته ، مثل الكذب . والتكاسل ، والسرقة ! . . . ولقد علمتني ذكرى التبديل الذى أصابنى في هذه الفترة من حياتى - أكثر من أى شيء آخر - الفرق بين تبعية الابن الأب . وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء . لم يكن ثمة عيب بجائى خصالى الطبيعية قدر بذاءة اللسان . على اننى كنت استمتع بحرية كريمة لم تلتك

أن معرضت للتبع ندرجياً - بعد ابتعادى عن أبى - حتى تلاشت تها . وكنت جريئاً مع أبى ، غير مكبوت مع السيد لايمرييه . معتدلاً مع خالى . نصرت جباناً مع معلمى ! ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلاً حائراً خالاً . ولما كنت قد الفت أن أكون على قدم المساواة القامة في اتصالاتى بمن يكبروننى ، ولم أعرف ملهاذ بعيدة عن متناولى ، ولا رايت صفحة طعام لا يحق لى أن أتال منها نصيباً ، ولا رغبة لا أملك أن أعبر عنها جهاراً . . . لما كنت قد الفت كل هذا ، واعتدت أن يكون كل ما في قلبى على طرف لسانى ، فإن من الميسور تقدير ما كنت مسوقاً إلى أن اتحول إليه في بيت لم أكن أجسر فيه على أن اقتح قمى . وكنت مضطراً فيه إلى أن أغادر المائدة قبل أن أفرغ من نصف الوجبة . وأن أبرح الغرفة بمجرد أن أفرغ من شائى بها . . . في بيت كنت فيه مغلولاً إلى عملى باستمرار . ولم أكن أرى فيه سوى أسباب المنعة لسواى والحرمان لنفسى . . . حيث كانت رؤيتى الحرية التى يستمتع بها معلمى وزملائى تضاعف من وطأة الخضوع على نفسى . وحيث لم أكن أجرو على أن اقتح قمى إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها ! . . . وقصارى القول : حيث كان كل ما يقع عليه بصري يفقد هدفاً لشوقى . لمجرد اننى كنت محروماً من كل شيء !

منذ ذلك الحين فارتقتى وداعى ولطنى وخفة روحى ، وتلك الشائسة التى كانت - غيماً غضى - تقينى العقاب إذا ما ارتكبت ذنباً . كل هذه تبددت . ولا أتذكر . . .

كيف أننى - ذات مساء - أرسلت إلى الخياش ، فى بيت أبى ، دون عشاء ، لثقب أثيعة . . وفيما كنت أجتاز المطبخ وفى يدي كسرة خبز تدعو إلى الأسى ، رأيت قطعة لحم تقلب على السفود - «الشوابة» - فأخذت أننسم عبيرها ! وكان كل أهل البيت وقوفاً حول النار . فاضطربت إلى أن ألقى على كل منهم تحية المساء ، أثناء مرورى ، حتى إذا فرغت من تحيتهم ، غزيت بمعنى لقطعة اللحم التى بدت بديعة المظهر ، والتى كانت زكية الرائحة ، ولم أتألك أن أنحيت لها - كما أنحيت للآخرين - وقلت بلهجة حزينة : « عمى مساء يا قطعة الشواء ! » . وأطربتهم هذه الملححة الساخنة إلى درجة جعلتهم يستبقوننى للعشاء . . ولعلها كانت كفيلة بأن تتخذ نفس الموقع من نفس معامى ، ولكنى واثق من أنها لم تخطر ببالى قط ، ومن أننى ما كنت لأجد المشجاعة على أن أقولها فى حضوره !

وبهذا النهج تعلمت كيف أكتم ما اشتئى ، وكيف أتناق ، وأكتب . و - أخيراً - أسرق . . . وهو أمر لم يخطر - حتى ذلك الوقت - ببالى مطلقاً ، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن أبرئ نفسى منه تماماً . ذلك لأن الاشتها المكبوت والضعف يقودان دائماً إلى هذا الاتجاه ، الأمر الذى يفسر السر فى أن جميع الخدم نصابون ، وفى أن جميع الصبيان لدى أصحاب الحرف مسوقون إلى أن يكونوا كذلك . . ولكن هؤلاء يفقدون - بتقدمهم فى مدارج العمر - هذه الرذيلة المشبنة ، إذا أتاحت لهم المساواة فى جوع وأدع مأمون ، يالفون فيه أن يكون كل ما يرونه فى مداولهم - ولما لم تتح لى هذه الميزات ، فأننى لم أملك أن أجنى نفس الفوائد . . . وأكاد أقول إن الذى يدفع

الطفل إلى أن يخطو أولى خطواته نحو الشر ، هو دائماً المبادئ الطيبة التى يساء توجيهها . فلقد مكثت مع معلمى عما دون أن أفكر فى الإقدام على أخذ أى شيء - حتى من المأكولات - برغم ما لاقيت من حرمان وإغراء مستمرين . وكانت أولى سرقاتى من أجل شخص سوى ، ولكنها فحقت الباب لسرقات أخرى ، لم يكن الباعث إليها أمراً مجبواً . . فلقد كان لدى معلمى عامل باليومية - يدعى السيد «فيرا» - يقيم فى دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعاً راقياً من ( الاسفاناخ ) . وخطر للسيد فيرا - الذى لم يكن يحصل على حاجته من المال - أن يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التى كانت أمه تستنبطها ، غيببها لقدراً عليه ما يكفى لإمداده بفطور طيب ليومين أو ثلاثة . ولما لم يكن راغباً فى أن يقدم بنفسه على المغامرة ، كما أنه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارنى لهذه المهمة . وبعد محاولات أولية وتعلقات - زاد من سبولة نجاحها فى التأثير على ، أننى لم أكن أدرك هدفها - عرض على الأمر كمنكرة خطرت له علو اللحظة . فعارضتها بشدة ، ولكنه ألح . وليس بوسعى قط أن أقاوم التلح ، ومن ثم فقد انصعت له ، وأخذت أذهب فى كل صباح فأجمع أبداع نبات الاسفاناخ وأحلبها إلى سوق ( مولار ) ، حيث أدركت امرأة طيبة أنى كنت أسرقها لتوى ، فكانت ترمينى بهذا الاتهام ليتخسنى الثمن . وكنت فى ذعري أقبل أى ثمن تقبفه ، ثم أحمله إلى فيرا ، فسرعان ما يتحول المسح إلى فطور تفتك أتكفل بإحضاره ، وكان يتقاسمه مع زوج آخر ، بينما أتبع أنا

ببضع لقيمات .. ولم أتذوق قط النبيذ الذى كنا يتناولونه مع هذا الفطور !

واستمرت هذه الخطة عدة أيام ، دون أن يخطر لى قط أن اسرق - بدورى - من الباطن - السارق الاصلى . وأن افرض « عوائد » على ما كانت تدره اسفناخ السيد فيرا ! بل كنت أودى دورى فى المهمة بمنتهى الاخلاص . وليس لى من حائز سوى رغبتى فى ارضاء ذاك الذى كان يحرضنى . ومع ذلك - فكم من صفعات وشتماء وقسوة كنت خليقا بأن ائتلقها - لو أن امرى انفجح - بينما كان من المؤكد أن يبادر الوغد إلى انتحال الكذوبة تقابل بالتصديق - ومن ثم يتضاعف عقابى إذ يعتبر اتهامى اياه - وهو العايل وأنا الصبى - وقاحة .. وهكذا ترى أنه - فى كانه ظروف الحياة - كثيرا ما يحدث أن المذهب القوي ينجى نفسه على حساب البرى الضعيف .. وبهذه الطريقة تعلمت أن السرقة لم تكن من الفطاعة بالقدر الذى كنت اتصورها عليه ، وأنه ليس من شيء اشتبهه بهر على - ما دام فى تناول بدى . ولم أكن سيئ التنفيذ على طول الخط ، ولكن العنة أصبحت أمرا متعذرا على وأنا أرى معلمى ينظر إليها كشيء مكر .. ويبدو لى أن اعتياد اقضاء الصغار عن المائدة ، فى الوقت الذى تحمل إليها فيه اشهى الاطعمة - هو اروع طريقة تتنهج لجعلهم تهمين ولموصا .. وسرعان ما أصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن امضى موثقا - بوجه عام - فلم يفتضح امرى إلا فى مرات نادرة كنت انجأ فيها !

اننى لارتجف - وضحك فى الوقت ذاته - إذ اذكر ان سرقة

بعض التفاح كانت تكيدنى غالبا ! فقد كانت تلك التفاحات فى قرار حجرة لاختران المؤن - تضاء بالنور المتساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية . وفى ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا منى ، صعدت على المعجن - حوض المعجن - لالقى نظرة على الثمار الغالية فى حديقة « هيسبريد » (١) . ولما كانت بعيدة عن متناولى - فقد أحضرت سيخا لأحاول أن اثبتن ما إذا كان بوسعى أن أمس التفاحات - ولكنه كان جد قصير - ولكى أزيده طولاً - ربطت إليه سيخا صغيراً - كان يستخدم فى شئ الحيوانات الصغيرة - إذ كان معلمى مغرمها بالصيد . ودنعت السيخين عدة مرات ، دون أن أوفق - وإخيرا ، شعرت لعظم اغتصابلى - اننى أصيبت تناحة : فتأهبت لأن استخوذ عليها ، ولكن .. منذ الذى يستطيع أن يصف اسأى - حين وجدتها اكبر من أن تمر خلال قضبان الكوة ! وكم من حيل بذلتها لانفذها خلال القضبان ..! وكان لابد لى من العثور على ما يبقى السيخ فى مكانه ، والحصول على مسكين ذات طول كاف ليشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب استعملن بها على ليقاء التفاحة عاليا . وتبكت أخيرا من أن اشطرها - يحدونى الأمل فى أن استطيع أن اجتذب النصفين - واحدا بعد الآخر - ولكنهما ما أن انفصلا حتى هويا إلى أرضي المجزئ ! - الا فلتشاركنى اسأى ، ايها القارئ الشفوق ! - ومع ذلك غلبنى لم أفقد جلدى مطلقا ، لكننى كنت قد ضيعت

١ هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن فى اشعار الأديب

وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن أفاجا . ولرجأت القيام بمحاولة أخرى - تكون موفقة - إلى اليوم التالي . وعدت إلى عملى فى مسكينة ، وكاننى لم آت أمرا ، دون أن أنكر فى الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان فى المخزن !

وفى اليوم التالى ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة . نصعدت على مقعدى ، وربطت السيخين وهاتئما ، وهممت بأن ادفعهما ، ولكن « القول » لم يكن نائما ، لسوء الحظ . فقد فتح باب المخزن بفتة ، وخرج منه معلى ، ففقد ذراعيه ، وتطلع إلى ، وقال : « تشجع ! » .

إن القلم يسقط من يدي . . . على أن حساسيتى إذا ، العتاب لم تلبث أن ضعفت ، من جراء سوء المعاملة المستمرة . فكنت أنظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض بخول لى الاستمرار فيها ! وبدلا من أن استعرض ما فات وأقدر ما كنتلقى من عقاب ، رحمت أطلع إلى الأمام وأفكر فى الانتقام . . . ورحمت أرى أننى إذا كنت أضرب بزعم أننى لست ، فإن هذا الضرب بخولنى أن اتصرف ككس . وتبينت أن السرقة والضرب امران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبين فى صفقة عادلة . . . فإذا قمت بدورى ، كان على أن ادع معلمى يؤدى دوره ! وبهذا التفكير ، شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذى قبل . وكنت أقول لنفسى : « ما هى النتيجة ؟ . . . سأضرب ؟ . . . لا بأس ! لقد تعودت الضرب ! » .

أننى مشغوف بالأكل ، ولكنى لست شرها . . . وأنا مغرم بارضاء نزواتى البدنية ، ولكنى لست نهما ، فإن لى ميولا كثيرة

أخرى تحول دون ذلك . وما جشمت نفسى يوما أية متاعب بشأن الطعام ، اللهم إلا حين يكون قلبى خاليا مما يشغله ، وهذه حال كانت من القلة فى حياتى بحيث أننى نادرا ما وجدت وقتا للتسكير فى الأطايب اللذيذة . ولهذا السبب لم أقصر اتجاهاتى فى اللوصصية على المواد الغذائية - لأمد طويل - بل سرمان ما بسطتها إلى كل شيء كان يفرىنى ! وإذا كنت لم أصبح لصا محترفا « فانما ذلك لأننى لم أجد قط فى النقود إغراء شديدا . وكانت فى الطريق إلى خارج « الورشة » الحامة حجرة خاصة لمعلى ، وجدت وسيلة لأن أفتح بابها وأقلعه دون أن يظن أحد إلى ذلك . - وهناك ، رحمت أشاطره خير مende وآلاته ورسومه وتجاريه . . . بل كل شيء كان يجتذب ميولى ، وكان هو يحرص على إيثائه بعيدا عنى لهذا السبب . . . وكانت هذه السرقات - فى قرارها - بريئة تماما ، إذ ما كنت أستغلها إلا فى خدمة معلى . على أننى انتقضت إذ وجدت هذه التواهم فى متاولى ، وخيل إلى أننى كنت أسلبه بواهبه وما كان ينتج عنها ! وإلى جانب ذلك ، وجدت صناديق تحوى مبارد وأساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد فى جيبى أربع أو خمس قطع من فئة « السو » (١) ، أعبر نفسى غنيا . ومع ذلك ، مفضلا عن أننى لم أمس شيئا مما وجدته هناك ، فاننى لا أنكر قط أننى رمتها يوما بعينين مشوقتين . وإنما كنت أنظر

إليها في جزع أكثر منى في ابتهاج ! واعتقد أن هذا الاستنكار لسرقة المال والفنائس كان راجعا - إلى حد كبير - إلى تربيتي . وإلى ما كان يقترون بها من أفكار دقيقة عن العار ، والسجن ، والعقاب ، والمثاق - مما كان كتبلا بأن يجعلنى ارتجف فرقا لو أننى تأثرت بالاغراء . . هذا في حين أن أحاييلى كانت تبدو في نظرى كمجرد أعمال خبيثة - أو « شقاوة » - لا أكثر ، وأنها لا يمكن أن تقضى إلى أكثر من « علقه » طيبة من معلى . . وكنت أعد نفسى مقسدا لذلك ! . . وأكرر أننى لم أشعر قط برغبة كافية في أن اكبح نفسى : فلم يكن ثمة ما يخلق ضميرى . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراء لى من نقود تكفى لأن ابتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الغدرة ترتبط بأحدى ميزات خلقى وشخصيتى . وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكى ما يجعلها أهلا للشرح !

\* \* \*

أننى إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بى سورتها ، فلن يعدل اندفاعى شيء : إذ أنسى كل حكمة ، وكل شسومور بالاحترام والخوف والوقار ، فإذا أنا اغفو شرما ، متهورا ، عنيقا ، غير هيباب . . لا يعدنى أى إحساس بالعار ، ولا يرهينى أى خطر . . بل أننى لا أحفل من الكون كله إلا بالغاية التى تشغل بالى تحسب ! على أن هذا كله لا يستمر إلا لحظة . ثم إذا بى في اللحظة التالية أنفسي فى سكون تام . أما في لحظات هدوئى ، فأنسا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفنى ويثبط همتى كل شيء : فالذنبلة التى تمر بى وهى تظن تنزعنى . . واضطرارى إلى أن أقول كلمة أو

أبدى حركة ، بغض خمولى . . وهكذا يتسلط على الخوف والخبيل إلى درجة يسرنى معها أن استخفى عن بصر زملائى من الأديين ! . . وإذا كان على أن أتى نصرا فأننى لا أدرى ماذا ينبغي أن أفعل . وإذا قدر على أن أنكلم ، فأننى لا أدرى ما ينبغي أن أقول . وإذا نظر أحد إلى - تولائى الارتباك . . . ولقد أوفق إلى الكلمات الخليفة بأن تقال ، غسما استنار لدرجة عالية ، ولكنى - في الحديث العادى - لا أعتبر البتة على شيء ، يقل ، وأغدو في حال لا تطلق . لمجسود أن أجدنى مضطرا إلى الكلام ! . . أنصف إلى ذلك أن ليس بين رغباتى المتسلطة ما يتجه إلى أشياء يمكن أن تشتري . فليست أشتى سوى المنع البريئة . غير الزائفة ، وكلها مما يسميه المال ويغسده . من ذلك أنفى مشغوف بمتع الطعام ، ولكننى - إذ لا أحتمل عبء الجلوس في جماعة . أو الشراب في حسانة - لا أملك أن أحظى بها إلا برفقة صديق . . أما إذا كنت وحيدا ، فإن خيالى يشغل إذ ذاك بأمر آخرى : فلا يعود للأكل حظوة لدى . وبرغم أن دوى الحار يهغو إلى النسياء ، فإن قلبى المشبوب أئسد حيننا إلى العاطفة الصادقة . ومن ثم تفقد النساء - اللاتى يشترين بالمال - كل مفاتهن في نظرى . . بل أننى أرتاب في أن أجد من نفسى قابلية للإفادة منهن . كذلك شأنى مع كل المتع التى في متناول يدى ، فأننا أجدنا غشة طالما كانت لا تكفينى شيئا ! . . وإنما أحب من المتع وأسباب اللذة ما لا يكون ملكا لأول إنسان يعرف كيف يستثمرها !

والمال . . أبدا ما تراءى لى قسما كما يتصور ميلود : بل إنه



لم يبد لي قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة في حد ذاته ، إذ لا بد من استبداله لكي يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى ان يشتري ، ويساوم ، ويتعرض للفش ، ويغيب وييهبط ، ولا يخدم حق الخدمة .. وجن أنشد شيئا جيد الصنف ، أو من أننى لن أحصل بالمال إلا على صنف ردىء .. فإذا ما دفعت نقودا من أجل بيضة طازجة ، وجدها فاسدة .. أو من أجل ثمرة طيبة من الفلكهة ، الفيتها فجة .. وقد ادفع من أجل فئاة ، فإذا بها مفسودة ! .. وأنا مولع بالنبيذ الجيد ، ولكن أين أظفر به ؟ الذى تلجر الخمر ؟ مهما فعل فإنه لن يخرج عن أن يسهنى ! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء وباللهيرة ! لا بد لي من أمهقاء ، ورسل ، ومن أن أمنع مولات ، واكتب ، وأروح وأجىء ، وانتظر .. وغالبا ما أكون في النهاية ضحية للفش ! .. أى عناء القاء من مالى ! إن خوفى منه لأشد من شغفى بالخمر الجيدة !

كم من مرات يخطئها الحصر ، خرجت فيها - أثناء تملعى الحرفة وبعد ذلك - وأنا اعترم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى ، فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع . وأخال أننى أبصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير ! .. فأذهب إلى الفاكهى ، وأرى الكثيرى فيغوينى شذاها « وبرمقنى شابان أو ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفنى ، يقف أمام حانوته .. وأرى فتاة مقبلة من بعد ، افتراها خادم الدار « إن قصر نظرى بهيىء لي كافة الرؤى الوهمية ، فأخلل المارة جميعا من المعارف ،

وهكذا أجد في كل مكان من العراقيل ما يفزعنى ويصدنى .. وتتضاعف رغبتى بازدياد خجلى واستحيائى « ثم أعود - في النهاية - إلى البيت ، كالمفل ، والشوق يضننى ، وفي جيبى الوسيلة لإشباعه ولكنى لم أوت الجراة على أن ابتاع شيئا ! ولقد انساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابا للمال إذا سمحت لنفسى - وأنا أصف كيف كانت تقودى تنفق ، عن طريقى أو عن طريق سواى - بأن أشرح الارتباك ، والاستحياء ، والإحجام ، والتهليل ، والأزعاج ، التى كنت أمر بها دائما .. على أن القارئ المتتبع لمجرى حياتى « لن يلبث - إذا ما عرف حقيقة طباعى وسجيتى - أن يتهم كل هذا دون أن اتجشم عناء روايته عليه !

ولو نسئ له فهم هذا ، فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من أبرز ظواهر التناقض لدى : وهى اجتماع شح يكاد يكون خفيسا ، مع بفض شديد للنقود ! .. لها النقود سوى قطعة من اثاث لا أجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى أنه لا يخطر ببالي قط أن أصبو إليها عندما لا تتوفر لى .. وحتى إذا ظفرت بها ، فأتى أبتقيها طويلا دون أن أنفقها ، عجزا منى عن أن أدري كيف استخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسى . أما إذا سفتحت لى فرصة ملائمة وموانية « فأننى أقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسى منها قبل أن أفتن ! .. وإلى جانب ذلك ، فلا دامى لأن يتوقع أحد أن يجد عندى تلك الخلة المحببة التى تتوفر فى البخلاء : الاتفاق ، لمجرد الظاهر بالاتفاق ! بل أننى - على النقيض - أنفق في السر من أجل

الاستمتاع . وبدلاً من أن أفخر بالاتفاق أخفيه ! ويبلغ من شدة شعوري بأن لا نفع للمال لدى ، أنني أكاد أجعل إذ اقتنى أى قدر منه . وأكون أشد خجلاً حين استخفمه ! .. ولو قدر لى يوماً من الدخل ما يكفى لأن أعيش حياة مريحة ، فأننى أجزم بأننى ما كنت لأكون بخيلاً . بل كنت أنفقه عن آخره ، دون أن أحاول زيادته . ولكن ظسرونى غير المستقرة تلزمتى الحرص ، فأنا أعبء الحرية . وأهتكت الكبت والمساء ، وأن أكون عالة على الغير ! وطالما بقى المال فى كيبى ، فإنه يطمئننى إلى استقلالى ، ويعطينى مؤونة البحث عن أعمال لتملأ الكيب من جديد ، وهى ضرورة تبعث الجزع فى نفسى دائماً .. ومن ثم فإن الخوف من أن أرى ما لدى من المال تد استنزفة ، يجعلنى أكتززه فى حرص .. فالمال الذى يمتلكه الشخص هو أداة حريته . أما حين نسمى إليه ملهوفين فيكون أداة المبودية .. ولهذا اقتشبت بما لدى ، ولا أرغب فى مزيد ! ومن ثم فإن عدم شغفى بالمال لم يكن سوى نقاعس وبئد ! فإن مئمة الانتناء لا تستحق عناء التخصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافى ، فهو ليس أكثر من نقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الاتفاق النافع ، فأننى لا أحسن استغلالها .. فالمال أقل إغراء لى من الأشياء ، إذ أن ثمة وسيطاً — على الدوام — بين المال وبين اقتناء الأشياء المنشودة ، فى حين أنه لا يوجد أى وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها .. فإذا ما رأيت الشيء فإنه يستهوئنى ، وما أن أيقين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه ! .. ولهذا السبب اعتدت أن أرتكب السرقات .. ولا أزال — حتى الآن — أختلس التوائه التى

سَتَجِيبُنِي . وَالْفِي أَوْتَرُ أَنْ أَخْذَهَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَلَى أَنْ أَطْلُبَهَا . وَلَكِنِّي لَا أَذْكَرُ أَتَنِي - سَوَاءٌ فِي طُفُولَتِي أَوْ فِي كِبَرِي - قَدْ سَلَبْتُ أَيَّ أَمْرٍ أَوْ دَرَهْمًا وَاحِدًا . اللَّهُمَّ إِلَّا فِي مَنَاسِبَةٍ وَاحِدَةٍ - مِنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ - إِذْ سَرَقْتُ مَسْبَعَةَ « لِيْبِرَات » وَعَشْرَ قِطْعٍ مِنْ خُبْزَةِ « السُّو » ، وَهَذَا الْحَادِثُ جَدِيرٌ بِالذِّكْرِ . لِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى خَلِيطٍ عَجِيبٍ مِنَ النَّزَقِ وَالْقَحَّةِ . مَا كُنْتُ لَأَصْدَقَهُ بِسَهْوَةٍ لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَلَّقُ بِشَخْصٍ سِوَايَ !

ولقد وقع هذا الحادث في باريس . إذ كنت أنشئ مع السيد « دى فرانسوى » في حدائق ( الباليه رويال ) حوالى الساعة الخامسة . ناذا به يخرج ساعفه ، فيستطلعها الوقت . ثم يقول : « لنذهب إلى الأوبرا ! » . ووافقت . فذهبنا . واستاجر السيد مقعدين في « الصالة » . وأعطاني إحدى التكرتين . ثم مضى بالثانية يتقدمنى ، فتبعته . ودخل إلى « الصالة » ، فلما هممت بالدخول خلفه : إذا بالناس يسدون الطريق . وتلفت ناذا كل فرد واقف ، فظننت أن من السهل أن أتود وسط الزحام ، أو أن أوهم السيد « دى فرانسوى » بأننى ظلمت ، على أية حال . ومن ثم خرجت ناسرجهت ثمن التكره ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالى أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغى الباب الخارجى ، وأن السيد « دى فرانسوى » قد تبين أننى لم أكن موجودا ! ( ١ ) . . وإذا لم يكن ثمة تصرف ينافى مسلكى العادى

(١٠) فکرت جورج صائد فی کتابها : م تاریخ حیوانہ ، ص ۱۰۰

غريسيوي - وكان جدعا - أعتقد أن يكتسب الجمال من هذه الحالة .

مثل هذا التصرف ما فتى أذكره لأبين أن هناك لحظات ينبغي  
الاحكام فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون في شبه  
ذهول أو شرود ! .. ذلك لأننى لم أكن راغياً في اختلاس النقود  
ذاتها ، وإنما أردت أن أسرق وجه استخدامها ، ولكن هذا  
التصرف كان مشيناً بقدر ما كان بعيداً عن السرقة !

\*\*\*

ولن يقدر لى أن أفرغ من كل هذه التفاصيل لو اتنى المحث  
بكاية الدروب التى أثبتتها - أثناء تعلمى الحرفة - في هبوطى  
من ذرى البطولة النبيلة ، إلى درك التفاهة ! ومع ذلك ،  
فلئننى لم أستمرىء بذائل المركز الذى كنت فيه - وإن مارستها -  
وسببت أسباب التسلية التى كان زملائى يتقبلون عليها - حتى  
إذا اشتد تقييد حريتى فجعل العمل في نظرى أمراً لا يطلق ،  
سميت كل شيء ! .. وجدد هذا من شغفى بالقراءة ، بعد أن  
كنت قد فقدته زمناً - ولكن هذه القراءة - التى كنت أختلئ  
لها فترة من وقت العمل - أصبحت عيباً جديداً استوجب  
عقابى .. وإذا الميل إليها يتحول - بالقمع - إلى وجدد لم يلبث  
أن أصبح جنوناً ! .. وكانت «لاتريبو» - وهى امرأة استنيرت  
بإعارة الكتب - تمدنى بكتب كافة ألوان الأدب ، وكانت كلها -  
الغث منها والنحيف - سواء عندي - إذ لم يكن لى في الأمر  
خيار ، فأخذت أقرأ كل شيء بنفس النهم : رحت أقرأ وأنا  
أمام طاولة العمل ، وأقرأ وأنا مطلق في بعض المهام ، وأقرأ  
بجوار صوان الملابس ، وأنسى نفسى ساعات طويلة حتى يغور  
رأسى لفراط القراءة .. فما كنت أملك سوى أن أقرأ ! كان

معلمى يراقبنى ، ويباغتنى ، ويضربنى ، ويقتزع الكتب منى ..  
وكم من مجلدات مزقت وأحرقت وطوح بها من النافذة ! ..  
وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجزاء - لهذا السبب - في  
مكتبة «لاتريبو» ! .. وكنت إذا عزت على التقود - أقدم  
للزرة أقصصتى - وأريطة عنقى ، وملابسى .. كما كانت  
تستولى منى في يوم الأحد من كل أسبوع على قطع «السو»  
الثلاث التى كنت أقتاضها لمصروفى الخاص !

يقال لى هنا إن النقود باتت من الضرورات لى - وهذا  
حق ، ولكنه لم ينطبق على إلا عندما حرمنى شغفى بالقراءة ،  
من كل نشاط - فان انصرافى بكل نفسى إلى هوايتى ، وعدم  
اكتراثى بغير القراءة ، الهانى عن السرقة ! وهذه ميزة أخرى  
من الميزات البارزة في شخصيتى ، ففى غيرة انغماسى في أى  
مسلك في الحياة ، يستطيع أى أمر تافه أن يجتذبنى - وأن  
يحولنى - وأن يستأثر بانتباهى ، ثم يغدو شغفاً ، وإذ ذاك  
يصبح كل شيء منسياً - فلا أعود أفكر في غير الشيء الجديد  
الذى يستحوذ على اهتمامى .. وهكذا كان قلبى يخفق في  
صبر نافذ إذا ما أحضرت كتاباً جديداً ودسسته في جيبى ،  
فلا أكاد أخلو إلى نفسى حتى أخرج الكتاب ، ولا أعود أفكر في  
الفتيق في حجرة معلمى بالورشة .. ولا أكاد أصدق أنني  
كنت أقدم على السرقة ، ولو كانت لى أهواء تكلفنى نفقة  
ابهظ .. كنت في اقتضارى على الحاضر ، لا أجد اتجاهاً إلى  
أن أدير أمر المستقبل بهذه الطريقة ، فقد كانت «لاتريبو»  
تعطينى الكتب بالنسيئة ( بالنفسية ) ، وكانت الهبات

صغيرة . ولكنى كنت أنسى كل شيء بمجرد أن أطمئن إلى وجود الكتاب في جيبي . وكانت النقود التي تاتيني بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدي هذه المرة ! ولم يكن أحسن علي - عند ما تشتد في الضغط علي - من أن أنزل عما أملك . وكانت السرقة - قبل الحاجة إلى المسروق - تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم أكن أتعرض لاغراء يحملني على السرقة لكي ادفع ما كانت المرأة تطلبه .! . وكان من جراء المشاجرات ، والضرب ، والإطلاع خفية على كتب أسوء اختبارها ، أن صرت شريفا ، صوبونا : وشرد عقلي . واصبحت أعيش مخطوبا .! . على أنه إذا كان إدراكي لم يعصمني من الكتب السخيفة والباسدة ، فإن حظي الحسن صانني من الكتب الفاحشة والنابية . لا لأن « لاثريبو » - التي كانت امرأة لينة الجانب - من كل اعتبار - كانت تثير أي امتراض دون إعارتي هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لي في لهجة مشوبة بالغموض . لكي تضاعف من قيمتها لدي ، فأذا بهذا الغموض ، يحملني على رفضها . بدافع من الاستهجان والاستعياء . وقد ساعدني حظي على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى أكثر من ثلاثين عاما قبل أن تقع ميثاق على أحد هذه الكتب الخطرة - التي ما كانت أية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة - لأنها لا تقرا إلا بيد واحدة فقط ! (١) .

(١) بقصد روسو الكتب المثيرة ، التي كان يبلغ من سنه الثمانين للقارى .

أن تنفريه على ممارسة العادات السيئة .

وفي أقل من عام . كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من المكتب ، التي كانت لدي « لاثريبو » . واصبح افتقاري إلى ما يشغلني - خلال فراغي - أمرا مضميا . وكنت قد أبرأت نفسي من نزواتي الصبيانية النابية - بفضل ولعي بالمطالعة . بل أتى بفضل الكتب التي كنت أقرأها - برغم أنها كانت سيئة الاختيار ، وكثيرا ما كانت رديئة - ملأت قلبي بمشاعر أنبل من تلك التي كان محيط حياتي يوحى إلى بها . وإذا امتلأت اشتمزازا من كل شيء كان في متناول يدي . وشعورا بأن كل ما كان خليقا باغرائي قد اقمى عني نهيا ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن أن يهفو إليه فؤادي . وكانت حواسي المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن في وسعي أن ادرك كلها . ولو في الخيال .! . كنت نائبا عن المتعة الواقعية . وكانني خال من الجنس .! . وكنت - لاكتمال نهوي وإرهاق مشاعري - أفكر أحيانا في نزواتي ، ولكنى لم أكن أبصر مما وراءها أي شيء . . وفي هذه الحال المجيبة ، أقبل خيالي المضطرب على شاغل انقضى من نفسي وهذا من حساسيتي الشبوبة النامية .! . وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسي بالحصالات والمواقف التي استقرعت انتباهي أثناء مطالعاتي . وبفضل تذكرها ، ونويعها ، والجمع بينها ، وتصوور أنها تمت لي حقيقة ، أصبحت واحدا من الشخصيات التي كانت تملا خيالي . وامبحت أرى نفسي - دائما - في أكثر هذه المواقف ملائمة لذوقي . . وأخيرا ، جعلتني الحال الخيالية - التي وقفت إلى وضع نفسي فيها - أنسى حالي الحقيقي الذي كنت راضيا

عنها ! وقد أفضى بى هذا الولع بالمؤسوعات الخيالية .  
والاستعداد الذى كنت أتوسل به إلى شغل نفسى بها ، إلى  
الاستمزاز من كل شيء حولى ، وإلى اقترار ذلك الميل إلى  
الوحدة الذى لم يفارقتى بعد ذلك . وسئرى - أكثر من مرة -  
في سياق الحديث ، الآثار العجيبة التى ترتبت على هذا  
السلوك الذى كان يبدو كثيبا ، ومتلويا ، ولكنه - في الواقع -  
راجع إلى قلب مغرط العلف ، ومغرط الحب . ومغرط الحنان .  
اضطر إلى أن يفتدى نفسه بالأوهام إذ عجز عن أن يجد في  
الوجود أى قلب آخر يشبهه ! على أننى اكتفى - في الوقت  
الحاضر - بأننى حددت أصل ومبعث هواية خففت كل  
نزواتى ، وفرضت عليها من نفسها قيودا ، فجعلتنى على  
الدوام بطيء التصرف ، نظرا لمفرط تاجع شهواتى !

\*\*\*

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمرى « وأنا قلق ،  
غير راض عن نفسى ولا عن أى شيء ، خلو من شيء من الميول  
التي تتوهم في مثل الحال التي كنت أعيش فيها .. خلو من  
ملاهى السن التي كنت اجتازها ، بضئبى اشتهاى الغاية التي  
كنت أجهل كتبها .. فكنت أبكى دون ما داع للدموع ، واتهد  
دون أن أدري لذلك سببا ! وقصارى القول ، كنت اداعب  
أطياف خيالى بجنان ، لأننى لم أكن أرى حولى شيئا يرجحها .  
وكان زملائى - الذين كانوا يتعلمون الحرفة معى - يفدون في  
أيام الأحاد يبحثون عني بعد الصلاة ، لأذهب فأنشئ بعض  
اللهو معهم . كنت أشعر بأننى خليق بأن اغتبط لو استطعت

أن أهرب منهم . ولكنى لم أكد أشتري في ملاهيهم مرة . حتى  
ازدبت تحمسا وتهاذبت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه ..  
هكذا كان يسلكي دائما ، يصعب حملى على الشيء ، كما  
يصعب إيتاقى عن المضى فيه إذا ما بدأت .. فكنت - خلال  
نزهاتنا خارج المدينة - أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أى  
واحد منهم ، دون ما تتكبر في العسودة ، ما لم يتفكرها لى  
الآخرون .. ولقد تورطت في هذا الصدد برتين ، إذ أغلقت  
أبواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت - في اليوم  
التالى - أقابل من معلى بما يمكن تصوره ! بل إننى انذرت في  
المرة الثانية بأن أقابل - إذا ما تكرر التأخر - استقبالا  
جعلنى أعقد العزم على أن لا أقدم على التعرض لهذا الخطر  
ثانية .. ومع ذلك ، فقد قدر للمرة الثالثة أن  
تأتى ، برغم بشاعتها : فقد أفسد على حرصى ضابط لعين من  
الحرس - كان يدعى الكابتن مينوولى - اعتاد دائما أن يلقى  
« البوابة » التي كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى  
بنصف ساعة ! وكنت في تلك المرة عائدا مع زميلين . وقبل أن  
نبلغ المدينة بنصف ترسخ ، سمعت البوق الذي يستحث  
العائدين ، فضاغت من خطاى .. وعدت أسمع البوق ،  
نهرمت بكل قواى .. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس ، غارقا  
في العرق ، وقد راح قلبي يخفق بعنف .. ورايت الجنود  
- من بعد - يتخفون مراكرهم ، فاندفعت نحو البوابة وأنا  
أصرخ بصوت كاد يخنقه التهيج .. ولكن الفرصة كانت  
قد فاتت ، فما أن أصبحت على عشرين خطوة من كبر  
الحراسة الامامى ، حتى رفعت

وأنا أرى طريقها الرهييب يرتفعان في الهواء ، ككثير تسؤم  
بغضب بالمصير الذي كان في تلك اللحظة ينفر فاه لينبئني !

وفي القفورة الأولى لأساسي . ألقيت بنفسي على الأرض  
المندثرة ، ورحت أعضها . وبادر زميلاي لتوها - وهما  
يضحكان من نصيبهما - إلى تقرير ما ينبغي عليهما عمله .  
وقد حدثت جذوهما ، ولكن تراهي كان يختلف عن تراهيها .  
نقد اقسمت - في تلك البقعة - ألا اعود إلى معلمي قط ! فلما  
ولجا المدينة في الصباح التالي ، بعد أن فتحت الأبواب .  
ودعتهما إلى الأبد . ولم أسألها سوى أن تبني ابن خسالي  
" برنارد " بقراري . سرا . وبالمكان الذي يستطوع أن يراني  
فيه مرة أخرى ! . . ولم أكن - منذ تطلعت في الحرفة - قد  
رأيت إلا لها . فقد ظللنا وقتنا تلتقي في يوم الأحد من كل  
أسبوع ، ولكن كلا منا أخذ يتجه بعيدا إلى عادات غير  
عادات صاحبه ، فآخذت لقاءنا تنقل باطراد . واعتقد أن  
لأمة يدا في هذا التحول . فقد كان من أبناء الحى الراقى ،  
بينما كنت تلميذا فقيرا اطلقي أصول الصنعة . كنت من أبناء  
( سان جيرفيه ) - حى الفقراء بالمدينة - فلم تعد ثمة مساواة  
بيننا ، برغم قرباننا ، ومن ثم فقد كان من الحيلة له أن يكون  
ذا شأن معي ! . . ومع ذلك ، فإن المسائل بيننا لم تنقطع  
تماما : فإن ابن خالي - بما أوتي من غطرة طيبة - كان يبيع  
في بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه ، وليس ما كانت  
تلميه عليه أمه ! . . فلما أنبئ به عقدت عليه العزم ، أسرع  
إلى ، لا ليحاول أن يثني عني أو يشاطرني ، وإنما ليخفف

متاعب فراى ببعض المنسج البسيطة ، إذ كانت مواردى  
لا تساعدنى على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى  
التي وحبستها ، سيف صغير استهوانى كثيرا ، وظللت أحمله  
حتى بلغت ( تورين ) ، حيث اضطررتي الضرورة إلى أن أنزل  
عنه . أتني كلما تكرت - منذ ذلك الحين - في التصرف الذي  
افتحجه ابن خالي نحوي في تلك اللحظة الحرجة ، أزدت  
اقتناعا بأنه إنما اتبع تعليمات أمه ، وربما أبه أيضا . إذ أنه  
من الأمور التي لا سبيل إلى تصديتها . أنه كان يتعد عن بذل  
أى مجهود لاستبقائي ، أو يحجم عن أن يتبعني ، لو أنه كان  
يتصرف من تلقاء نفسه . . ولكنه - على العكس - كان في  
ملكه أقرب إلى تشجيعي على أن أمضي في خطقي ، منه إلى  
إثنائي عنها ! . . وعندما تبين أنني كنت مصمما « تركني دون  
أن يفزع كثير دمع . ولم يقدر لنا أن نقابل الرسائل أو أن  
يرى أحدا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لآمر يدعو للأسف ،  
إذ كانت شخصيته بطبيعته طيبة ، وكنا قد خلقنا لكي يحب  
كل منا الآخر !

وقبل أن استغرق في الحديث عن حظي وقدري : اسمحوا  
لي أن أحول عيني لحظة إلى الحظ الذي كان خليقا بأن ينفطرني  
- بحكم طبيعة الأمور - لو أنني وقعت بين يدي معلم أفضل  
من معلمي هذا . . فما كان ثمة ما هو أنسب ليولى . ولا ما  
هو أصح لاسعادى : من الحياة الهادئة ، المقهورة ، التي يحظى  
بها أى صاحب حرقة محترم ، لا سيما إذا كان من طبقة كطبة  
الناقشين على المعادن في ( جنيف ) . . . مثل هذا الزمير

— الذى يدر من الكسب ما يكفى لتهيئة معاش مناسب . ولكنه لا يكفى لتكوين ثروة — كان كنيلا بان بعد من طموحي ما تبقى لى من العمر ، وبان يفسح لى فراغا شريفا لى ارعى مبولى المتواضعة . وبان يستيقنى فى المحيط المناسب لى . دون أن يتيح لى اسباب تجاوزه ! . فقد كانت موارد خيالى من الخصب بحيث تطلع جمالا على كل المهن والأعمال وما يحيط بها . ومن القوة بحيث تنقلنى — إن صح هذا التعبير — من حال إلى حال ، وفق ارادتى . لذلك لم يكن للمركز الذى اجد نفسى فيه اى اعتبار مادى فى الواقع . وما كان اى مكان اوجد فيه ليبعد عن اولى قلاعى التى كنت أشيدها فى الهواء بمسافة تقعدنى عن أن الود بقلعتى دون ما عناء ! . وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التى تنطوى على أقل عناء ، والتى تتيح اكبر قدر من الحرية الفكرية ، هى التى كانت تروق لى اكثر من سواها . . . وهكذا كانت مهنتى تماما ! . . . وكان من الممكن أن اقضى حياة هادئة وادعة ، كذلك التى تتطلبها مبولى ، فى احضان عقيدتى ، ووطنى ، واسرتى ، واصفائى . . . وفى رناية المهنة التى تلائم ذوقى ، وفى الرفقة المحببة إلى مؤادى . . . كان من الممكن أن اكون مسيحيا طيبا ، ومواطنا طيبا . وأبا طيبا لأسرة . وصديقا طيبا ، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبا فى كافة روابط الحياة . . . وكان من الممكن أن أحب مركزى فى الحياة ، بل ولعلنى كنت أمجده . . . وكان من الممكن بعد ان اقضى حياة بسيطة وخاملة مغبورة ، فى الواقع — أو فلأقل هادئة وقورا —

ان اموت بسلام ، فى احضان اسرتى . . . ومع اننى كنت خليقا بان اغفر نسيا متسيا بعد قليل — دون ما ريب — إلا اننى كنت خليقا إذ ذاك بان أجده من يحزن على — على الأقل — ما بقى على قيد الحياة واحد ممن ينكرونى !

اية صورة أوشك أن أرسما ، بدلا من هذه . . . لنكف عن استباق شجون الحياة ، تسوق أشغل قرائى بها هو غوق الكفاية من الاسى !



## الكراسة الثانية

٤ - من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة - التي أوحى إلي فيها الخوف  
بفكرة الفرار - حزينة . فان اللحظة التي اتدمت فيها على  
تنفيذ الفكرة بدت بهيجة . . فقد كنت أهجر بلدى . وأهلى .  
وأسباب عيشى . ومواردى . وأنا بعد صغيرا . . . كنت انصرف  
عن حرفة - وأنا في منتصف دراستها - دون ما معرفة كافية  
بها . تمكننى من أن اكسب عيشى . . كنت أسلم نفسى لأهوال  
المعوز . دون أية وسيلة لإنقاذ نفسى منها . . . كنت أعرض  
نفسى - وأنا بعد في سن البراءة والضعف - لكل غوايات  
الرذيلة والتقوؤ . . كنت أنشد - في البعد - العذاب .  
والخطأ . والزلات . والعبودية . والموت تحت ربة أشد  
طغيانا من تلك التى لم أطلق احتماليها . . . هذا ما كنت أوشك  
أن افعل . وهذا هو المستقبل المحتمل الذى كان يجب أن  
اقدره . . . فما أبعد هذا عن الخيال المزوق . . . كان الاستغلال  
الذى اعتقدت أننى اكتسبته . هو الشعور الوحيد الذى أخذ  
بحركتى . . . فقد اعتقدت أن بوسعى - وأنا حر . سعيد  
نفسى - أن افعل كل شيء . وأن أحقق كل شيء . وليس على  
سوى أن ادفع نفسى فإذا بى ارتقى وأحلق فى الهواء . . . لقد  
دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمان .  
وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تنعم بصيت أعمالى . وأنتى ساجد  
فى كل خطوة احتمالات . وكثوزا . ومغامرات . وأصدقاء على  
استعداد لأن يخدمونى . وعشيقات توافيات إلى إرضائى . . .

فليس على سوى أن أظهر . فأنشغل بال الدنيا بأسرها . .  
ومع ذلك فلم أكن راغبيا فى الدنيا كلها . إذ كان بوسعى أن  
استغنى عنها . إلى حد ما . . . كانت الرقعة اللطيفة تكفينى .  
دون أن أضنى نفسى ببقية الدنيا . . كنت فى تواضع قد  
قصرمت نفسى على مجال ضيق . مختار . بهيج . يكون سلطانى  
عليه أمرا محققا . . كان أقمى طموحى يتمثل فى نطاق غزو  
ثلاثة واحدة : فلو قدر لى أن أكون اثرا لدى السيد والسيدة .  
وحبيبا للأئمة . وصديقا للأبن . وحاميا للجيرة . لقنعت . .  
فما كنت راغبيا فى مزيد !

وفى ارتقاب هذا المستقبل المتواضع . رحلت أهتم حول  
المدينة لبضعة أيام . متخذا مقامى لدى بعض فلاحين كنت  
أعرفهم . وقد استقبلونى فى كرم يفوق ما كان أى امرئ من  
سكان المدينة خليقا بأن يبذل لى . فقد رحبوا بى . وآوونى .  
وغفونى بكرم يفوق كل ما كنت استحقى . . ولا سبيل إلى  
وصف عملهم بأنه « أحسان » . إذ أنهم لم يكونوا يخلعونه  
على بترفع أو من . . وهكذا رحلت انتقل وأهيم على وجهى .  
حتى بلغت ( كوتينيون ) . بمنطقة ( سافوى ) . على بعد  
مترسخين من جنيف . . وكان مطرانها يدعى السيد  
« دى بونفير » . وقد استرعى انتباهى هذا الاسم الذائع فى  
تاريخ الجمهورية . وكنت تواقا لأن أشهد سلالة « فرسان  
المعلقة » (١) .

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا دوق سافوى . وكانوا يؤلفون

وسمعت إلى السيد « دى بونفير » : غتلقتاني في رفق .  
وتحدثت عن زندقة (جنيف) ، وعن سلطان كنيسة الام المقدسة .  
ثم دعاني إلى العشاء . ولم أجد ما أرد به على حديث اثنى  
إلى هذه النتيجة : بل اثنى خرجت برأى أوحى إلى بان المطارنة  
الذين يحظون بمثل هذا العشاء : لا يقتلون صلاحا عن كهننتنا .  
وكنت - يقينا - أكثر معرفة من السيد « دى بونفير » . ولكني  
كنت لا أقل صلاحية كضيف عنى كمنبحر في علوم اللاهوت .  
كما أن نبذة « فرانجي » الذي قدم على المساندة . والذي لاح  
لى بديعا ، كان موفقا في كسب كل حجة إلى صف المخلران .  
فقد كان خليقا بى أن استجيب من أن أوقف غم مثل هذا  
المضيف العجيب عن الكلام . . . ومن ثم فقد رحت أسلم  
بحججه ، أو - على الأقل - أحجم عن أن ابدى مقاومة  
صريحة . ولو أن احدا رأى ما كنت ابدى من حذر ، لخالني  
بخادما . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق أننى إنما كنت  
أصدر في تصرفي عن ملاطفة عامة ، إذ أن المجاملة ولين الجانب  
ليسا من الرذائل دائما ، بل انهما كثيرا ما يكونان من الفضائل .  
لا سيما لدى الشبان . . . ذلك لأن الكرم الذى يعملنا به أى  
شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فاذا ما جاريناه في آرائه نلن يكون

محببة في جنيف ، في عهد الإصلاح ، وقد أطلق عليهم لقبه « بمرسان المعلقة » ،  
لأنهم كانوا ينفرون بأنهم « اكلوا أعداءهم بالمعلقة » . . . ومن ثم فقد كانوا  
يحظون بلطفة مدلاة من اشرطة حول اعناقهم . وكان برأسهم عارس من «  
» دى بونفير .

ذلك عن تلقى . بغية استغلال كرمه ، وإنما هو تجنب  
لإغضابه . أو لمقابلة حسنته بسينة . . . إذ ما الصالح الذى كان  
السيد دى بونفير يبتغيه من وراء استقبالي ، أو اكرامى ، أو  
محاولة إقناعي ؟ . . . لا شيء سوى مصلحتي أنا . هكذا أثبتاني  
قلبي الشاب ، فهزنى عرفان الجميل ، وتوقير مثل هذا  
الكاهن الطيب . وكنت أشعر بتفوقى عليه في المعرفة ، فلم  
أشأ أن اجازيه عن ضيافته بأن اذهله بهذا التفوق . ومن ثم  
لم يكن في مسلكي شيء من التفائق « لما فكرت قط في أن أغير  
دينى ، بل إننى كنت أبعد ما أكون عن أن أروى نفسى سريعا  
على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا في استنكار مساعد على  
أن يقصصها عنى ابدا طويلا . إنما كانت كل رغبتى هى أن  
أتمادى اغضاب أولئك الذين كانوا يحسنون معاملتى سعيا  
منهم إلى تحويلي عن عقيدتى . كنت أبغى أن أتمى حسن  
نواياهم ، وأن ادع لهم الأجل في النجاح ، وذلك بأن ابدى لهم  
أننى أقل ممانعة مما كنت في الواقع . وكان مسلكي في ذلك  
يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللاتى يعرفن كيف  
يقرن آمالا تفوق ما يعترفن أن يحققنه أحيانا في سبيل بلوغ  
مآربهن ، دون أن يجدن بشيء ، أو يتقيدن بوعد !

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام ، تتطلب من الناس  
أن يتقنوني من الدمار الذى كنت أهرع لملاقاته ، ولإعادتي إلى  
أسرتي ، بدلا من معاونتى على طيبي . هذا ما كان كل إنسان  
صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله « أو يحاول فعله . ولكن  
السيد « دى بونفير » وإن كان رجلا طيبا ، إلا أنه لم يكن .

قطعا - بالرجل التقى .. بل إنه كان - على التقضى -  
متعصبا . لا يعرف عن التقوى سوى أنها عبادة الصور .  
وترديد التسابيح .. كان من ذلك النوع من المبشرين الذين  
لا يملك الواحد منهم أن يفكر في شيء لمصلحة عقيدته ، أفضل  
من كتابة الاتهامات ضد قساوسة جنيف ! .. وبدلا من أن  
يردني إلى موطني ، استغل الرغبة التي كنت أحس بها في  
الفرار من هذا الموطن ، وعمل على أن يجعل العودة متعذرة  
علي ، ولو شئتها ! .. ومن المحتمل أن الطريق التي وجهني  
إليها كانت كليلية بأن توردني موارد التعاسة . أو أن تجعلني  
أمة لا وزن له .. ولكنه لم يكن يطلع إلى ذلك أو يحسب  
حسابه ، فما كان يرى أمامه سوى نفس انتقدت من الكثير  
وردت إلى الكنيسة . وسواء أكنت شريفا أم غديا ، فما قبة  
ذلك ما دمت أذهب إلى التماس ؟ .. على أن المراء يجب  
الاعتقاد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك ، بل إنه  
مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة ، التي يعتبر الإيمان عو  
الشيء الرئيسي فيها ، وليس الاعمال !

وقال لي السيد دي بونفير : « إن الله يدعوكم . فاذهب إلى  
( أنيسي ) ، وهناك ستجد سيده طيبة ، محسنة . جعلها كرم  
الملك في مركز يمكنها من إنقاذ الأرواح من الخطأ الذي نجحت حتى  
نفسها منه ! » . وكانت السيدة المقصودة هي « مدام دي  
لاران » ، التي اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتي اضطررها  
القساوسة - في الواقع - إلى أن تنقسم مع من كانوا يبيعون  
عقيدتهم من الذهب ، معاشا قدره ألف فرنك كانت تتلقاه من  
ملك سردينيا . وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيده

طبية محسنة . فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفي  
بحاجاتي ، وليس إلى أن أحظى بصداقات ! .. كما أن التفرغ  
للحين لم يكن يستهويني . ومع ذلك فقد حملت نفسي - في  
شيء من العناء - على أن أسمى إلى ( أنيسي ) متفوعا بالحاج  
السيد دي بونفير . ويضبط الجوع ، وبمتعة الرحيل في سبيل  
غاية محددة . وكان بوسعي أن أبلغ وجهتي في يوم واحد ،  
ولكنني استغرقت في سفرى ثلاثة أيام . إذ لم أكن في عجلة من  
أمرى . ولم أجرؤ - في تلك الأثناء - على أن ألتجأ قصرا ، أو  
أقرع بابا . فقد كنت بطبعي شديد الخجل . ولكنني كنت أغنى  
تحت النوائذ التي براودني الأمل في أن يكون خلفها من  
يسمعني . وكنت أصدم عندما أنكرتني بالجهد المتواصل ،  
ثم لا أرى سيدات ولا عذارى يجذبني إلى صوته أو معاني  
أغاني . لا سيما وأنني كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها  
زملاتي . وكنت أفنيها في إلقاء لا يقل عن معانيها روعة !

ووصلت أخيرا ، فראيت « مدام دي لاران » . ولقد حددت  
عذة الفترة من عمرى شخصيتي ، فلمست أقوى على أن أحمل  
نفسى على المرور بها برا سريعا .. كنت في منتصف العام  
السادس عشر من عمرى ، وكنت بديع الفكوين ، دون أن أكون  
ما يسمونه « فتى مليحا » .. كنت صغير القدم ، مستوى  
الساق . رضى الخلق ، ذا قسما مغيرة . وقم صغير بديع ،  
وشعر ناعم . وحاجبين أسودين ، وعينين صغيرتين غائرتين  
قليل ، ولكنهما - مع ذلك - كانتا ترسلان بقوة تلك النار التي  
كانت تتأجج في دمي ! .. على أنني - صغير - لم أكن

أعرف شيئا عن ذلك . فما خطر لي قط - خلال حياتي - أن أفكر في مظهرى الشخصى ، اللهم إلا بعد أن غات أوان الإعادة منه !.. وكان الجبن المألوف في مثل سنى هذه يرتبط بوجع ناشئ عن شخصية جبلت على الصب ، فهي دائما في هم من خشية الإساءة إلى أحد . هذا إلى جانب أننى وإن أوتيت عقلا حسن التكوين ، نشئ على التسامح ، إلا أننى لم أكن قد رايت الدنيا ، وكانت تعوزنى آداب السلوك .. وبدلا من أن تسد معرفتى هذا النقص ، فأنها لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلى وجبنى ، إذ أظهرتنى على مدى حاجتى الماسة إلى هذه الآداب!

ومن ثم ، فإن خوفى من أن يخفق مظهرى - في أول لقاء مع مدام دى فاران - في أن يكسب عطفها ، دفعنى إلى نجشهم بمقاييم أخرى . فنظمت رسالة بديعة ، في أسلوب خلابى . خلطت فيها عبارات منقاة من الكتب ، بتعابير مكتسبة من الزملاء المحال ، وكشفت عن كل بلاغى ، لكي أكسب رضا السيدة . وأرغمت برسالتى خطاب السيد دى بونفير ، ثم سعيت إلى المقابلة التى كنت أرهاها .. ولم تكن مدام دى فاران في البيت ، بل قيل لى أنها بارحته لتوها إلى الكنيسة ، إذ كان اليوم يوم أحد السعف من عام ١٧٢٨ ، فهرعت في أثرها ، ورايتها ، فلتحت بها وخاطبتها . وخلق بى أن أذكر البقعة التى التقينا فيها ، فسكن روييتها بدمعى وغطبتها بقبلاى ، منذ ذلك الحين ! وكما أتمنى أن أحيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود أن اجتلب إليها تهجد العالم وخشوعه .. وخلق بكل من يحب تكريم فكريات

خلاص النفوس البشرية ، الا يقترب منها إلا وهو راكع على ركبتيه !

كانت تلك البقعة دريا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصل بين جدول - إلى اليمين - بفصل البيت عن الحدبة ، وسياج الفناء - إلى اليسار - ويؤدى إلى باب خلفى للكنيسة الفرنسيسكان (١) . وفي اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتياز هذا الباب ، سمعت صوتى ، فالتفتت خلفها . وكما أذهلتى منظرها !.. كتكت قد تنهلها عجوزا ، عابسة ، متمسكة في تدينها - فما كانت السيدة التقية التى تعرف السيد دى بونفير لتمدو هذه الصورة ، في رأيى ! - بيد أننى رايت بدلا من هذه الصورة وجها يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين جميلتين - مغمضتين رقة - وبشرة تبهر البصر ، ومعلم عبق فائن .. لم يقلت شئ من النظرة السريعة التى القتها المرید الفتى - فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدا وتلميذا متعلقا بها . - وقد داخلنى اقتناع بأن دنيا يبشر به حواريون من قبيل هذه السيدة ، لابد وأن يعود إلى الفردوس ! وتناولت منى المرأة ، مبتسمة ، الرسالة التى قدمتها

(١) أصحاب الجمال : وهم افراد طائفة دينية انشأها القديس فرانسيس الاسيسى في سنة ١٢٢٢ . وقد اطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة انشأها دانتون ، و « بارا » و « ليونان » - زعماء الثورة الفرنسية - في سنة ١٧٩٠ . وكانت تعقد اجتماعاتها في دير

إليها بيد مرتجفة - فغضنها ، وألقت نظرة على ما كتب السيد دي بونثير ، ثم أرتدت إلى ما كتبته أنا فقرأته كله ، وهبت بأن تعيد قراءته لولا أن نبهها خادمها إلى أن الوقت قد حان لفتح الكنيسة ، فقاتلت لى بلهجة هزت كيائي : « حسنا يا صغرى .. إذن فانت تهيم في البلاد ، في مثل هذه السن ؟ .. إنه لأمر يستحق الرثاء حقا ! » .. ولم تنظر حتى أجيب ، بل أرتدت : « اذهب فانتظرنى ، وسلمهم أن يقدموا لك فطورا .. ولسوف أتى بعد الصلاة لأتحدث إليك » .

كانت « لويز اليونور دى فاران » شابة تنهى إلى آل « لاتوردى بيل » . وهى امرأة عريضة ونبيالة من أسرات « فيلای » إحدى مدن مقاطعة « فودن » . وكانت قد تزوجت وهى جد صغيرة من السيد دى فاران - من آل لويس - وكان الابن الأكبر للسيد دى فيلاردان ، من ( لوزان ) . ولم يكن هذا الزواج - الذى لم يعقب ولدا - زواجا هنيئا ، فلم تلبث السيدة دى فاران - تحت تأثير حزن عائلى - أن انتحزت فرصة وجود الملك فيكتور اماديو فى ( ايفيان ) ، فمبرت البحيرة ، وألقت بنفسها عند قدمى هذا الأمير .. ومن ثم هجرت زوجها وأسرته وبلادها « فى غيرة حياء تشبه فورتي ! - وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت أنا - وإذا كان الملك مشغولاً بأن يظهر بمظهر الكاثوليكي الغيور ، فغالبه أخذ السيدة تحت جناحه ، ووقف عليه معاشا



وقى اللحظة التى همت فيها بدمام دى فاران باحتياز هذا الميأب ، سمعت صوتي ، فالتفت خلفها

سنويا قدره ١٥٠٠ جنيه بيبونتي (١) . . وهو مبلغ كبير يعد إسرانا من أمير كان بطبعه غير ميل للسقاء . . على أنه علم بعد ذلك بما قيل - بسبب استقباله إياها - من أنه أحبها ، فما كان منه إلا أن أرسلها إلى ( انيسى ) في حياية فصيطة من حرسه . حيث نبذت العقيدة البروتستانتية في دير ( الزيارة ) ، تحت إرشاد روى من « ميشيل جابريل دى برتيكس » ، الأسقف الأسقى لجنيف .

وكانت قد قضت ست سنوات في ( انيسى ) عندما قدر لى أن أصل إليها ، وكانت وقتئذ في الثامنة والعشرين من عمرها ، إذ ولدت في بداية القرن . ولقد كان جمالها من النوع الذى يبقى مع الزمن ، إذ أنه يقتصرن بالمحيا أكثر منه باللامح والقسمات . . كما أنه كان - لديها - في باكورة نالقه . فكان لها طابع لطيف ، حنون ، وفكسل رقيق : وابتناساة ملائكية ، وفم يشبه قمى . وشعر أشهب خفيف نادر الجمال « ترسله في إيهال كان يكسبها مظهرأ أخذا . وكانت صفيرة القد ، بل أنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها . على أنها أوتيت راسا وصدرأ ویدین وذراعین لا تملك العین أن تقع على أجمل منها . . ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقت أمها عند مولدها - مثلى - وتلفت العلم في غير انتظام ، كلما من

(١) نسبة الى ولاية بيبونتي ( - وتكتب بالحروف اللاتينية ( بيبونتي ) ولكن الفاء تنقل ل النطق - وتقع على حدود فرنسا وموسيرا ، في الشمال الغربى لإيطاليا .

لها أو صادفتها الفرصة . . تاخذت قدرا ضئيلا من مربيتها ، وقليلأ من أبيها . وقليلأ من مدرسيها . وحظيا وأفرا من عشيقها ، لا سيما من شخص منهم يدعى السيد « دى تافيل » ، كان رجل فوق وعلم ، فكان يزين المرأة التى تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته . ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة - بهذه الكثرة - جعل كلا منها يعرقل الآخر ! ولما كانت السيدة قد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم « فإن إدراكها السليم - بطبعه - لم يصب أى تحسن . ومن ثم غانها - برغم إلماها بشئ من أصول الفلسفة وعلم الطبيعة - ظلت تحتفظ بها كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبي (١) والكيمياء ، وكانت تحضر اتسواع « الأكسير » والاصصباغ ، والبلاسم ( المراهم ) ، والمساحيق السامية (٢) . وكانت تزعم أنها تملك عقاير سرية ! ولقد استقل مدعو الطب من الدجالين ضعفها . ففسلأوا عليها ، واعتوها ، وانلسوها . . وبين البواتق والعقاير بددوا ذكاءها ، ومواهبها ، ومفائنها التى كانت خليفة بان تبهر بها أرقى مجتمع ! . . ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاء اساموا استفلال تربيتها التى لم تلق التوجيه الصالح ، لكن يظفأوا ضياء عقلها ، إلا أن قلبها السامى صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه . . وما تقيرت شخصيتها الودودة اللطيفة ، ولا عطفها على التعساء ، ولا طبيتها التى لم يكن لها حد ،

(١) الطب التجريبي هنا يلمح به ذلك الطب الذى اكتسب معرفته بالممارسة

واللجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بشئ « التجربة » .

(٢) المساحيق السامية مساحيق كانت

ولا خلقها البشوش . الصريح . المستقيم . بل إنها حين عدا عليها الكبر ، واحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع ، ظلت مسجيتها الوادعة الجميلة . محتفلة — حتى نهاية عمرها — بكل ما كان بها من بهجة في ايامها !

ولقد كانت اخطاؤها راجعة إلى معين لا ينضب من النشاط الذى كان في حاجة مستمرة إلى شغل . ولم تكن تبغى شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء : وإنما كانت تبغى مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسليم في الشؤون الهامة . ولو أن « مدام دي لونغفيل » كانت في مكانها لكأنت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات . — اما عى . فلو أنها كانت في مكان مدام دي لونغفيل لحكمت الدولة وباسست أمورها ! ولكن قدر لواهبها أن تتوفر في غير المجال الصالح لها : فإذا هذه المواهب التى كانت خليفة بأن تجلب عليها الشهرة لو أنها كانت في مركز أسمى . تؤدي إلى دمارها وهى في المركز الذى عاشت فيه .! . ذلك أنها كانت — في كل ما يقع في مجال طاقاتها العقلية — ترسم خططها بكبرة في رأسها ، فترى غايتها مضخمة ، مما كان ينجم منه استخدامها وسائل أكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها . . . ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، انسلت ولما يكدها سواها يخسر شيئا .! . على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية — الذى أضر بها أبلغ الضرر — كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى في عزلتها الرهبانية ، إذ حال بينها وبين البقاء في هذه العزلة ما بقي من عمرها : كما كانت تعتزم . فما كان

من المحتمل أن تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة ، ولا الثثرة المنبعثة عن الخمول والكسل ، بعقل كان في حركة مستمرة : وكان يبتكر في كل يوم نظاما جديدة . ويحتاج إلى الحرية ليكرس ذاته لهذه النظم !

وكان أسقف برنيكس الطيب بشبه «فرانسوا دي سال» (١) في كثير من النواحي . وإن لم يعد له مائة . . كما أن مدام دي فاران — التى كان يدعوها بابنته — كانت تشبه « مدام دي شانفال » (٢) في كثير من النواحي . وكانت خليفة بأن تشبهها أيضا في اعتزالها الناس : لولا أن حياة الدير الخاملة كانت بغضبة إليها . ولم يكن عن نقص في حبة هذه السيدة الطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التى تتطلبها الرهبنة ، والتى كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالمقيدة ، تعيش تحت إرشاد أسقف . . فبها يكن الباعث الذى أغراها على أن تبدل عقيدتها . فانها كانت صديقة الإخلاص — عن يقين — للعقيدة الجديدة التى اعتنقتها . ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على اقدامها على ذلك ، إلا أن من الأكيد أنها لم ترغب قط في الفكوس ، فهى لم تمت على مذهب الكلاكة فحسب ، بل أنها برهنت خلال حياتها على أنها كانت كاثوليكية صالحة . وإنى لأجرؤ — وأنا الذى يمتد أنه قد

(١) أسقف جنيف ( ١٥٦٧ - ١٦٢٢ ) .

(٢) سيدة امتازت بقوتها ، وهى التى است نظمت نظام راحيات «الزيارة» .  
وقد أقر رهبنا اليبلا كمينت ثلاث مشر



اطلع على سريرتها - على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو في ثياب التقوى ملأية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع . كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملا .. على أن هذا ليس بهيال الحديث عن مبادئها ، فليسوف تمنح لي فرص أخرى للخوض فيها .

وعلى الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا - إن استطاعوا - كيف أن مدام دي ناران أوجت إلى منذ اللقاء الأول . بل منذ الكلمة الأولى . والظفرة الأولى . بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها . فضلا عما أوجت إلى به من مشاعر الولاء والتعلق ، ولو سلمنا بأن أحاسيسي نحوها كانت حبا حقيقيا - وهو ما سيبدو موضع شك - على الأقل : لأولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا - فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشاعر قل أن أوحى بها الهوى - وأعني بذلك طمانينة القلب ، والسكينة ، والسرور ، والثقة ، والاعتماد ؟ - كيف تسنى أنني عفت ما سعيت لأول مرة إلى امرأة لطيفة ، مهتمة ، ذات جمال باهر .. إلى سيدة أرفع منى مقابها - وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها - وكان مصيري ، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ ببدي .. أقول : كيف تسنى - رغم كل هذا - أن أشعر لفوري بانتملائي ، وبارتياح تام ، وكأنني كنت واثقا كل الثقة من أنني سأروق لها ؟ .. كيف تسنى أنني لم أحس - ولو للحظة واحدة - بأية حيرة ، أو ارتباك ، أو تخرج ؟ .. لقد كنت بطبيعتي خجولا ،

سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا - فكيف تسنى لي منذ اليوم الأول ، بل للحظة الأولى ، أن أتخذ معها المسلك السهل ، واللغة الرقيقة ، واللجة الاليفة التي سادت بيننا بعد ذلك بمرور سنوات - عند ما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية ؟ .. فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة - ولست أقول بدون رغبات ، فإن هذه كانت متوفرة لدى ! - أملا يرغب المرء في أن يعرف على الأقل ، من هدف عواطفه ، ما إذا كان حبه يقابل بحب مظه أم لا ؟ . الواقع أنه ما خطر لي في حياتي أن أوجه إليها هذا السؤال ، ولا أن أسأل نفسي ما إذا كنت قد أحببتها ! .. كما أنها لم تبد فضولا نحوي من هذا القبيل . كان ثمة شيء فذ في مشاعري نحو هذه المرأة الساحرة ، وليسوف يصادف القارئ - في سياق حكايتي - عجائب غير مرتقبة !

كان الموضوع يتعلق بها سوف يصير إليه أمرى ، وقد استبقيتني السيدة للمفداء كي نتحدث بشأن مستقبلى . وكانت تلك أول مرة في حياتي تخلت عني فيها شهيتي ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة - التي قامت بخدمة على المائدة - إنني كنت أول قادم من سفر ، في مثل سننى وطبقتي ، راته في مثل هذه الحال . ومع أن هذه الملاحظة لم تنل منى في نظر سيدتها ، إلا أنها أصابت رمى في نفس ملغلي كبير كان يتناول الفداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكتفى سعة أفرادا ! أما أنا ، فقد كنت في حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لي سبيلا إلى الأكل . كان قلبي يتغذى من شعور جديد على كل الحدة ، وقد ملا كل كيتي ، ولم يدع بنفسى ، بل إلى أي شيء آخر !

ورغبت مدام دي غاران في أن تعرف دقائق تاريخ حياتي القصيرة ، فاستعدت وأنا أرويهما كل ما فقدت خلال تلك الحقبة في الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلما استشرت اهتمام تلك الروح المسامية ، ازدادت هي إشفاقا على ما اعترفت أن أعرض حياتي له . ولم تجرؤ على أن تنصحنى بالعودة إلى جنيف . فقد كان ذلك — بالنسبة لوقتي — عملا بنطوى على خيانة للعقيدة الكاثوليكية . كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة . وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . على أنها حدثتني بلهجة مؤثرة عن أمي أبي ، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحب عودتي كي أوامسيه . ولم تكن تدري كيف أنها كانت تتراعى بقوة ضد نفسها . دون أن تدري . إذ أظفني قد قلت من قبل أن عقلي كان قد استقر على قرار . فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة وإقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا في عقائدي ، ازدادت عجزا من أن أفكر في الانفصال عنها ! كنت أشعر بأن العودة إلى جنيف بمثابة إقامة عوائل لا سبيل إلى تفليها بني وبين هذه السيدة ، ما لم اثبت بهذه الخطوة التي اتخذتها . ومن ثم ظلت صابدا في موقعي . وإذا رأيت مدام دي غاران أن جهودها غير مجدية . لم تمنع في الإلحاح . حتى تتقاضي إخراج نفسها ، بيد أنها قالت لي وهي ترمقني في إشفاق : « أيها الصغير البائس : يجب أن تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستذكر حديني عندما تكبر ! » . وأعتقد أنها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التي قدر لهذه النبوة أن تتحقق بها !

وكانت المشكلة عسيرة . وكيف كان بومسي — وأنا في مثل تلك السن الصغيرة — أن أجد موردا للعيش بعيدا عن وطني ؟ . . كنت جد بعيد عن أن اتقن حرفتي وأنا لم أكد أتم نصف فترة التعلم والبران . . حتى لو أنني كنت أقتنها ، فقد كنت خليقا بأن أعجز عن كسب قوتي منها في إقليم ( سافوي ) ، لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفعه على الفنون . . على أن الطفيلي الذي كان يلتمه الأكل — نياة عن السيدة وعني — وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كي يبيع فكيه ، فانتهاز الفرصة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقا — إذا حكينا عليه بنتائجه — بأن يكون مستلها من مكان آخر مضاد للسماء . وكان الاقتراح يوهي بأن أذهب إلى ( تورين ) حيث أجد عوننا روحيا وبدنيا في دار للضيافة أقيم للوعظ والتعليم الديني : إلى أن يتاح لي أن انضوي تحت لواء الكنيسة . فاستطيع أن أحصل على عمل بغسل أريحية المحسنين . واستطرد صاحبي قائلا : « أما نفقات رحلته ، فإن سيادة الأسقف سيتركهم بلا شك بتوفيرها ، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيري عليه . ولا مراء كذلك في أن السيدة « البارونة » وتابع قوله وهو ينحن على طيقته : « وهي جد محسنة ، ستوق إلى الأخرى إلى المساهمة » . ووجدت فكرة الاحسان بهذا الشكل جد بغيفية ، فائقل الآلم قلبي ولم أنبس ببنت شفة . أما مدام دي غاران ، فقد اكتفت بأن قالت — دون أن تتحس في قبول الاقتراح — إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما في وسعه ، وأنها على استعداد لأن تتحدث إلى الأسقف بهذا الصدد . ولكن صاحبنا المنين الذي لم يكن له

في الأمر شأن يذكر ، والذي كان يخشى ألا تحدث السيدة إلى الاستق بالطريقة التي كان يرجوها ، سارع إلى دعوة المحسنين ، وبذل جهده في إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام دي ناران - التي كانت تخشى على من الرحلة - في الحديث إلى الاستق عنها ، وجدت أن كل شيء قد دبر . وأسلمها الرجل لفوره النقود التي خصصت لنفقات رحلتي المتواضعة ، فلم تجسر على الإلحاح في بقائي ، إذ كنت أقرب من السن التي لا يليق عندها بامرأة في عمر السيدة أن تعبر عن رغبتها في استبقاء شاب معها !

واضطرت - بعد إذ دبرت رحلتي بهذا الشكل - إلى الانصياع ، بل أنني أقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع أن ( تورين ) كانت أبعد من ( جنيف ) - كما قدرت - إلا أنها : كعاصمة للأقليم ، كانت أوثق اتصالا بانيسي من أية بلدة تابعه لمعقدة مختلفة ، وفي أرض اجنبية . وإلى جانب أنني كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام دي ناران ، فأنني اعتبرت نفسي باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا أهم عسدي من أن أقيم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق في رحلة طويلة أثارت شغفي بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه ، وبدأ لي أن من التجارب البديعة أن أعبر الجبال - وأنا في تلك السن - وأن أرفع نفسي عن كل رغاتي بقدر ارتفاع جبال ( الألب ) .. إن في مشاهدة مختلف الأقطار لسحرا لا يكاد أي امرئ من أبناء ( جنيف ) يقوى على مقاومته . ومن ثم فقد قبلت الرحيل . وكان ذلك الطفيلي يزعم أن يسافر مع زوجته

خلال يومين - فمعهنوا بي إلى رعايته ، كما عهدوا بنقودي - التي ضاعتها مدام دي ناران - إليه . على أنها مفتحة كذلك مبلغا بسيطا لمصروف الخاص ، وزودتني بنصحها .. وفي يوم الأربعاء من « أسبوع الآلام » : بدانا سفرنا .

\*\*\*

وفي اليوم التالي لرحيلي ، وصل أبي إلى ( أنيسي ) - متمنيا أن يرى - مع صديقه السيد ريفال ، وهو مساعدتي مثله ، موهوب بل مشحون الذكاء ، كان ينظم أشعارا تفوق أشعار « لاموت » ولم يكن يقل أبدا ما للكلام عنه بالشعر ، فضلا عن أنه كان طيبا في كل ناحية - بيد أن ميله للأدب - في غير مجاله - لم يجد عليه من الثمار سوى دفع أحد أبنائه إلى اعتلاء المسرح ! .. ولقد قابل السيدان - أبي وصاحبه - مدام دي ناران - واكتسبا بأن رئيسا لحظي ، بدلا من أن يتبعاني ويسقرواني ، وهو أمر كان من اليسير عليهما أدائه ، إذ أنهما كانا يغطيان جوادين ، في حين أنني كنت أسير على قدمي ! ولقد حذا خالي « برنار » حذوها ، فوصل إلى ( كونغينيون ) ، ثم ارتد إلى ( جنيف ) بعد أن سمع أنني كنت في ( أنيسي ) .. وكانتا كان أعلى متحالفين مع نجمي المنحوس على أن يسلموني إلى المصير الذي كان يرتقبني . ولقد ضاع أخى بفضل إهمال شبيه بهكذا ، وكان ضياعه شبيه نهائي ، حتى أن أحدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان أبي رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد أوتى نفسه من تلك النفوس القوية القدرة

على جليل الفضائل . وكان فضلا عن ذلك أبا صالحا - لاسيما بالنسبة لى . فقد كان يحنى ويخصنى بضان غياض . ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب - مذ أصبحت أعيش بعيدا عنه - ميولا أخرى أحالت عاطفته الأبوية فآثرت بعض الشيء . وكان قد تزوج مرة أخرى فى ١١ نون ، ومع أن زوجته لم تكن فى سن تمكثها من أن تمنضى أخوة . إلا أنها كانت ذات أنساب وأهل . مما خلق لآبى أسرة جديدة . واهدانا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم بعد أكثر من استعادة ذكراى . . وكان قد اكتمل ، وليس لديه ما يعيش عليه . ولكنى وأخى كنا قد ورثنا عن أمنا ثروة بسيطة ، كان من حق أبى أن يحصل على ريعها فى غيابنا . ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هى حالت بينه وبين أداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية فى نفسه ، دون أن يظن إليها ! وقد خفت - فى بعض الأحيان - من حمسه الذى كان خليقا بأن يدفعه إلى الانطلاق فى تعقب أثرى ، كما حدث عقب رحيلى عن ( انيسى ) . وهذا - فيما اعتقد - هو السر فى أنه . وإن كان قد سعى إلى ( انيسى ) للبحث عنى فى الواقع ، فإنه لم يقنعنى إلى ( شاهبيرى ) ، حيث كان حريا بأن يعثر على ولاد . وكان هذا هو السر كذلك فى أنه كان يستبطن عتدا أزوره - كما صرت أفعل كثيرا بعد فرارى - بعنايات الأب وقبلاعه . ولكن . . دون أن يبذل أى جهد صادق لاستيقائى معه !

على أن هذا التصرف من جانب أبى - الذى كنت أعترف بحنانه واستقامته تمام المعرفة - قادنى إلى تأملات فى حالى :

ساهمت بدرجة غير طفيفة فى استبقاء قلبى سليما . فمنها استنتجت الدرس الأخلاقى العظيم ، الذى قد يكون الدرس الواحد ذا القيمة العملية : تنادى تلك المواقف التى تعترض الحياة ، والتى تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا ، وأنى تبصرنا بها قد يكون لنا من نفع فى مصائب الغير . . فمن المؤكد - فى مثل هذه المواقف - أنه مهما يكن حبنا للنفسلة صادقا . فلا بد من أنه سيأخذ فى الضعف . دون أن ننقبه إلى ذلك - إن عاجلا أو آجلا - حتى يصبح ظالما . شديدا فى تصرفاته ، وإن لم يكف عن أن يظل منصفا طيبا و أمقا قلوبنا !

هذا المبدأ الذى انطبع فى قرارة فؤادى . والذى هدانى - وإن جاءت هدايته متأخرة - فى كل مسلكى فى الواقع . هو أحد المبادئ التى جعلتنى أبدا مخلوقا شديد الغرابة والحباسة فى نظر العالم . وفى نظر معارفى قبل سواهم ! ولقد عيب على أننى أحاول أن أظهر فدا ، مغايرا لكل من عداى . والحقيقة هى أننى لم أجثم نفسى قط عناء التصرف على شاكلة غيرة من الناس . أو على نقيضهم . وإنما كنت أتوق مخلصا إلى أن أفعل ما كنت أراه صوابا . فكنت أبعد - بقدر ما فى وسعى - عن المواقف التى تجعل مصالحى متعارضة مع مصالح الغير . والذى قد توحى إلى - من جراء ذلك - برغبة خفية فى إيذاء الغير . ولو دون إرادة منى ! ولقد أراء سيدى اللورد مارشال أن يثبت اسمى فى وصيته - منذ عامين - فعارضت ذلك بشدة : وقالت له أننى ؟

شيئا في الدنيا ، قدر أن أعلم أن اسمي مثبت في وصية أحد ، وفي وصيته هو بالذات . ولقد نزل أخيرا عن رغبته . ولكنه أصر على أن يمنحني معاشا مدى الحياة ، فلم أعارض . ولسوف يقال إنني كسبت بهذا التعديل . وهو قول قد يكون صحيحا . ولكن . . أواه أيها الأب وأيها المحسن . . . إنني لأوقن بأنه إذا قدر لي - لتعاستي - أن أعيش بعدك ، فأنني سأفقد بفقدانك كل شيء ، ولن أكسب شيئا !

هذه - في رأيي - هي الفلسفة الحقّة ، بل الفلسفة الوحيدة التي تناسب القلب البشري في الواقع . وإنني لأزداد في كل يوم تأثرا بمقائنها وثباتها ، حتى أنني عرضتها - تحت أضواء متعددة - في كتاباتي الحديثة . ولكن الجمهور سطحي الإدراك ، لا يعنى إلا بالقشور ، فلم يدرك كيف يستوعبها . ولو قدر لي أن أعيش ، بعد أن أفرغ من مهمتي الحاضرة ، حتى اضطلع بمهمة جديدة ، فأنني أعتزم أن أقدم - على غرار ما فعلت في «أميل» (١) - مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة ، يضطر القارئ إلى أن يعنى به . ولكن . . لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر ، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة !

\*\*\*

وجدت الرحلة أبداع مما توقعت ، ولم يكن مرافقي الطفيلي من السماجة بالقدر الذي كان يأسوح عليه : كان رجلا

(١) يعتمد بهذه الإشارة ما أورده في الضمائم العشرين ، بالجزء الثالث من قصته الطويلة « هيلويز الجديدة » .

في أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يذب في جوانه ، وقد بدأ كجندی من قاذبي القنابل ، وأوتى صوتا جهوريا . . . وكان عارم البشاشة ، يفضّ في مسيره ، ويسرف في أكله ، ويمارس كافة أنواع الحرف ، دون أن يجيد شيئا منها . واعتقد أنه كان يزعم إنشاء مصنع ما في إنيسي . . . ولم تتخل مدام دي فاران عن تحبّيه فكرته ، وكان لابد له - كي يقدم على المحاولة - من الحصول على موافقة الوزير ، ولهذا كان في طريقه إلى «تورين» ، مزودا بالمال . وكان صديقنا هذا ذا براعة في الدس والقامر ، حريصا دائما على أن يتقرب إلى رجال الدين ، وبينما كان يبدى تلهفا عظيما على أداء الخدمات لهم ، استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لا يفتأ يستغلها مباهايا بأنه واعظ كبير . . . بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية ، كان لا يكف عن ترديدها ألف مرة في اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف الفامتها . . . ونادرا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودا . . . كان بارعا أكثر منه أفاقا ، وكان عندما يردد « كابوشينياته » (١) بلهجة ضاسبط تدريب المجنسين ، يشبه الراهب بطرس (٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبه الدينية وهو مهسك بمسيف . . . أما زوجته - السيدة سابران -

(١) خطب ومكثت ذينة غثة ، كذلك التي كان يلقيها الرهبان «الكابوشان» .

(٢) يمتد بطرس الراهب أهم بحرّض على شن الحملة الصليبية الأولى ،

وكان بطول يقرى أوروبا على ظهر بطة ، ويشتغل في الحياكة . . . ويتخذ من القبة الدينية وسيلة لتحويل الأخطار . . .

فكانت امرأة طيبة . اهدا بالنهار منها بالليل . ولما كنت انبام في حجرتهما . فان نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظني . وكان خليقا بأن يستيقظني مساهرا لو انني علمت سببه . ولكن لم اشعر بآثاره ريب . وقد ادى غيائي في هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمي على الطبيعة وحدها !

ومضيت في رحلتي مع مرافقي التقي وزميلته الصاخبة . دون ان تعكر صفو سفرى أية بادرة . كنت اسعد . بدنا وذهنيا ، مما كنت طيلة عمرى . كنت فنى قويا . موفور الصحة . خلوا من الهم . مفعما بالثقة في نفسي وفي الغير . كنت استمتع بتلك الفترة الغالية - برغم قصرها - من الحياة . اللحظة التي تنبسط فيها الحياة على سمنها . تنضج من شعورنا بكل حواسنا واحاسيسنا . وتجعل الطبيعة في ابصارنا ، إذ تبديها تحت سحر وجودنا ! .. وكان قلقي البهيج بخضع لهدف يقيد من حدته . ويسكن من خيالي . كنت انظر إلى نفسي كمنسجمة وتلميذ وصديق . بل وحييب - تقريبا - لدام دي غاران . كانت الامور المؤدية التي حفتني بها . واللطف البسيط الذي خصنتني به . والاهتمام الحنون الذي لاح انها اولئك . وتظاراتها الودية التي بدت لى وكانها مليئة بالحب . إذ انها كانت تلهي هذا الشهور ! - كل هذه الامور شغلت افكارى خلال المرحلة ، واغرقتني في احلام لذية لم يكن يعكرها أى خوف أو شك بشأن مستقبلى . فقد رايت انهم - إذ اوفدوني إلى نورين قد تكلوا بأن يعملوني هناك . وان يحصلوا لى على مركز مناسب . لذلك شعرت بأننى في

غير حاجة إلى ان احمل هم نفسى بعد ذلك . فقد حملته عنى سوى . ومن ثم مضيت في سفرى بخطى خفيفة بعد ان تخلصت من هذا العبء . كان كل شيء يلوح لى وكأنه يعزز سعادتي المبكرة . وكنت بين الجدران اصور لنفسى المسادب والحنوات الرينية . وفي المروج اصور لنفسى الالمام الخسنة . وعلى ضفاف الأنهار : السباحة والنزهات وصيد السمك . . وفوق الشجر : الفواكه الشهية . . وتحت ظلالها : الخلوات العاشقة . . وعلى الجبال : دلاء مفرغة باللبن والقشدة . وخمول حبيب وسكنة وبساطة . ومتعة الانطلاق دون ما غاية ! . . وقصارى القول انه لم يكن ثمة ما يصادف بصرى دون ان يبعث في فؤادى شيئا من الامتنان المتع ! . . كانت فخامة المناظر المحيطة بى . وتنوعها . وجمالها الحقيقي ، تجعل تلك الفترة أهلا للتقدير والتسامل . بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب في ذلك ، فقد لاح لى شرفنا يفوق ما يؤهلنى له عبرى ان ازور إيطاليا - وانا لا ازال صغيرا - وان ارى مثل هذا القدر من الدنيا . وان اتقوا اثر « هانيبال » عبر الجبال ! . . وكما - إلى جانب ذلك - كثيرا ما نفث بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتى متفتحة للأكل ، كما كان إرضاءها مقومرا بكثرة . والواقع اننى لم اجد داعيا لأن احرم نفسى شيئا ، لاسيما وان وجباتى لم تكن بالشئ الذى يذكر إذا قورنت بوجبات السيد سابران !

ولست اذكر خلال حياتى كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت في الأيام السعيدة أو السعيدة التي

استغرقتهما رحلتنا ! فان مقدره السيدة سايران على السير - وهى المعدل الذى كنا مضطرين إلى ان ننظم خطانا وفقا له - جعلت الرحلة تتجاوز نزعة طويلة على الأقدام ! ولقد خلفت لى ذكرى عذبة المناسبة ميلا شديدا إلى كل شيء كان مرتبطا بها لا سيما الجبال والسير على الأقدام - فما سبق لى ، فى الأيام السالفة من عمرى ، ان أسافرت على قدمى .. فضلا عن ان أسفري هذا كان مقترنا بأعظم المسرات - ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة - اضطرتنى فيما بعد إلى ان اتخذ دور السيد الراقى ، وان استقل عربة فى أسفارى - كما ان الهوم والارتباكات والشواغل المضرة لم تليث ان تسربت إلى « فعدا كل هوى فى رحلاتى متجها إلى بلوغ غايتى - بعد ان كنت لا أكثر بشيء سوى الاستمتاع بالسفر !.. ولقد قضيت وقتنا طويلا أحاول ان أعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولى بحيث يقبلان أن ينفقا خمسين « لوى » (١) من مالهما ، وعاما من وقتهما ، فى الترحال معى على الأقدام ، لنجوس خلال إيطاليا ، دون أن تصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الامتنان بالفكرة ، ولكنهم لم يكونوا يرونها - فى الواقع - أكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون أى تفكير فى تنفيذه ! وإنى لأذكر أن « نيدرو » و « جريم » - اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة - قد تصمما لها فى النهاية ، فخبيل إلى أن الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى ان تمنا برحلة على الورق ، لم يجد فيها « جريم » من السرور

(١) « اللوى » عملة فرنسية قديمة كانت تساوى عشرين لفرنكا .

أكثر من أن يجعل « نيدرو » يرتكب عددا من الأخطاء الإلحادية ، ثم يسلمنى إلى التحقيق بدلا منه (١) .

\*\*\*

لم يخف من أسفى لاسرعة الوصول إلى « ثورين » سوى سرورى بروية مدينة كبيرة ، والأمل فى أن يتدر لى أن أقوم بدور يلقي بشخصى ، إذ كانت أبخرة الطلوح قد بدأت تصاعد فى مضى ، وأصبحت أرى اننى قد سموت - إلى ما لا نهاية - فوق حالى السابقة أيام كنت أتلمذ للحرفة .. وكنت أبعد من أن أظن - مجرد ظن - أنه قد كتب لى أن أهوى ، فى امد وجيز ، إلى ما دون تلك الحال !.. على أن من واجبنى أن أسأل القارئ الصنف ، أو ان أبرر له - قبل ان أمضى فى قصتى - تلك التفصيلات الداهية التى خضتها ، أو التى سأخوضها فى سياق القصة - والتى قد تبدو فى نظره عديمة القبة .. فان المهمة التى أليتها على نفسى - إذ وعدت بأن اكشف نفسى للملا على حقيقتها ، دون ما تحفظ - تتطلب عدم إبقاء شيء يتعلق بى فى طى الإيهام أو الخفاء ، وان ادع نفسى تحت ابصار المسأ باستمرار ، حتى يصحبونى فى كل هفوات تلبى ، وفى كل الأركان الخفية فى حياتى ، فلا أغيب عن أعينهم لحظة واحدة ، خشية ان يتساءلوا لو أنهم عثروا فى روايتى على أضال ثفرة ، أو اتفه فراغ : « ما الذى كان يفعله خلال

(١) بعدد روسو أن الرحلة لم تخرج عن نطاق الورق والظلم والانتلاق

ل الخيال ، بحيث نعت قصة وهمية .



ذلك ؟ » . . فلا يلجئون أن يتهمونى بأننى غير راغب فى أن انضى بكل شيء . . وأن ما اكتبه ليعرضنى لغضب الجنس البشرى بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن اعرض نفسى - بصمتى - لمزيد !

وكان مصروفى الخاص الضئيل قد نفذ ، إذ كنت فى ثرثرتى قد تحدثت عنه . فلم يتوان مرشداى عن استغلال عدم حرصى ، واستطاعت مدام سابران أن تحصل منى على كل ما كان معى . . حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالنفثة كانت مدام دى ناران قد محتبتها لازين بها سبغى الصغير . وكانت حسرتى عليها أشد منها على أى شيء آخر . بل إن السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى فى حوزتهما لو أننى تهاونت فى مقاومتى . ولقد تكفلا بنفقتائى - فى أثناء الرحلة - بأمانة . ولكنهما لم يدعيا لى فى الوقت ذاته شيئا . . فبلغت ( تورين ) بلا ثياب ولا مال ولا متاع . وغدوت مضطرا إلى أن أدع لواهبى وحدها شرف الحظ الذى كنت أرجو أن أحظى به !

وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها . بسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ ، حيث بدأت اتعلم الدين الذى كان على أن اكسب به عيشى ! . . ورايت عند وصولى بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، أغلق خلفى - وأحكم رتاجه - بمجرد أن اجتزته . وبدت لى هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبولة . . وكنت قد بدأت تغذبنى بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رعية الجوانب ، كان كل أثاثها عبارة عن هيكل خشبى يطوى بعلوه صليب كبير - فى نهاية الحجرة - وقد قامت أمامه أربعة أو خمسة مقاعد صنعت

فى الأخرى من الخشب . ولاحت كأنها مصقولة خصيصا . فى حين أنها إنما كانت تلعب من كثرة الاسفنج والشمع والاحتكاك . وفى هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات . كان نية أربعة أو خمسة من الأشرار الرهيبيين . . أولئك كانوا رفقا من الطلبة الذين لاحوا لى وكانهم من الزبانية وليسوا من الطامعين فى شرف أن يصبحوا أبناء للرب . وكان اثنان من هؤلاء الأوغاد من « السلافيين » الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترقا لى بأنهما قضيا عربيعما فى التجوال فى ربوع أسبانيا وإيطاليا . وانهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كى يعمدا ابنهما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت !

وما لبث أن فتح باب حديدى آخر ، فشطر شرفة رعية نهد بطول الفناء . واقبلت خلال هذا الباب أخواتنا . كن من التلميذات اللائى قدر لهن - كما قدر لى - أن يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد . وإنما عن طريق نبذ عقيدتين السابقة . . ولكن حقا أعظم أفاعات وأبشع مثيردات لطفن زمرة رعايا الرب . على أن واحدة منهن فقط لاحت لى جميلة وجذابة ، وكانت فى حوالى عمرى ، أو ربما كانت تكبرنى بعامين أو ثلاثة . وقد أوقيت عينين جريئتين أخذتا تلتقيان بمعنى أحيانا ، فالهمنى هذا برغبة فى التعرف بها . ولكن وجدت خلال الشهرين اللذين قضتهما فى النزل بعد وصولى - وكانت قد مكثت ثلاثة أشهرين قبل ذلك - فى السجن - إطلاقا أن اتحدث إليها ، وقد كنت حقا مجنونا .

بأمرة بأن تشدد في رعايتها . كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الديني الذي كان يبذل مزيدا من الحواس والجهد لتحويلها عن عقيدتها . ولا بد أنها كانت مغرطة الغباء . وإن لم تكن تبدو كذلك ، إذ أن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دوما غير ماثية لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة . على أنها ما لبثت أن ملت عزلتها عن العالم ! فأعلنت عن رغبتها في ترك المنزل ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر . واضطروا إلى أن يكتفوا بإعلان انضوائها للكنيسة - دون أن تعي تعاليمها - خشية أن يتولاهم العناد فترفض !

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة في حظيرة الدين . والقي علينا خطاب قصير ، وجه إلى فيه الحس على أن استجيب لفضل الله الذي أتيح لي . بينما دعى الآخرون إلى أن يصلوا من أجله ، وأن يشجعوني بأن يكونوا قدوة لي . وعسادت عذارانا - بعد ذلك - إلى ممزلين . وانفسح أمامي الوقت كي افكر مذهبوا في موقفى على ضوء هوى قلبى . ثم اجتمعنا في الصباح التالي مرة أخرى لتنتلى الدرس ، وإذ ذاك بدأت - للمرة الأولى - افكر جديدا في الخطيئة التي كنت مزمعا اتخاذها ، وفي الظروف التي تادتني إلى ذلك !

ولقد قلت - ولا أزال أقول - ولعلنى سأظل أردد وأنا أزداد كل يوم اقتناعا - بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا ! فقد كنت أنتهى إلى أسرة ابتازت

بإخلاصها عن عامة الناس ، فما تعلمت من أقاربى سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عيني أمثلة مشرفة - فلقد كان أبى - برغم ولعه باللهو - رجلا شديد الاستقامة ، ليس هذا تحسب ، بل أنه كان أيضا على قدر كبير من الشعور الدينى . كان رجلا ذا شهامة في شئون الدنيا ، ومسيحيا في قرارة فؤاده ، وقد بث في قلبى منذ الصغر ما كان يخالجه من أحاسيس . وكذلك أفدت من عباتى الثلاث ، اللاتي كن جبيما عاقلات غاضلات ، فقد كانت الكبريان منهن تقيتين . أما الصغرى - وكانت فتاة نباضة الحسن والذكاء والذوق - أما فلعلنا كانت أكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبدي تقواها إلا لما . ومن حضنة هذه الأسرة ، انتقلت إلى السيد لامبرسييه الذي كان واعظا ومن رجال الدين ، ومع ذلك فأنه كان مؤمنا في قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعط به ! ولقد عمل وأخته - بالرفق والتعليم الحكيم المتد - على تنمية ما وجدنا في غواذى من مبادئ التقوى . ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان في سبيل غايتهم هذه وسائل صادقة ، حكيمة ، معقولة ، دون أن ييلا الوعظ والتعليم . وكنت دائما أثار بهذا الجهد منهما ، وأتخذ قرارات طيبة ، نادرا ما كنت اغفل تنفيذها عندما أذكرها . أما في حالة عمى برنار ، فان تقواها كانت منيرة لي بعض الشيء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصناعة . على أننى نادرا ما فكرت فيها أثناء مدة تدريبي الحرفى دون أن اغمر هذا الراى . . كذلك لم أتصل قط بأى شخص في باكورة العمر يمكن أن يفسدني ، ومع أننى غدوت شريفا ، إلا أننى لم أكن قط منجلا !

وكنت . من جراء هذا : أعرفه من الدين كل ما يمكن لطفل في سنى أن يعرفه . بل إننى كنت أعرف أكثر من ذلك — إذ لا جدوى من أن أكتفم خواطرى ! — فإن طغولتى لم تكن شبيهه بطفولتى أندادى . بل إننى كنت دائماً أشعر وأفكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت . ولكنى لم أكن في طلولتى عادياً ! ولـسوف يضحك القارىء إذ يجدنى أصف نفسى — متواضعا — كشخص ممتاز . فليكن ! ولكن ليتصور — إذا ما فرغ من الضحك — طغلا في السادسة من عمره بلغ به الاقتتان بالقصص الخيالية والاسنساغة لها والقائر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخيئاً عليها !.. إذا استطاع القارىء أن يتصور هذا : فسأشعر بأن غرورى كان سخفاً ، وسأعترف بأننى مخطيء ! وإذا كنت أقول إننا جدبرون بسلا نحدث الأطفال عن الدين — إذا شئنا لهم أن يمتنقوا أى دين — بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله ، ولو وفقاً لآرائنا فيه : فإنها أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتى ، وليس من خبرتى الخاصة . إذ إننى أدرك أن ليس بين النتائج التى تستمد من خبرتى ما يصلح لغيرى من الأطفال . وإلا فاصنعوا منهم جان جاك روسو كذلك الذى كنته في السادسة من عمرى . وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة : وإذ ذاك أطمئنكم إلى أنكم لن تتعرضوا لأية مجازنة !

وأعتقد أن من المسلم به أن القدين لدى الطفل — بل ولدى الرجل — يعنى اتباع الدين الذى ولد عليه . ولكن هذا الإيمان

قد يفضائل أحياناً ، ونادراً ما يقوى . . غاإيمان الأعمى من ثمار التربية . وإلى جانب هذا المبدأ العام الذى ربطتنى بعقيدة أبنتى الدينية . غائتى أوتيت ذلك الثغور الذى امتازت به قريتنا إزاء التكنولوجيا ، والذى كان يصورها على أنها وثنية رهيبة . ويلطخ تماسوتها بأشد الألوان قتامة ! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور في نفسى . أننى — في البداية — لم أشهد قط جوف أية كنيسة . ولا قابلت قسا في زى الكهنوت . ولا انصت إطلاقاً إلى جرس جنائزى . إلا وسمرت في جسدى تشعيرية خووف وفزع . لم تلبث أن زيلتنى في المدن . ولكنهما كانت كثيراً ما نعاودنى في أبرشيات (١) الريف . لأنها أكثر شبيهاً بملك التى وإننى فيها هذا الشعور في البداية . ومن الصحيح أن هذا الأثر يتناقض — بشكل بارز — مع فكريات العطف الذى كان قساوسة ضواحي جنيف مولعين بأسباغه على أطفال المدينة . وبسبب كان الجرس الذى يعلن الراحة الكبرى — الموت — بفزعنى . كان جرس القداى وصلوات الغروب تذكرنى بالنظور ، واللقاء حول المائدة ، والزيد الطازجة ، والفاكية . والغذاء المخلوط باللبن !.. ولا يزال عشاء السيد بونفير الشبى يحدث في نفسى أثراً عظيماً !

\*\*\*

على أننى أقصيت كل تلك الخواطر من ذهنى . واتبلت — وأنا أنظر إلى البابوية من ناحية علاقتنا بالنسبة وطب

الحياة فقط - على ترويض نفسى على فكرة العيش في غمرة الكتلكة ، بيد أن فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة روما كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالى إلا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد . أما في الفترة التي أنا بصدها ، فلم يعد بوسعى أن أقرر بنفسى ، بل تبينت في جزع نوع القبول الذي قطعته على نفسى ، وما يقرب عليه من نتائج لا محيد عنها . ولم يكن لرهبان المستقبل المبتهئين ، الذين كانوا حولى - حساب في تعزيز شجاعتي ، ولا كان في طوقى أن أخفى عن نفسى أن العمل المقدس الذي اعتزمت الاضطلاع به كان في الحقيقة نوعا من السرقة ! ذلك لأثنى شهرت ، برغم صغر سنى إذ ذاك ، بأنه أيا كان الدين الحق بين العقائد ، فائنى كنت مقدما على بيع عقيدتى .. وافنى وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة ، إلا أثنى كنت - في قرارة مؤادى - أكتب على الروح القدس واستحق ازراء البشر ! .. ولقد كنت ازداد سخطا على نفسى كلما ازدادت تفكيراً في ذلك ، وكنت أؤمر حسرة على المصير الذى ساقنى إلى هذه الطريق . وكأنها لم يكن المصير من صنعى أنا ! وكانت تربي لحظات تشدد فيها هذه الخواطر ، إلى الدرجة التى كانت خليقة بأن تجعلنى أفر بكل تأكيد ، لو أثنى كنت قد ألقيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا : كما أن عزمى لم يكن بالقوة الكافية . فكم من رغبات خفية صارعتها لئلا تتقلب على .. ثم أن تصبى الثابت على عدم العودة إلى جنيف ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثمانية ، والحرارة التى انتابتنى إذ وجدت نفسى

نائيا عن يلقى ، بلا اصفقاء ولا موارد .. كل هذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلنى أرى في وخزات ضميرى ندما جسدا متأخر . لقد كنت اتعهد أن ألوم نفسى على ما فعلت ، لكى أجد العذر في إتيان ما أوشك أن أفعله ! وبينما كنت أضخم أخطاء الماضى ، رحت اعتبر أخطاء المستقبل نتائج محتومة لهما .. تبدلا من أن أقول للنفسى « إنك لم تات الفصل بعد . وفي وسعك أن تظل بريئا ، إذا شئت » ، رحت أقول : « أندم على الجرم الذى أدانك نفسك به ، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه » ! .

أية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، في مثل سننى تلك . لأذكر كل شيء وعدت به أو رجوته إذ ذاك ، من أجل تحطيم الاغلال التى فرضتها على نفسى ، ولكى أعلن في جراءة أثنى كنت راغبا . مهما يبلغ ما أتكبده ، في أن أظل معتنقا دين آبائى .. . مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لأمرى ، في سننى ، وما كان من المحتمل تماما أن تنجح ، إذ أن الأمور كانت قد تطورت إلى مدى لم يمد معه إخفاق هذه القوة أمرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازدادت مقاومة ، حتى عز على أن أقرها !

وكانت السفسطة التى قضت على هى ذلك المنطق الفلسفى المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد أن يكون أوان الانتفاع بهذه القوة قد فات . فالفضائل لا تغدو عسيرة المثال إلا بفضل أخطائنا ، ولو أنها لم تكن تنهك دائما بالحكمة والروية ، لندرت حاجتنا إلى الجري وراءها .

ولكن الميول المنحرفة التي يسهل تهرها تتعجل محذارتنا لا نقاومها . ونحن ننتساق لغوايات طفيفة . ازفراء منا لخطرنا . كما أننا ننع - دون أن ندرك - في مأزق خطيرة كان من اليسير علينا أن نتوقاها . ولكنا - متى وقفنا فيها - لا نستطيع أن ننتزع أنفسنا منها دون جهد مستقبل يضيقنا . وفي النهاية نهوى إلى الدرك الأسفل . ونحن نلوم الله . ويسالنا كل منا في عتاب : « لماذا خلقتني ضاعفا بهذا الشكل ؟ » . . . ولكنا - على الرغم من أنفسنا - نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه . « إلهنا خلقتك أضعف من أن تخوي على إنقاذ نفسك من الهوة . لأنني خلقتك أقوى من أن نسقط فيها » !

والواقع أنني لم أكن قد عقدت العزم تماما على أن أصبح كاثوليكي . ولكنني استغللت الفرصة ، وأنا أرى الوقت أملي متسعا . لكي أروض نفسي على هذه الفكرة تدريجيا . وكنت أتمنى في الوقت ذاته أن تحدث ظروف غير منتظرة سرعى من هذا المأزق . ولكي أكسب الوقت ، وقررت أن اتخذ خيرا ما كان في طوقى من أساليب الدفاع ، ولكن غرورى سرعان ما أعثاني من التفكير في قرارى هذا ، فما أن نبئت أنني كنت أحيانا أحير أولئك الذين كانوا راغبين في أن يعلمونى . حتى وجدت في هذا ما يكفى لأن أسعى إلى أن أضاعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعا ! بل أنني أخذت أبدي شوقا أخو - إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير على رحمت بدورى أحاول التأثير عليهم ! وكنت أوقن حقا بأن الأمر لن

يكفينى أكثر من أن أوفق إلى إقناعهم . فإذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين ! . . . وكان من جراء ذلك . أنهم لم يجدوا في من الانسحاق لهم قدر ما كانوا يتوقعون . سواء من حيث معرفتى أو من حيث استعدادى ورغبى . والبروتستانت - عادة - أفضل تعليما من الكاثوليك . وهو أمر طبيعى . لأن عقيدة الأولين تدعو إلى النقاش . في حين أن عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع . فالكاثوليكي مضطر إلى أن يعتقد الراى الذى يقدم إليه . أما البروتستانتى فلا بد من أن يتعلم كيف يقرر بنفسه الراى الذى يمثته ! . . . وقد كان هذا أمرا معروفا . ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يؤثر غنى في مثل مسنى وموتى مصاعب لأفراد ذوى خبرة وتجارب . فضلا عن أنني لم أكن قد تلقيت أول « مناولة » (١) ، ولا لفتت التعاليم الخاصة بها . وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشيء الذى لم يعرفوه هو أنني تعلمت على يدى السيد لامبرسييه وأخته ، وأننى - فضلا عن ذلك - كنت أحرص ثروة لا تروق لأولئك السادة . من المعرفة بتاريخ الكنيسة والإمبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثناء مقامى مع أبى . ثم نسيت به

(١) غريضة . المناولة ، أو غريضة . الاشتراك في العشاء الربانى « من أهم الفرائض والأمرار المختصة التى تركها المسيح لفلانسه وأتباعه . لكن يشكروا بها كلما مارسوها ، وهى تقوم على تناول خبز بكسور ، رمزا إلى جسد المسيح المملوء ، وعلى تناول جرعة من صير عنب مختبر . ثم المصح المسكوك على الصليب - وكل الكائنات - « من جهة اعتبارها » المناولة « الى وقتنا الحاضر »

تقريباً بعد ذلك ، ولكنه أخذ يعود إلى ذاكرتي كلما اشتد وطيس الجدل !

ورأس الاجتماع الأول - الذي ضمنا جيمما - تم كبير السن ، صغير الجسم ، على شيء من الوتر والمهابة . وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائي درساً في الدين ، وليس مجالاً للمناقشة . ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لا بحو اعراضاتهم . على أن الوضع تغير في حالة واحدة : فنعنما حان دوري رحلت استوقف القس عند كل نقطة ، ولم أعنه من أية عقبة كان بوسعي أن ألقبها في طريقه ، فاطل هذا من وقت الاجتماع وجعله مملاً للحاضرين . واسهب قسى الشيخ في الكلام ، وبدأ انفعاله يزداد ، وأخذ يشرد عن موضوعه ، ويخرج من المألوف بادعاء انه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالي ، روى أن اعراضاتي الرفاء قد تؤذى رفاقي ، فوضعت في حجرة أخرى ، مع قس آخر كان اصغر سناً من قس الأسس ، وأكثر ذلاقة لسان - أعنى انه كان يجيد اللغاب بالمعبارات - وأعظم رضى من نفسه مما يجوز لأى مدرس . . . على أننى لم ادع نفسي تنصاع لمسلكه المتسلط ، وما أن اطمأننت إلى أن بوسعي - برغم كل شيء - أن احتفظ بوقتي ، حتى شرعت أجيبه في ثقة وطيدة ، واضغط عليه من كل جانب بغاية جهدي . . . وخيل إليّ أن بوسعه أن يحيرني بذكر القديس أوغسطين ، والقديس جريجورى ، وغيرهما من الآباء الروحيين ، ولكنه لدهشته التى فاقت كل تصور ، وجد أننى أجيد الجدل بشأن الآباء جيمما بإسهاب لا يقل عن

إسهابه ، لا لأننى كنت قد قرأت عنهم من قبل - كما قرأ هو - وإنما لأننى كنت اذكر فقرات عديدة من كتاب ديني عن مجاهدة النفس ، بما أن كان القس يذكر مقرة منه دون أن يتوقف لمناقشتها ، حتى كنت أجيبه بمقرة أخرى من اقوال الاب نفسه الذى نقل عنه ، مما سبب له ارتباكاً غير قليل ، في كثير من الأحيان ! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزي ، وذلك لسببين : اولهما انه كان الأقوى جانباً . ولما كنت اشعر بأننى تحت رحمة ، فقد حكمت عن صواب - برغم صغر سنى - بأنه ليس من الصواب أن أخرج ، إذ أن هذا قد يدفعه إلى التطرف ، سيما بعد أن رأيت بجلاء أن القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف على او على تلميذ . . . والسبب الثاني هو أن القس الشاب كان متعلماً ، في حين اننى لم أكن متعلماً ، الأمر الذى جعله يستخدم في نقاشه أسلوباً عز على أن أجاريه فيه ، فكان إذا أحس بنفسه محرجاً تحت ضغط اعترافى غير ظاهر ، يرجئ الاجتماع إلى اليوم التالي ، متعللاً بأننى كنت اشرد عن الموضوع . وكان في بعض الأحيان يلجأ أن يصدق ما كنت أذكره من اقوال مقتبسة ، زاعماً انها مصطنعة زائفة ، ثم يتحدانى أن أرشده إلى مواقع هذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن إلى انه لن يتعرض لكثير من الحرج ، لأننى برغم علمى المستعار لم أكن ذا خبرة كافية للبحث في الكتب ، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التى تمكنتى من البحث عن مقرة في مجلد كبير ، مهما أكن متأكداً من وجودها فيه . . . وكنت من ناحيتى لذهماً إلى افتشاك في

ان النفس الشاب كان يعد إلى عين ما اتهم به قساوسنا من خداع وعدم امانة . وإلى اقتراف الفترات ليوسع لنفسه مخرجا من مازق اكرون قد اوقعته غبه !

\*\*\*

وبينما كانت هذه المجالات المعارضة حول التوائه مستهورة ، والوقت يمشى في نقاش . وتمتمة وصلوات . دون ما عمل . تعرضت لغياومة صغيرة مستهجنة ، اوشكت تمام ان تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لى ! ذلك انه ما من نفس خبيثة . ولا قلب همجى . إلا ولصاحبها ميل ما . وقد ساورت احد الشقيين اللذين كانا يزعمان انهما مراكشيان عاطفة نحوى . فكان مشغوبا بمقابعتى . لا يفتأ يكلمنى بلكنته الغريبة . ويؤدى لى بعض الخدمات البسيطة . ويهجننى في بعض الاحيان شطرا من غذائه . بل وكثيرا ما كان يقبلنى في حرارة كانت تغفلنى ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعى الذى كان يهملكنى من وجهه الاسمر المشوه بنديبة طويلة . ومن ملامحه التى كانت تبدو اقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف . غاننى كنت احتفل قبلاته . قائلا لنفسى : « لقد تملكك المسكين صداقة طاغية نحوى ، فمن الخطأ ان اصده ! » . ولكنه أخذ — بالتدريج — يستبجح لنفسه حربة متزايدة معى . وكان احيانا يعرض على اقتراحات غريبة ، جعلتنى اظنه مجنوننا . . . واراد فى إحدى الليالى ان يبيت معى . فرفضت قائلا ان سريرى جد صغير . وإذا به يلج على ان اصعبه إلى سريرى ، ولكنى رفضت من جديد . إذ كان الوغد جد قذر ، تنوع منه رائحة الطبايق الذى كان يمشقه . بحبت كانت نفسى تفشى منه !

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى كنا وحيدى فى غاعة الاجتماع . فشرع يعانقنى ويقبلنى فى حركات عنيفة لم تلبث ان اشارت خوفى . واخيرا . شاء ان يستبجح لنفسه ابشع تحرر معى . وأمسك بيدي محاولا ان يحلنى على ان استبجح نفس التحرر معه ! فارتبكت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مذلنا منه . ويدون ان ابدى غضبا أو حقنا — إذ لم تكن لدى انقه فكرة عما كان يسمى إليه — اعربت له عن دهشتى وازدراى بشكل جعله يتركنى حيث كنت . ولكنى رايت — بينما كان ماضيا فى إتفاء الحركات التى كان قد بداها — شيئا ابيض لزجا ينشق منه مندما فى اتجاه المدفأة ، ثم سقط على الأرض ، فاثار مظهر معدنى ، وانددعت إلى المشرقة وأنا اشد تالرا . واشد انزعاجا . واشد خوفا مما كنت فى اى يوم فى حياتى . حتى لقد شعرت اننى اوشك ان اقع مريضا !

ولم يكن بوسعى ان اتفه ما اصاب الشمس . بل اعتقدت انه اصيب بقوة من الصرع . أو بنوع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق اننى لا اعرف ما هو ابشع لدى اى شخص هادئ الاعصاب . من رؤية مثل هذا المملك المشين القذر ، ولا مثل تلك الملاح التى الهبها الشهوة البهيمية . . . وما رايت قط رجلا آخر فى مثل هذه الحال . ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء . فلا بد ان نظارتين نخضع لحر خاص ، يحبهين من ان يشارزن منا !

وهرعت لانى ، كل امرى ، بما جعلنى لى . ولكن انظر العجوز الموتى بان عقل اسائى !

قد أثرت عليها بدرجة كبيرة ، وسمعتها تتمتع : يا له من كلب  
لمين ! .. وحش كاسر ! .. ولما كنت لم أدرك الحكمة في أن  
أمسك لساني ، فقد مضيت في إخبار كل شخص بما حدث ،  
برغم أمرها « فاذأ بأحد المشرفين يفد في ساعة مبكرة من اليوم  
التالي فيوجه إلى تقريبا مقدما ، ويتهمني بالاساءة إلى شرف  
دار دينية ، وبإثارة ضجة حول حادث تافه ! .. ونسج  
محاضراته بحيث شرح لى أشياء كثيرة كنت أجهلها ، ولكنه لم  
يكن يصدق أنه كان يعرفني بها لأول مرة : إذ أنه كان مقتنعا  
باننى ما دأمت من نفسي إلا لأننى كنت غير راغب ، وليس  
لأننى لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشي منى ! .. ثم أنبأنى -  
برماسة - بأن ذلك العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق ،  
ولكن استهزاء ليس إهانة للشخص الذى يكون هدفا له .  
ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن اغضب من شخص اعتبرنى جديرا  
بالحبة ! وأنبأنى بوضوح أنه - هو نفسه - قد تقبل فى  
صفرة هذا الشرف حين عرض له ، وأنه عندما فوجئ به وهو  
في حال لا تمكنه من المقاومة ، لم يجد الأمر مؤلما في حد ذاته ! ..  
وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظا صريحة ،  
وأخذ - وهو يتصور أن مقاومتي كانت ناشئة عن خوف من  
الام - يطمئننى إلى أنه ليس ثمة داع للخوف ، وأنه ما كان  
لى أن أنزعج دون ما مبرر للانزعاج !

ورحت أصغى إلى ذلك التمس في ذهول ضائع منه أنه لم  
يكن يروى أمرا يخصه ، وإنما بدا أنه كان ينصحنى بما فيه  
الخير لى . كان الموضوع يتراءى له بسيطا إلى الدرجة أنه لم  
يحاول أن يقسّر أو يفكّم ، بل أن حديثا انساب إلى أذننى طرف

ثالث تهمل في رجل من رجال الكنيسة ، لاح أنه لم ينزعج هو  
الأخر من الأمر ! وأثرت على هذه الروح المتساهلة التى أبدت  
الأمر عاديا ، إلى درجة أننى اقتنعت بأنه - ولابد - عادة  
معترف بها في العالم ، وإن لم تتج لى فرصة الإلمام بها قبل ذلك  
الحين ! .. وكان من جراء ذلك أننى رحت أصغى بدون غضب ،  
ولكن اصغالى لم يخل من الاشمزاز . ولقد ظلت مسورة  
ما حدث لى - وما رأيته بوجه خاص - منطبعة في ذاكرتى  
إلى درجة أننى لا أزال أشعر بالتقزز كلما تملقتها ! .. وبدون  
أن أفطن ، امتد نفورى من الشيء إلى الشخص الذى كان  
يبرره . إذ لم يكن بوسعى أن أتمالك نفسى إلى الدرجة التى  
تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السيئ لدرسه في نفسى . ومن  
ثم رماني بظلمة كانت بعيدة عن أى ود ! ومنذ ذلك الوقت لم  
يدخر وسعا في أن يجعل إقامتى في المنزل مكروهة . ولقد وفق  
في ذلك إلى درجة أننى لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار ،  
تبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذى كنت أنتزع به  
حتى ذاك الحين لتفاديها !

ولقد أفضت هذه المغامرة بمناعة في المستقبل ضد محاولات  
« فرسان السكم » فكانت رؤية أولئك المتهمين إلى مذهبهم  
تذكرتى بمنظر وحركات المراكشي الرهيب ، فتوحى إلى دائما  
بجزع يعز على إخفاؤه ! ومن ناحية أخرى ، يبدو لى أن النساء  
ظفرن بكسب نفسي من جراء هذه المغامرة : إذ تراءى لى أننى  
مدين لهن بالمواطن اللطيفة وبالمجسمة كمنويش منى .  
يلحقه بهن أبناء جنسى من إهانات



تصبح في نظري أهلا للمعبدة ، إذا ما تذكرت ذلك الاثريقي الزائف !.. أما هو ، فلم ادر ما قيل له ، ولم يظهر لي أن احدا - فيما عدا السيدة لورينزا - بذل من شعوره السابق نحوه ! على انه لم يعد يلاحظني او يتحدث إلي . وبعد ثمانية أيام . تم تعميده في جلال عظيم . وسريل بالبياض من راسه إلى قدمه . رمزا لطهر روحه الثابتة ! وفي اليوم التالي غادر المنزل ، فلم اره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دوري بعد شهر ، فقد كان لابد من هذه المدة لاكيح لمرشدني شرف الفوز بهداية « كاتر » صعب المراس . واضطرت إلى أن اجتاز امتحانا مثلت فيه عن جميع التعاليم . حتى يشعني لهم أن يزدوها باستعراض علمي الجديد !

أما وقد تعلمت أخيرا - ما فيه الكفاية - وثم إعدادي بالدرجة التي ترضى أساتذتي . فقد اقتدت في موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنا الكبرى . لأعلن خروجي على عقيدتي أمام الملا . ولأطلق شهادات التعميد - وإن كنت لم اعد فعلا ، إذ كنت معبدا منذ مولدي - ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع في إيهام الناس بأن البروتستانتين ليسوا من المسيحيين في شيء !.. وارتديت يومذاك معطفا رمادي اللون . مزدانا بحفادع بيضاء ، كان مستخدم في مثل هذه المناسبات . وخف بي رجلان - من أمام ومن خلف - يحملان وعاءين من النحاس . أخذا يضربان عليهما بمفتاحين . فكان كل امرئ يلقى في هذين الوعاءين بما يتصدق به . تبعا لمتواه ولسدي اهتمامه بالمؤمن الجديد . وقصارى القول أن شيئا من مظاهر

عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يذخر . وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحلقة في نظر الناس . وأهمانا في إذلال نفسي . ولم يكن يقتصني سوى الرداء الأبيض . الذي كان يليق بي . والذي لم يسمح به لي كما سمح به للمراكشي ، لأنني لم أحظ بأن أكون يهوديا قبل انضمامي للكنيسة !

على أن هذا لم يكن كل ما في الاحتفال ، إذ اضطرت بعد ذلك إلى أن اذهب إلى ديوان التحقيق . لأتلقى قرار توبتي من جريئة الزندقة ، ودخولي إلى حظيرة الكنيسة في احتفال كان الملك عفرى الرابع مثلما فيه في شخص مسنود ! ولم يكن في مسلك قداسة الأب المحقق . ولا في مظهره . ما يحو الرعب الخفي الذي تملكني وأنا ألج الدار . وبعد عدة أسئلة عن عقيدتي ، ومركزي . وأسرتي ، سألني فجأة عما إذا كانت أمي ملمسونة !.. وحملني الذعر على أن اكبت أول مظاهر الاستنكار . واكتفيت بأن أجبت يائس أجرو على أن أرجو ألا تكون ملعونة . وأن يكون الله قد انار بصيرتها في ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب . ولكنه كثر عن ابتسامه لم يبد لي أنها من أمارات الرضى في شيء ! وعندما انتهى كل شيء . وفي اللحظة التي توقعت فيها أن يمدوني بالمال الذي يلانم أمالي . إذا بهم يشيعونني إلى خارج الأبواب وفي يدي ما يزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. وهي نتيجة الصلوات التي جمعت لي . وزودت بالنصح بأن أعيش مسيحيا صالحا ، وأن اظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لي حظا حسنا . وأغلقوا الباب دوني ، ثم بعد ذلك !

وهكذا تلاشت كل آمالي العظام في لحظة ، وكانت النتيجة الوحيدة التي خرجت بها من الخطوة التي اتخذتها ، وهي الشعور بانني كنت مرتدا عن ديني . وغرا مغفلا ، في آن واحد ! ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائي عندما رايت نفسي مقذوفا من حائق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع ! وبعد أن كنت - في الصباح - أطول التفكير في انتقاء القصر الذي أقيم فيه ، الفيتني في المساء مضطرا إلى أن أنام على قارعة الطريق . . . وقد يخطر بالبال أنني بدأت استسلم لشعور من القنوط . زاده قسوة ما انتابني من حسرة رحت معها اليوم نفسي لأن نحسي إنما كان من صنع يدي . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجيئا - لأول مرة في حياتي - أكثر من شهرين ، فكان أول ما انتابني هو شعور بالفرح لاسترداد حريتي . ووجدتني سسيد نفسي وتصرفاتي من جديد - بعد فترة طويلة من الاستعباد - في مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بغوى المكائنة الذين لا يمكن أن أخفق في أن أحظى بضيافتهم - حين أصبح معروفا - لما كان لي من خلال طليسة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا أمامي ، وكانت الفرناكات العشرية القابعة في جيبى تلوح لي كما لو كانت كنزا لا ينضب معينه ! كنت املك أن أنفقها كما أشاء ، دون أن أقدم عنها حسابا لأحد . وكانت هذه هي المرة الأولى التي املك فيها مثل هذا المبلغ . ومن ثم فيدلا من أن تثبط عزيمتي ، أو ينسلب دمي ، اكتفيت بأن عدلت آمالي ، دون أن يقد قلبى الطاهر شيئا من جراء هذا



London

ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائي عندما رايت نفسي مقذوفا من حائق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع

www.daralsharq.com

التعديل . . فما شعرت قط بمثل ما داخلني إذ ذاك من طمأنينة وثقة ، إذ اعتقدت ان حظي بات أمرا مقررًا . ورايت أن من البديع حقا ألا يكون لأحد - سوى - فضل في ذلك !

وكان أول ما فعلته هو ان سمعت لأرضاء نضولى إلى الطواف بالمدينة . ولو لمستمتع بهلاذ الحرية . . فذهبت لمساهمة تراسان الحرم . وهناك راقت لى الموسيقى العسكرية إلى درجة مبهدة . وتبعته المواكب ، فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التي كان يعزفها القساوسة . وسمعت لمساهمة قصر الملك . فاقتربت منه في رهبة وخشوع . حتى إذا رايت غيرة يلجونه . خذوت خذوهم . فلم يستوفنى أحد ! ولعلني كنت مدينا بهذه الخطوة للفاقة التي كنت أحملها تحت أبطى - وكيفما يكن الأمر . فأننى بدأت أقم وزنا كبيرا لنفسى عندما القيتنى في القصر . بل أننى بدأت أتبلل نفسى مقيميا فيه بالفعل . وما لبثت في النهاية أن سمعت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا . فولجت حائوت لبنان . وابتعت قسما من جبن « الجيونكا » (١) واللبن الرائب ، وشريحتين من الخبز البييمونثى البديع الذى أفضله على ما عداه . وبخس أو ست قطع من فنة « السم » حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التى تناولتها في حياتى !

وكنت مضطرا إلى البحث عن مأوى . وكان من السهل أن

(١) جبن « الجيونكا » نوع من الجبن الطازج الذى ينقل الى السوق في صير . كالجبين المعروف في مصر باسم « الفريش » .

اعثر على واحد . إذ كنت قد المت من اللغة البييمونثية بقدر يكفى من أن أجعل حديثى مفهوما . وكنت من الحكمة بحيث راعيت في اختيارى ما يناسب مواردى وليس ما يلائم ذوقى . فقد أنبت بان زوجة جندى في شارع « دويو » تأوى الخدم المتعطلين مقابل « سو » واحد في الليلة . وكان لديها سرير خل . فاستأجرته . وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج .

وإن كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل . . . ونمنا جيبما في غرفة واحدة : الأم ، والأطفال . والنزلاء . . . (وقد ظللنا على هذه الحال طيلة أقامتى عندهما ! . . ) وميمسا عدا ذلك كانت امرأة طيبة ، سبعة السباب كالحوزية ، تكشف دائما عن ثدييها . وتدع شمعها ممتسعا . على انها كانت شقوة القلب . بشوشا ، مالت إلى . بل كانت ذات نفع لى !

وقضيت عدة أيام مسلما نفسى لمباحج الاستقلال والفضول وحدهما . نجست خلال المدينة وخارجها . متحصلا كل مكان ، متأملا كل ما كان يبدو لى جديدا أو غريبا . وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شيء . لدى شاب غادر لفوره معتقه ، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت - قبل كل شيء - أتردد بانتظام على القصر . كما كنت حريصا على أن أحضر القداس الملكى في كل صباح . فقد رايت أن من البديع أن أكون في كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته ، ولكن شغفى بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا . وكان أكثر دفعا لى على الحضور المنتظم من الرواء الملكى الذى ما أن يرى بانتظام . ويغفر الناس حتى يفقد فنتته وطرافته . . . وكانت ملكة صابرة جدا في

ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين في أوروبا - وكان «سومي» و «ديجارادنه» و «بيسوتزي» هم بالتتابع نجومها اللامعين. وكان هذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صوت اسوا آلة موسيقية ، إذا كان المزف عليها سليما . وبجانب ذلك ، كان الإعجاب الذي أحسست به نحو المظلة والنفخة - اللتين بهرتا بصري - إعجابا خاليا من التعقل ، ولا يستحق أن يغبطني أحد عليه . وكان الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي في كل رواء البلاط الملكي هو أن أرى ما إذا كانت ثمة أميرة شابة ، جذيرة بتكريمي، وبأن اتصل بها في مفامرة غرامية!! . . . وكنت قد أوشكت أن أبدا مفامرة من هذا النوع « في وسط أقل رواء ، ولكنها مفامرة كنت خليقا بأن أجد فيها - لو أنني مضيت قدما - متعا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة !



ومع أنني كنت أعيش بأقصى درجات التقتير ، إلا أن كبسي بدا ينضب رويدا . ولم يكن اقتصادي في النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بساطة في الذوق لم يبدلها - إلى يومنا هذا - تعودى على أن أجلس إلى موائد عليا القوم . فما عرفت - بل ولا أزال بعيدا عن أن أعرف - ما هو أبهج من الطعام الرخيص . وفي وسع أي امرئ أن يطمئن إلى إكرامه لي إذا هو قدم لي بعض منتجات اللين ، والبيض ، والخضر « والجبن ، والخبز الأسمر ، وبعض النبيذ المتبسول . . . إذ أن شهيتي تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا في الوقت الذي لا ارتاح فيه إلى وجود كبير للسقاعة وعدد من الخدم حولي ، يحبطونني

بتكلفتهم المزعج ! وقد كنت في ذلك العهد أحظى بوجبات تتكلف ستة أو سبعة « سو » ، وتفضل ما اعتدت بعد ذلك أن أحظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات ! . . . كنت معتدلا ، لأنني لم أتعرض لأغراء يبعثني عن الاعتدال ، ومع ذلك فأنني أخطئ، حين أقول أنني كنت معتدلا ، إذ أنني كنت أحظى في الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة . كانت الكمثرى ، والجبونا ، وشرائح الخبز ، وبضعة أقداح من نبيذ «مونييرا» الكثيف الذي يستطيع المرء أن يقطعه إلى شرائح « تجعلني أسعد أكل ! ومع ذلك « فقد دنت نهاية فرنكاتي العشرين ، وكنت أزداد شعورا بهذا يوما بعد يوم « ومع ما كانت تتسم به سنى من خلو البال ، فإن قلتي من المستقبل سرعان ما أصبح جزءا حقيقيا ! ولم يبق لي من كل القصور التي كنت أشيدها في الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلا ميسورا . وفكرت في حرفتي القديمة ، ولكنني لم أكن أعرف منها ما يكفي لأن يفرى أي معلم على أن يستخدمني ، فضلا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين في ( تورين ) . وأخذت أنتقل من حائوت إلى آخر ، عارضا خدماني لحفر الشعارات والرموز على النقشة ، راجيا أن أغرى بعض العملاء برخص أجرى - ريثما يتاح لي عمل أفضل - بل أنني تركت لهم تقدير الأجر . ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت أطرد عادة ، فكان العمل الذي أظفر به من القسلة بحيث أنني نادرا ما كسبت ما يكفي لثمن وجبتين أو ثلاث ! على أنني لمحت ذات يوم ، وأنا أسير في ( كونترادا نونا ) في ساعة مبكرة ، امرأة شابة يدهني

خلال نافذة أحد الحوانيت - موفورة اللطف ، جذابة المنظر إلى درجة أنني - برغم حيائي من النساء - دخلت الحانوت دون تردد ، ووضعت مواهبى المتواضعة رهن إشارتها ؛ ولم تصدنى في جفاء - بل اجلسنى وسألتنى ان أروى لها سمرتى القصيرة - فلما تعلت أسمعنت على - وسألتنى ان لا ابتئس - لان المسيحيين الصالحين ما كانوا ليتخلوا عنى بالتأكيد - وبعد ان ارسلت إلى صائغ بجوارها في طلب الأدوات التى انياها بانها تعوزنى - ذهبت إلى المطبخ فاعدت لى بيديها فطورا .

ولاح لى ان البداية تبشر بالخير - فلم تكذب النتيجة حدسى ، إذ بدا على المرأة انها رضيت عن العمل الذى اتجزته ، وكانت أكثر رضاء عن ثمرتى المتواضعة - عندها اطمأننت قليلا إليها - فقد كانت ذكية - اتيقة اللبس - وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف ، فان مظهرها أوحى لى بالهيبسة والوقار - على ان كرم حفاظتها ، وصوتها الشفوق ، واختلاطها اللطيفة الدهشة - لم تلبث ان سمرت عنى كل تحفظ - فتبينت بدى توفيقى - مما ضاعف من هذا التوفيق - وكانت المرأة ايطالية ، ذات إغراء ودلال إلى حد ما - لكنها كانت في الوقت نفسه ذات حياء - وكنت من ناحيتى خجولا - حتى انه كان من العسير ان يؤدى الموقف إلى اى شىء أبعد مما جرى بيننا ؛ كما ان الوقت لم ينجح لنا كى ننتهى في المتسامرة - وإبنى لأذكر في أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التى قضيتها إلى جوارها ، ويوسمى ان أقول إننى - في بدايتها - تذوقت أحلى وانقى مباهج الحب !

(١) « كتاب » هنا يعنى موظف كتابى .

لا أجرؤ على أن اتطلع إليها . أو اتنفس بالقرب منها ، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها منى للموت . كنت ألتم بعين نهمه كل ما أستطيع أن اتطلع إليه فيها دون أن يلحظني أحد : الزهور التي تزين ثوبها ، وأطراف قدميها الرشيقتين ، ولحمة من ذراع بيضاء ، ملتفة ، كنت أراها بين تفازها وكهفها . . . وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمتدليل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى . . . وكانت عيناى تضطربان من النظر إلى ما كنت أراه . بل وما وراء ما كنت أراه . ويضيق صدرى ، فتزداد انفاسى تهيجا في كل لحظة . حتى لا أكاد أقوى على التنفس . بل يبدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفريات ملاحظة غير محسوسة ، كانت شديدة الإحراج لى في غمرة السكون الشامل الذى كثيرا ما كنا تلقى أنفسنا فيه ! . . على أن بدام بأزويل لم تكن - لحسن الحظ - تلاعد ذلك ، على ما كان يبدو لى ، لانهماكها في عملها . ومع ذلك نائننى كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا . وكأنها تشفق على . وكان هذا المنظر الخطر يفسدنى رشدى تماما ، حتى إذا أوشتكت أن أطلق العنان لانفعالاتى : قالت لى - بصوت هادىء - عبارة ما : ترد إلى إيراكى في الحال !

\* \* \*

ولقد رايتها عدة مرات في هذه الحال - ونحن وحيدان - دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحبل من المعانى أكثر مما ينبغي : أو ما يوحى بأنفه تفاهم بيننا . وكان هذا الجو -

على ما غيه من تعذيب لى - جد مستعذب . حتى أننى كنت لا أكاد لمذاجة ظبى أجد سببا لما كنت أحسن به من لوعة ! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هى الأخرى ، فانها - على أية حال - كانت تتيح الفرص لها بكثرة . . . وإذا تسامعنا عن النفع الذى كان هذا المسلك يحققه لها ، أو لى ، فمن المؤكد أنه كان على الأقل مسلكا خاليا من أى ضرر !

. . إلى أن كان ذات يوم . سئمت فيه المرأة الحديث السخيف الذى انطلق فيه الكاتب الدميم ، فصعدت إلى غرفتها . وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التى كنت أؤديها في الحجرة الخلفية بالحانوت ، ثم تبعتها . وكان باب حجرتها مواربا ، فدخلت دون أن يرانى أحد . وكانت هناك على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن يومسها أن ترانى ، ولا أن تسعنى - نظرا لجلبه العربات في الطريق - وكانت تحرص دائما على أناقة ملابسها ، لكنها في ذلك اليوم بالذات كانت قد امتنت في زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها - في انحنائه البسيطة - يكشف بياض عنقها . . . وكان شعرها معقوصا إلى أعلى في رشاقة . وقد ازدان بالزهور . وبالاختصار : كان يرين على توامها بأسره سحر أخذت أطبل تأمله حتى أخرجنى عن نجلدى ، فاذا بى أجتو على ركبتي لدى الباب ، وبأسط فراعى نحوها في حركات ملقاعة ، وأنا واثق من أنها لم يكن تسعنى ، ودون أن يخطر ببالى أن

بيد انه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشئت بى إليها ؛  
ولست أدري أى اثر أحدثته نوبة جنونى فى نفسها .  
فإنها لم تنظر نحوى ، ولم تنبس بكلمة وإنها لفتت رأسها لفئة  
صفيرة ؛ وبحركة بسيطة اشارت بأصابعها إلى الحصرة  
التي كانت عند قدميها . وكانت اللحظة تتطلب أن ارتجف . أو  
أصرخ أو أرمى بنفسى حيث اشارت . ولكن من العسير أن  
بصدق احد اثنى فى ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول أكثر  
من الاستلقاء عند قدميها . فلم أنبس بكلمة واحدة . ولا رفعت  
عينى إليها . بل ولا مسستها فى محاولتى المضنية كى أبتعد  
إلى ركبتيها لحظة .. ومع أننى عجزت عن الكلام أو الحركة .  
إلا أننى كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة . بل كان كل شيء  
يشى بانفعالى ، وفرحى . وعرفانى . ورغباتى الجائعة التى  
لم يكن لها هدف معين ، والتي كان يكبحها الخوف من استياء  
السيدة ، وهو أمر ما كان قلبى الشاب ليرتاح إليه ؛

وبدا أنها لم تكن أقل تأثرا ولا أقل خجلا منى .. وازعجها  
أن ترانى هناك ، وحرها أن تكون قد اجتذبتنى إلى ذلك المكان ،  
وبدأت تشعر بعواقب الإشارة التى صدرت عنها دون أن تتكر  
فيها التفكير الواجب .. ولكنها لم تقربنى إليها ، ولا هى  
صعدتني عنها ، فإنها لم ترفع رأسها عن الرقعة التى تطلزها ،  
بل حاولت أن تتصرف كما لو لم تكن ترانى عند قدميها ؛ على  
أن كل ما أوتيت من غباء ما كان ليهننى من أن استنتج أنها  
كانت تشاطرنى ارتباكى ، وربما رغباتى . وإنها كانت تكبح  
عواطفها بنفس الحياء الذى كان يدعنى إلى أن اكبح عواطفى ،  
وإن لم يساعدننى ذلك على أن اتغلب على هذا الحياء .. وإذ

كانت تكبرنى بخمس سفوات أو ست . فقد رايت أنها  
كانت خليقة بين تكون أكثر جراءة ، وقلت لنفسى إنها إذا كانت  
لم تفعل ما يوقظ جرأتى . فلا بد أنها غير راغبة فى أن أبدى  
أية جراءة من ناحيتى ؛ ولا أزال حتى اليوم أرى أننى كنت  
مصيبا ، وإنها كانت — بالتأكيد — من الذكاء بحيث غفلت إلى  
أن ناشنا مثلى كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب . وإنها إلى  
« تدريب » أيضا ؛

ولست أدري كيف كان لينتهى هذا المشيد الحافل الصامت ،  
ولا إلى أى وقت كنت ساقط دون حراك فى وضعى المستهجن  
الستعيب . لولا أننا فوجئنا بها قطع علينا الموقف ؛ ففى  
اللحظة التى بلغ فيها انفعالى عتفوانه ، سمعت باب المطبخ —  
الذى كان ملاصقا للحجرة التى كنا فيها — يفتح . فاستولى  
على مدام بازيل دعر جانح تجلى فى كلماتها وإشاراتنا وهى  
تقول : « انهض !.. ها هى ذى روزينا غادمة ! » . وأسرعت  
بالتهوض . ممسكا باليد التى بسطتها لى ، طابعا عليها قبيلتين  
ماتبيتين . شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضغط  
شغفى ضغطا خفيفا !.. ولست أغالى إذا قلت إننى لم استهتج  
فى حياتى بلحظة فى مثل حلالة تلك اللحظة . وغير أن الفرصة  
التي فقدتها لم تنسج قط مرة أخرى . وكف غرامنا الوليد  
عن النمو منذ ذلك الحد ؛ ولعل هذا هو عين السبب فى أن  
صورة تلك المرأة اللطيفة ظلت مطبوعة فى اعماق قلبي بهذا  
الشكل الفاتن . بل إنها ازدادت جلا بلذوقا مهريلا بالندى  
والنساء . ولو أنها كانت قد أوفت بوعدها

الخبرة ، لأدمنت على تصرف مخالف . كى تشجع فتى مثل الذى كنته ! . ولكن ، لئن كان قلبها قد أوشك أن يضعف فى تلك اللحظة ، فانه كان فى الواقع مستقيما . وما انسلت لهيل الذى جريها إلا على غير إرادة منها . فكائن هذه - على ضوء كل المظاهر - أول خيانة تفكر فيها ، ولعلنى كنت خليفا بأن أجد فى مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت القاد فى مغالبة حياتى ! على أننى . دون أن أذهب إلى ذلك المدى ، كنت أجد فى وجودها سعادة لا توصف . وما عادل شئ من المشاعر التى يخلقها نبل النساء . تلكا الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمى هذه المرأة دون أن أجسر على مجرد لمس ثوبها ! . لا . ليست هناك متعة تعادل تلك التى تستطيع أن تنتجها امرأة ناضلة بحبها المرء ! . إن كل شئ يفقد جويلا فى صحبتها . . ولقد كانت إشارة من أصبع . ويد التصقت خفيها بفتى ، وهما كل النعم التى حظيت بها من مدام بازيل . ولا تزال ذكرى هذين الرمزتين البسيطتين تفتنى كلما فكرت فيها !

وعينا حاولت - فى اليومين التاليين - أن انتهر فرصة لخطوة أخرى . فقد استحال على أن أجد هذه الفرصة ، ولم لاحظ أى حرص من جانب مدام بازيل على أن تقيحها . ومع أن مسلكتها لم يصبح أقل فتورا عن ذى قبل . إلا أنها صارت أكثر تحفظا من المعتاد . واعتقد أنها كانت تتقادى نظراتى خفية أن تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية ! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلا من أى وقت مضى ، سببا وقد مضى يمزح ويداعبنى قائلا إننى خليق بأن أجد حظسا لدى

السيدات ! وكنت أرتجف كلما فكرت فى أننى ربما كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك أعتبر أن ثمة تافها بينى وبين مدام بازيل . فقد رعبت الآن فى أن اتكتم الميل الذى لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل ، فجلعننى ذلك ازداد جذرا فى تحينى الغرض لإرضاء هذا الميل . ومن فرط حرصى على أن تكون هذه الغرض مطمونة ، تعذر على أن أعثر عليها إطلاقا !

وكائن هذه نزوة غرامية أخرى ، لم يقدر لى قط أن أبرأ منها ، وقد استنطاعت باقتوائها بحياتى الطبيعى أن تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب ! . . . فقد كنت من الصدق فى حى بدرجة أجرو معها على القول بأنها لم تكن لتمككنى من أن أسعد بسهولة . فما كانت المواعظ يوما أشد توشيا وأظهر طبيعة مما كانت لدى . ولا كان الحب يوما أرق ، وأصدق . وأبعد عن المصلحة مما كان عندى ! . . . كنت على استعداد لأن أضحي بسعادتى لك مرة من أجل سعادة المرأة التى أحبها . كانت سمعتها أعز لدى من حياتى ، وما كنت لأرجو البقاء أن أعرض طمانينتها لحظة واحدة لأى خطر ، فى مقابل كل المياح والمتع ! وقد حملنى هذا الشعور على أن أسرف فى الحذر والتكتم والحيلة فى مقامراتى ، إلى الحد الذى لم يقدر عنده لأى منها أن تشجع ! . . . وما كانت حاجتى إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائما من حى العارم لهن !

\*\*\*

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم ، عزف الذخيرة التى أتركها فى أمر هذا العاقر أنه كلما ازداد غنى طالع ، زاد فقر لطفنا



وايناسا ! .. وكانت مخدومة - منذ اليوم الأول الذى مالت فيه إلى - قد نسكت في أن تجعلنى نائما في الحانوت . وكنت أجيد الحساب . فاعتجرت عليه أن يعلمنى كيف أمسك الدفاتر التجارية . ولكن الجلف تلقى الاقتراح في امتعاض . لعل يبعثه أنه خشى أن يزحزح عن عمله ! ومن ثم فقد كان كل عملى - إلى جانب حفر المعادن - يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات . وتصحيح بعض الدفاتر . وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية . ونجاة ، عن صاحبه أن يمسود إلى الاقتراح الذى سبق له أن رفضه . نغلوغ لتعلمى الفيد المزدوج (١) . وقال إنه بات راغبا في أن يجعلنى كفتا لأن أتقدم بخدمائى إلى السيد بازيل عند عودته . وكان في صوته ومسلكه شيء من الزيف والحقد والسخرية ، لم يوح إلى بالطمأنينة ! ولم تنتظر مدام بازيل حتى أجيبه ، بل قالت له في برود إننى شاكر له طوعه . وإني تأمل أن يجازينى القدر في النهاية عن طيب صفائى ، وإنه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو اننى لم أغد - برغم كل مواهبى - أكثر من « كاتب » مثله !

وكانت السيدة قد أخبرتنى : في عدة مناسبات ، بأنها راغبة في أن تقدمنى إلى شخص قد يستطيع أن يساعذنى . وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كى نفترق ، إذ أن اعترافنا الصامتة بالحب وقعت في يوم الخميس ، فلما

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية في الجانب الدائن والجانب المدين : « منه » و « له » .

كان يوم الأحد التالى . اقامت مأدبة عشاء كنت ممن حضروها . وكان بين الضيوف راجب من المذهب « اليعقوبى » . حسن الطلعة . قدمتنى إليه السيدة : نعاملنى بحفاوة بالغة . وهنأتى بانضوائى تحت لواء الكفلكة . وحفنتى عن حياتى بطريقة تمت لى عن أن السيدة قد افضت إليه بتفصيلاتها . ثم تصحنى - وهو يريت على خدى بظهير يده في ود - بأن أتصرف بما يليق بكرامتى : وبأن أكون قوى الجلد وشجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط في الحديث معسا . وأدركت من الاحترام الذى كان كل امرئ يبدئه له : أنه رجل ذو مكانة . كما أدركت من اللهجة الأبوية التى كان يوجه بها حديثه إلى مدام بازيل ، أنه الراهب الذى نفضى إليه باعترافاتها ! كذلك أفكر ان الألفة البالغة التى كان يبدئها نحو نائبته (١) كانت مشوية بمظاهر التقدير ، بل والاحترام : الأمر الذى لم يدهشنى إذ ذاك قدر ما يدهشنى الآن . ولو أننى كنت أذكرى بما كنت إذ ذاك : لكنت خليقا بأن آتبه فخرأ لجرد التفكير في أننى استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذى كان يتلقى اعترافاتها !

ولم تنصع المائدة لفا جيها ، نرؤى إضافية مائدة أخرى صغيرة : كان من حظى أن جلست إليها : مواجبا للكاتب ..

(١) تقضى التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعرف الشخص الى من الكمية التى يتبعها ، فيضله أكثر ويحب من أجله ، ويكون خيرا .

ولم أخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو اللطف ، فقد نقلت عدة صحائف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبي هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شيء يسير كما ينبغي حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروببات . والرجال مرهني الانتباه . وكانت مدام بازيل تدعو إلى الأنخاب في نهاية غاتنة . وفي منتصف العشاء . وقفت عربة بالباب ، وأقبل شخص بصعد السلم . . . وكان القادم هو السيد بازيل . واني لأتهلله الآن بنفس مسورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا ازرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفد منه ! وكان طويلا . مليحا . حسن المظهر . وأقبل في جلبة : شأن الرجل الذي يغاجي ضيوفه ، برغم أن الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . وألقت زوجته ذراعها حول عنقه ، وراحت تضغط يديه ، وتضفي عليه ألوان الفزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون أن يلتفت . وحبا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام .

ولم يكد الضيوف يشعرون في الحديث عن رحلته . حتى وجه عيني نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل في صوت جاف عن يكون الثمن الياض الذي رآه جالسا إليها ، غرقت له مدام بازيل كل شيء في بساطة ساذجة . فتساءل عما إذا كنت أقيم في الدار ، فاجبت بالنفي : وإذا ذلك قال بصوت أجش : « ولم لا ؟ » . مدام بقضى سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل . - وأمسك الراهب بزمام الحديث ، وبعد أن تحدث عن مدام بازيل بعبارات الإطراء المخلص الصادق ،

ذكر بضع كلمات في امتداحي ، وأضاف قائلا للزوج إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة في العمل الخيري الذي أدته زوجته الصالحة . بدلا من أن يلومها عليه ، فليس في هذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . ولجاب السيد بازيل في لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشيء ، احتراما لوجود الراهب ، ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أثمر بانه تلقى انباء عني ، وأن الكاتب قد دس لي لديه !

وما أن انتهت المائدة . حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقد أوفده مخدمه ليدعوني - بأمره - إلى أن أبارح البيت فوراً . فلا أضع فيه قدمي بعد ذلك ! وحشا رسالته بكل ما كان كميلا بأن يجعلها قاسية مهيبة . فأنصرفت بدون أن انبس بكلمة ، ولكن بقلب طعين . لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة اللطيفة ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش . . . ولا مساء في أنه كان علي حق في رغبته أن لا تخونه زوجته . ولكنها كانت - برغم ذكائها وحسن تربيتها - إيطالية الأصل . أعني أنها كانت مقطورة على الحس المرهف وحبي الثأر . ويلوح لي أنه كان مخطئا إذ عاملها بالكره الطرق قابلية لأن تجلب عليه ما كان يفشاه من نحس !

هكذا كانت نتيجة مغامرتي الغرامية الأولى . ولم اغفل أن أمر بالشوارع مرتين أو ثلاثا ، على أمل أن أرى - على الأقل - المرأة التي لم يكن قلبي يكف عن التحسر عليها . ولكني رايت - بدلا منها - الزوج والكاتب المقربص الذي لم يكف يلمحتي حتى أشار نحوى بالشتم مخدمي الذي استخدم لقياس الياردة : إشارة كانت نذرا

التيديد ! وإذ تبينت أن الرقابة شديدة ، فترت عزيمتي ، ولم أمر بالحنوت مرة أخرى . ولقد رغبت في أن أسعى إلى الراهب الذي كانت مدام بازيل قد هدتني إليه . ولكني لم أكن أعرف اسمه . لسوء الحظ - تطوفت عدة مرات بالدير آملا في أن أصادقه . ولكن دون ما توفيق . وأخيرا : عشت أحداثا أخرى على ذكريات مدام بازيل البهيجة . فلم ألبث أن نسيتها تماما بعد وقت قصير . . من إنني - لسذاجتي وحداثتي - لم أعد أحس بميل إلى الجميلات !

على أن كرم مدام بازيل زود صوان ثيابي إلى حد ما . وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذي تتصف به المرأة العاقلة التي تنكر في نظافة الملابس أكثر مما تنكر في زينة ، مما ثم عن أنها كانت تبغى أن تصوفني من الجوان . لا أن تزينني . وكانت الثياب التي حملتها معي من جنيف لا تزال صالحة للارتداء ، ومن ثم فأنها لم تضاف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية . ولم تكن عندي تقاليد ، ولكنها أتت أن تمنحني شيئا منها . ورغم أنني كنت جد تواق لذلك - فقد كانت قانعة بأن تجعلني في وضع يمكنني من أن أحفظ بنفسى نظيف الملابس والمظهر ، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصيني بالاهتمام به . عندها كنت معها !

وبعد أيام قلائل من طردى من الحانوت . أنبأتني صاحبة البيت الذي كنت أقيم فيه - وقد ذكرت أنها مالت إلى - بأن من المحتمل أن تكون قد وجدت لى عملا . فإن سيدة ذات مكانة قد رغبت في أن تراني . وعند هذه الكلمات : ظننت أنني أصبحت فعلا وسط مقاربات راقية ، إذ كان ذهني يدور دائما

حول ذلك . على أن المخابرة في هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسى ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذى حدثنا عنى . فسالتنى وامتنعتنى ، ولم أخيب رجاءها . فالتحقت بخدمة لفورى ، لا فى مركز مقرب لديها ، وإنما كخادم يرتدى الزي الخاص بخدمة ! وكان الفارق الوحيد بينى وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون انشوطات على اكتافهم (١) ، أما أنا فلم أكن أفعل . . ولما كانت ثياب خديها لا تزدان بشيء من الوشى . فأنها كانت تبدو كالآرياء العادية . . وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لأمالى العظام !

وكانت « الكونتيسة دى غريسيلى » - التى التحقت إذ ذاك بخدمة - أرملة بلا ولد ، وقد كان زوجها من أبناء « بيبمونت » . وكانت دائما أخالها من إقليم « سافوا » . فمما كنت لأصق أن بين أهل « بيبمونت » من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة . وكانت فى أواسط العمر ، ذات منظر ممتاز ، وقد أوتيت ذهنا منقفا . وكانت مولعة بالأدب الفرنسى الذى كانت على دراية واسعة به . كما كانت تكثر من الكتابة . وبالفرنسية دائما . وكانت لرسائلها روح - بل وروعة ، رسائل « مدام دى سيفينييه » ، حتى أن بعضها يخال المرء من تلم هذه الأخيرة . وكان عملى الرئيسى من نوع لم أكن أكرهه . إذ كنت أكتب لها ما تطلبه على من هذه الرسائل . فقد كانت مصابة بسرطان فى المعدة . يكبدها الآلام عظيمة تجعل من المستحيل عليها أن تكتب بنفسها !

ولم تكن مدام دي فيرسيللى ذات فكاه عظيم . ولكنها ارتيت  
روحا قوية عالية . وكنت معها أثناء مرضها الأخير . نشهدتها  
تتعذب وتموت دون أن تبدي بادرة من بوادر الصعف . ولو  
لحظة واحدة . دون أن يبذل أقل جهد في السيطرة على نفسها ،  
أو تفعل شيئا لا يليق بامرأة . بل ودون أن يخطر ببالها أن  
مسلكها كان مثالا للفلسفة . وهى كلمة لم تكن قد أصبحت  
شائعة . ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم .

وكانت قوة شخصيتها هذه ، تملأ في بعض الأحيان حتى  
تصبح برودا ! . . كانت تبدو لى دائما وكأنها لا تكن من المشاعر  
لسواها قدر ما تكن لنفسها . وعندما كانت تبدي كرما لى  
نفس ، فإنها كانت تصدر في ذلك عن رغبة في إثبات الخير  
والعمل الصالح . أكثر منها عن شعور حقيقى بالصعقة . لقد  
خبرت هذا القصور في شعورها - إلى حد ما - خلال الأشهر  
الثلاثة التى قضيتها معها . ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها  
قد رت شبابا ذا مواهب ، كانت تراءد أمامها باستمرار ، فإذا  
ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت في أنه قد يصبح بعدها في حاجة  
إلى المعونة والمساعدة . . ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك .  
إما لأنها لم تعتبرنى أهلا لرعاية خاصة « أو لأن الذين كانوا  
يحيطون بها لم يتحوا لها أن تفكر في سواهم !

على اننى أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف  
قصتى . فكانت أحبانا توجه إلى أسئلة ، وتحب أن أريها  
الخطابات التى كتبت أكتبها إلى مدام دي ناران ، وأصف لها  
بشاعرى . على أنها لم تسلك - بالتأكيد - الطريق الصحيحة

للتعرف على هذه المشاعر : إذ أنها لم تبج لى قط بشيء من  
بشاعرها الخاصة ! وكان قلبى يحب أن يكشف عن دخيلته  
على شريطة أن يطمئن إلى أنه إنما يفضى بسريره إلى قلب  
آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التى لا تنطوى على بادرة  
من رضاء أو لوم إزاء إجاباتى ، فلم تكن توحى إلى بشيء من  
الفقه . وعندما كنت لا أرى ما يتم عما إذا كان حديثى يرضيها  
أو يضايقها . كنت أشعر دائما بجزع . . . على اننى لاحظت .  
منذ ذلك الحين . أن هذه الطريقة الجافة في توجيه الأسئلة إلى  
الناس للتعرف على شخصيتهم ، حيلة كثيرا ما تعتمد إليها  
النساء اللواتي يرغبن في أن يبدون ذكيات بارعات . فهن  
يظن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا في الكشف عن  
مشاعرك أنت ! ولكنهن يخفن في أن يرين أنهن بهذا العمل  
يجردنك من الجراءة على هذا الكشف ! . . والرجل إذا ما سئل :  
مادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده . وإذا اعتقد أن  
سأله أنها يريد أن يحملها على الكلام فحسب : دون أى اهتمام  
حقيقى بأمره . فإنه إما أن يعمد إلى الكذب ، أو إلى حجب  
لسانه ، أو بضائع من حيلته ، مفضلا أن يظن أنه أحق عن  
أن يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول : إن المرء إذا رغب  
في قراءة قلوب الآخرين ، فإن من سوء السياسة أن يظهر أنه  
يخفى ما في قلبه !

ولم يحدث لمدام دي فيرسيللى أن باحت لى قط بكلمة تعبر  
عن ود ، أو شفقة . أو عطف . وإنما كانت توجه إلى أسئلة  
بلهجة باردة . فأجيب عليها بتحف . . .

تبدو لها تافهة مضجرة . وما لبثت في النهاية أن كتبت عن  
الامثلة ، ولم تعد تكلمني إلا لتصدر لى أوامرعا ! كانت تحكم  
على في ضوء ما تمنعني إليه بمسلكها . وليس في ضوء ما كنته  
.. وما رأت في خط سوى مجرد خادم . فكأنتم تمنعني من أن  
أبدو في غير شخصية الخادم .. واعتقد أنني منذ ذلك الوقت  
أعاني من خبث هواية التآمر في الخفاء التي تمنعني إلى  
الانحراف . والتي أوجت إلى بنفور طبعي جدا من الأوضاع  
التي خلقت هذه الهواية . وكان وربث مدام دي غريسيلى -  
التي كانت بلا ولد - هو ابن أخيها الكونت « ديلا روك »  
الذي كان مثابرا على التقرب إليها . وفضلا عن ذلك . فإن  
رؤساء خدمها - الذين راوا نهايتها تدنو - لم يفعلوا  
مصلحتهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بها كثيرون ممن يظفرون  
الوغاء لخدمتها ، فكان من المعسير عليها أن تفكر في شخصي .  
وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى السيد لورنزي ،  
استطاعت زوجته - التي كانت تنوّه ذكاء - أن تتلقى مولانها  
وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة  
أكثر منها الخادم الاجرة . وقد استطاعت بذلك أن تظفر لابنة  
أخيها بمنصب وصيفة السيدة ! وكانت ابنة الأخ مخلوقة  
ماكرة . تدعى الأنسة بوتال ، تجيد الظهور بمظهر وصيفة  
الشرف ، وبذلك وفقت إلى مساعدة عماتها في التقرب إلى  
السيدة . فلم تعد هذه ترى إلا بعيون الانتبين ، أو تعمل إلا  
بأيديهما ! ولم يكن لى حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة -  
السيد لورنزي وزوجته وابنة أخيها - فقد كنت أطيعهم ولكني

لم أخدمهم . إذ لم أظن إلى أنني - بجانب خدمة مخدومتي  
المشتركة - كنت مضطرا إلى أن أكون خادما لخدمها ..  
فضلا عن أنني كنت من ذلك النوع من الخدم الذي يثر قلعهم .  
إذ راوا بوضوح أنني كنت في غير المكان الذي استحقه . فكانوا  
يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها ، وإن تعود - كي تضعني  
في المركز اللائق بي - إلى إجراء قد يقلل من حظهم من  
مالها .. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم في العادة أشد جشعا  
من أن يكونوا منصفين . وقرأهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم  
وكانتها حق استلب من مالهم الخاص ! ومن ثم فأنهم تأهروا  
على إقصائي عن بصر السيدة . ولما كان غراهم يكتبها  
الرسائل تد صار بمثابة تسلية لها في ضعفها الصحي . فأنهم  
أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن الماضي  
فيها مستعنيين بنصح طبيبي . وبالتنبيط بن عزيمتها بزعم أنها  
عملية جد مرهقة لها ! .. ثم صوروا ليسا أنني لم أكن أنهم  
واجبي : وبذلك أقتنعوا بأن تعين في مكاني خادمين لزمين .  
كي يحملوا مقعدها ! وبإيجاز . فأنهم تعمدوا - ببراعة - أن  
لا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام . هي الفترة التي كانت أثناءها  
تعد وصيقتها ! ومن الصحيح أنني بعد هذه المدة عدت أدخل  
غرفتها كهيدي من قبل . وأخذت أبدى لها من الاهتمام فوق  
ما كان يبعيه أي شخص سواي . إذ أن الآلام التي كانت  
تعاينها المسكينة أخفت شوق قلبى ، والجلد الذي كانت تتحملها  
به أوحى إلى بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة ..  
حتى أنني كثيرا ما كنت أترك دموعي الأسى مسالا في قرأتي .  
نون أن يراني أحد !

وأخيرا فقدناها .. ورايتها تجود بآخر أنفاسها . وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية . فانها ماتت ميتة الفلاسفة . وبوسعى أن أقول إنها الهمتني تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية : بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها ، دون إهمال أو تصنع . كانت في الواقع ذات طبع حاد : وقد أخذت تبدي - في نهاية مرضها - نوعا من الانسراح الذي كان انظلمه يوحى بأنه غير حقيقي . فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل . ومع أنها لم تلزم فراشها إلا في اليومين الآخرين . إلا أنها ظلت تتحدث في هدوء مع كل امرئ حتى النهاية . وأخيرا . لم تعد تتكلم ، ولكنها في نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : « حسنا ! .. إن المرأة التي تستطيع أن تطلق الفئران من أمانها ، لا تموت » .. وتقلبت في فراشها . وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها !

.. ولقد تركت لصغار خدبها أجور عام كامل . أما أنا فلم أطلق شيئا ، لأنني لم أكن في قائمتهم! على أن الكونت ديلا روك أمر بأعطائي ثلاثين ليرة (١) : كما ترك لي السريرة الجديدة التي كنت أرتديها ، والتي أراد السيد لورنزي أن يأخذها مني ! بل إن الكونت تكرم غوعد بأن يحاول إيجاد عمل لي . وإنني لم أكن أذهب لأراه . وقد ذهبت مرتين أو ثلاثا ، دون أن أتمكن من

(١) الليرة : عملة قديمة كانت قسيتها جباين بيتاين الأزمان والأماكن . وقد أطلق الاسم على « الفرنك » في بعض الأوقات .

التحدث إليه . ولما كنت بريمع المقنوط : فانني لم أذهب بعد ذلك . ولسوف يتبدى - بعد قليل - أنني كنت مخطئا .

وليتنى كنت استطيع أن أنهي ، عند هذا القدر . كل ما لدى من قول عن فترة إقامتي لدى مدام دي غريسيلى ! .. لكن الواقع أنني لم أبرح الدار كما دخلتها . وإن ظلت حالي كما كانت . لقد حملت معي من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعبئا لا يطلق من القدم ، لا يزال يثقل ضميري برغم مرور أربعين عاما ! وبدلا من أن تزداد مرارته ضعفا ووهنا ، إذا بها تقوى وتشتد كلها تقدمت بي السنوات : فمفذا بصدق أن غلظة صبيانية تؤدي إلى مثل هذه التبعات القاسية ! التبعات التي كانت أقدح مما يخطر بالبال . والتي لا يجد قلبي عزاء من أجلها ! .. ذلك أنني تسببت في دمار حياة لطيفة ، شريفة ، جديرة بالتقدير - بل كان من المؤكد أنها تفوقني جدارة - إذ دفعت بها إلى الخزي والنعاسة !

وإليك القصة : إن من الأمور التي لا مناص منها : أن تغير نظام بيت من البيوت خلقك بأن يحدث شسيفا من الفوضى في البيت : فتمضيح أشياء عديدة . ومع ذلك فإن الخدم في دار تلك السيدة كانوا من الأمانة - كما كان لورنزي من اليقظة - بحيث أن شيئا لم يفتقد من دار مدام دي غريسيلى عندما أحصى ما كان غيبا . ولكن حدث أن الأتيسة « بونفال » فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضي . ولقد كانت تحت يدي أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة في القيمة . فبحسب أني كنت أعثر على التي أغرقتني ، فسرقتها ! ولما كنت لم أحشم نفسي

إخفاؤها ، فانها سرعان ما وجدت . . وشاعوا ان يعرفوا كيف آلت إلى حوزتي ، فاذا بى ارتبك . واثقتم . وإذا بوجهن يتخرج . . ثم قلت - فى النهاية - إن « ماريون » اعطيتها ! وكانت « ماريون » شابة من ( موريين ) اتخفتها مدام دى فيرسيللى طامية لها عندها كمت عن إقامة اللواتم فسرحت طاميتها واصبحت تكتنى بالصاء الجيد عن الأطعمة الشهية . ولم تكن « ماريون » هذه رفيقة نصيب . بل كانت ذات لون حاضر ، لا يوجد إلا لدى اهل الجبال . كما كانت تصف - فوق كل شيء - بنوع من اللطف والتواضع . يستحيل معه على من يراها ان لا يحبها . . ثم انها كانت فتاة طيبة . ورعة . لا جدال فى أمانتها . لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها ! وكان كل منا موضع ثقة ، لذلك كان من المهم ان يبينوا من منا اللص الحقيقي ! ومن ثم استدعيت . واجتمع نفر من القوم . بينهم الكونت ديلا روك . وعندها قدمت . عرض عليها الشريط . . واثبتها فى جرافة . فبهتت . ولم تقو على ان تنبس ببنت شفة ، وانما اكتفت بان رمقتى بنظرة كانت كثيلة بان تجرد إيليس ذاته من أسلحته . ولكن قلبى البيى كان منيعا دونها ! وأخيرا . انكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة ، ولكن دون غضب . وخاطبتنى فنادتنى ان أفكر ، وألا أشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بى أى اذى . ولكنى أصررت على قصتى ، فى قحة شيطانية . واعلنت فى وجهها انها هى التى اعطتني الشريط . . فصرعت المسكينة تيكى . ولم تغفل سوى : « آه ! كنت اظنك رجلا طيبا يا روسو . إنك تشقىنى

كل المشقاء . ولكنى لا أتمنى ان أكون فى موقتك ! » . . وكان هذا كل ما عندها لى ، فقد راحت تدافع عن نفسها فى بساطة وحزم . دون ان تسمح لنفسها بان توجه إلى اقل تانيب أو لوم ! وادى هذا الاعتدال - بالقياس إلى لهجتى الجازمة - إلى ضررها . فما كان من الطبيعى ان تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبى . بوداعة ملائكية من جانبها ! ومع ان المسألة لم تسوئها ، إلا انه بدا أنهم جميعا مالوا إلى جانبى . ولكنهم لم يضيعوا وقتهم فى التعقب فى المسألة . فى غمرة الفوضى التى كانت تسود الدار ، واكتفى الكونت ديلا روك - وهو بفصلنا معا من الخدمة - بأن قال إن ضمير المذنب خالق بأن يثار للبرء . . . ولقد تحققت نبوءته ، بل إنها لتتحقق فى كل يوم !

ولست أدري ما جرى لضحية اتهامى الزائف . ولكن من غير المحتمل انها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حبلت معها وصية لطخت شرفها بقسوة من كل النواحي . لقد كانت المارقة طفيفة فافهة ، ولكنها كانت - برغم ذلك - سرقة ! ومما زاد الطين بلة أنها ارتكبت لأغواء شاب . . ثم إن الكذب والعناد لم يخلغا شيئا يرنجى من شخص اجتمعت فى نفسه كل هذه الرذائل ! بل إننى لا أظن ان التعاسة والنبد هما اعظم الأخطار التى تسببت بفعلتى فى تعريض الفتاة لها . فان المرء لا يستطيع ان يترى مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة ، فتاة مثل سيبيا . . . إذا كان شعورى بالندم لا يطاق ، لخص

تعبه - غفى وسع المرء أن يقدر ما يخالفنى من شعور إذ أتصور اننى قد اكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير !

إن هذه الذكرى تنقض راحتى وتهمنى فى بعض الاوقات ، إلى درجة تجعلنى أخال - فى ساعات السهاد - أن الفتاة المسكينه مقبله لتلومنى على جرمى ، وكأننى ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! وبخلاف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش فى هدوء ودعة . ولكنها فى غمرة الحياة الصاخبة تسلبنى لذة العزاء . وتجعلنى أحس بما أذكر اننى قلته فى أحد كتبى من أن « الندم بهجع عندما تكون حفوظنا فى ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا فى أوقات النواثب » . ومع ذلك فأتقن لم أقو البتة على أن أحمل نفسى على أن أفضض عن صدرى ، بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائى . . . فإن أوتق الود لم يصل بى يوما إلى هذا الحد مع أى امرئ . حتى مع مدام دى فاران . كل ما استطعته هو أن اعترفت بأن على أن ألوم نفسى على عمل فظيع . ولكنى لم أنصح إطلاقا عن كتبه . ! ولقد ظل هذا العبء يثقل ضميرى إلى اليوم ، دون أن نخف وطأته . وإنى لأذهب إلى حد التاكيد بأن الرغبة فى الخلاص منه - إلى حد ما - ساهمت بدور كبير فى إقدامى على كتابة هذه « الاعترافات » !

لقد كنت صريحا أميناً فى الاعتراف الذى ذكرته ، وليسوف يتضح بالتأكيد اننى لم أحاول أن أخفف قتامة جرمى . ولكنى لا أحقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا أنا لم أعرض - فى الوقت ذاته - أعمق مشاعرى الدقيقة ، وإذا أنا ترددت فى

أن أبرز نفسى : بحقائق محزنة صادقة : فيما كانت النية الخبيثة بمنأى عنى فى أية لحظة . بقدر ما كانت فى تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب - ولكن من الصحيح أيضا فى الوقت نفسه - أن صداقتى للفناء التعبه كانت هى السبب فى اننى اتهمتها . . . ذلك أنها كانت مائلة فى خاطرى ، فلم أر بدا من أن ألقى اللوم على أول شخص تقفز إلى فكرى - فاتهمتها بفعل ما كنت أعترم فعله . . . اتهمتها بأنها أعطينى الشريط ، لأننى كنت أعترم أن أعطيها إياه ! فلما رأيتها أمامى - بعد ذلك - تعزق قلبى . لكن وجود كل ذلك العدد من الناس كان أقوى تأثيراً على نفسى من التوبة . . . وما كنت خائفا من العقاب . وإنما كنت خائفا من العار . فقد كنت أرحبه أكثر من الموت . وأكثر من الجريمة . وأكثر من أى شيء ، آخر فى الدنيا ! . . . وكنت أعطيها لو أن الأرض انشقت فجاءت فابتلعتنى وخفقتنى ! وهكذا تغلب الخوف الطاغى من العار على كل شيء . فلم يزدنى إلا قحة . . . إذ أن ازدياد إجرامى ، وازدياد تقورى من الاعتصاف . أدباً إلى انعدام خوفى من الافتراء ، فما عمت أرى أمامى - إذ ذاك - سوى بشاعة الفضيحة . وهتك سترى اللبلا . فى حضورى . باعتبار اننى لصر . . . وكاتب . . . ومفكر . . . ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردنى من كل شعور سواء . ولو أنهم أتاحوا لى فرصة استرد فيها رباطة جأشى ، لما كان ثمة ريب فى اننى كنت أعترف إذ ذاك بكل شيء . . . لو أن السيد ديلا روك انتحى بين حائلا ، وقال لى : « لا تقصد على هذه الفتاة أن تدفعه جديداً » . . . إذ كنت مخفياً فاعترف لى ، « لآليت قد تمسكت به » .



إني لم أقتن شيئا من ذلك ! ولكنني حين انتفضحت التشجيع ، لم ألق منيما سوى الأرمباب !

ثم إن الانتمصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سني .  
نقد كنت يومئذ أقرب إلى الطغولة منى إلى الرجولة - والجرائم  
الحقيقية تكون في الصغر أكثر انتمصافا بالإجرام منها في الكبر ،  
أما الجرائم التي لا تعدو أن تكون نزوات مبعثها للضعف . فلا  
تكون في الواقع ناجمة - لدى الصغار - عن روح إجرامية .  
ومن ثم فإن العمل الذي ارتكبته لم يكن - في جوهره - أكثر  
من « مخالفة » . . . وهكذا فإن ذكرها لا تتركبني لما فيها من  
شر ، بقدر ما تتركبني بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة . على  
أنها أحسننت في الواقع . إذ مسكنتي بتيمة عمرى من كل عمل  
يعمل إلى الإجرام . . . وأحسننت إلى بالأثر الرهيب الذي انطبع  
في نفسي من جراء الذنب الوحيد الذي ارتكبته . وإني لأومن بأن  
استبشاعى الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى فدى على اننى  
استطعت أن أقدم على مثل تلك الأكاذيب المخزية . . . إنه جرم  
يمكن التكتير عنه ، بل إننى لأجرى على القول بأننى قد تكررت  
عنه بكل الشقاء الذى طغى على السنوات الأخيرة من حياتى . .  
بأربعين عاما من الاستقامة في أوسع الظروف . . . وإن  
« ماريون » المسكينة لتجد في الدنيا كثيرا من المنتهين لها . بل  
إنهم لمن الكثرة بحيث أننى - مهما يكن عظم ذنبى ضدها -  
لم أعد أخاف أن أموت غير مستمتع بالفقران !  
وهذا كل ما أود أن أقوله بهذا الصدد ، فاسمحوا لى  
بالأ أعود إلى الحديث قط في هذا الموضوع !

## الكراسة الثالثة

■ - من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام دي نيرسيلي في حال قريبة من تلك  
التي كنت فيها حين دخلتها ، عدت إلى صاحبة المنزل التي كنت  
أقيم عندها من قبل . نقضت معها خمسة أسابيع أو ستة .  
عادت خلالها المصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب  
في طباعى ، فأصبحت قلقتا ، شارد الفكر ، حالما . . . صرت  
أبكى ، وأنهد ، وأتوق إلى مساعدة لم تكن لدى عنها أية فكرة ،  
ولكنى - مع ذلك - كنت أشعر بأننى راغب فيها ! ولا سبيل  
إلى وصف هذه الحال . بل إن الذين يستطيعون تصورها  
تقبلون بين الناس - يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب  
والمنوبة ، وتخلق الشعور باللذة في عفتوان الشوق . وكان  
دمى الفائز يملأ مخى دائما بالنساء والمغنيات . ولما كنت جاهلا  
بالعلاقات الجنسية ، فقد رحت أستغل تلك الرؤى وفقا  
لأفكارى المنخبطة ، دون أن أدري طريقة أخرى للإفادة منها !  
.. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعرى في حالة نشاط مضى ،  
دون أن ترشحنى - لحسن الحظ - إلى طريق الخلاص من  
هذه الحال . . . ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل  
حياتى مقابل العثور على « آنسة دي جوتون » أخرى ، ولو  
لربع ساعة ! ولكن الوقت الذى كان لهو الطفولة يتخذ فيسه  
هذا الاتجاه - باعتباراه الاتجاه الطبيعى - كان قد ولى . . .  
كان الشعور بالعار - وهو رفيق الفسق - قد

يزداد ظهورا كلما تقدمت بي السنون . مما ضاعف من خجني  
الفطري إلى الدرجة التي لم أعد عندها أقوى على مغالبة هذا  
الخجل . . . فما عدت أقوى إذ ذاك - ولا غيا بعد - على أن  
أحمل نفسي على محاولة غير بريئة . اللهم إلا إذا كانت تلك  
التي أحاولها معها . هي التي تضطرنى - بطريقة ما - إلى  
الإقدام . مهما أعرف أنها منهكة . ومهما أشعر عن شبه يقين  
بأنها ستلقى محاولتى بالقبول !

ولقد أشد اضطرأى حتى أننى . لعجزى عن إشباع  
رغباتى ، أخذت أستثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات سخوذا  
.. فكننت أهمي في الأثرة المظلمة والدروب المنخفية . حيث  
يحتمل أن يتاح لى أن أعرض نفسي على النسوة بالشكل الذى  
كنت أرجو أن أكون عليه معهن ! .. على أن ما كن يرينه منى  
لم يكن منكرا مستقيحا . فما خطر ببالى قط مثل هذا ، وإنما  
كان ما يرينه سخفا وتزقا . ولا سبيل إلى وصف السرور  
الأرعن الذى كنت استشعره من جراء عرضه عليهن ! .. ولم  
يكن باقيا أمامى سوى خطوة ضرورية أخرى ، ثم اكتسب  
خبرة واتعيا بالمعاملة التي كنت أستهيها . ولو أننى أوتيت  
جلدا على الانتظار ، لما كان ثمة شك في أن يمر بى شخص لديه  
من الجراءة ما يكفى لأن ينيلنى المنعة المنشودة ! .. ولقد أفضت  
بى حماقتى إلى ورطة كانت خفيفة بأن تكون مضحكة لولا أنها  
لم تكن مما بلانمنى !

ففى ذات يوم ، اتخذت مكانى في مؤخرة ساحة قصر ، كانت  
بها بشر اعتادت بنات الدار أن ينظرن منها الماء . وكان في تلك

البقعة بنحدر بسيط يتود إلى مخزن ( كوار ) خلال مداخل  
عدة . فنجست - في الظلام - هذه الدروب الممتدة تحت  
مستوى الأرض ، حتى إذا وجدتها طويلة ومعقبة : استنتجت  
عدم وجود منفذ منها إلى الخارج ، وأن يوسعى أن أجس غيها  
مخبا أمنا إذا أنا شوهدت وطوردت . وإذا اطمأننت ، أخذت  
أعرض على الفتيات - اللاتي كن يذفن إلى البئر - منظرأ ادعى  
إلى الضحك منه إلى الاغواء فكان أكثرهن احتشاما يتظاهرن  
بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات في الضحك ،  
واستعانت أخريات فاحداث جليلة . . وهرعت إلى مخبئى ، وإذا  
بى أشعر بمن يتبعنى . وسمعت صوت رجل - وهو أمر لم  
أكن أتوقعه ، وقد أفزعنى - فاندفعت في المسارب الممتدة تحت  
الأرض . معرضا نفسي لأن أضل السبيل ، ولكن الضجيج ،  
والأصوات ، وصوت الرجل بالذات ، ظلت تتبعنى . . وكنت  
أعول باستمرار على الظلمة ، وإذا بى أرى ضوءا ، فارتجفت ،  
والمعنت في الإيغال في الظلام ، وإذا بجدار يستوقفنى ، حتى  
إذا عجزت عن التقدم ، اضطرتت إلى أن أقبع في انتظار  
مصيرى . وإن هى إلا لحظة حتى أمسك بى رجل طويل ذو  
شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طويل . تحف به أربع أو  
خمس نسوة عجوزات ، تسلمت كل منهن بيد مكشوفة . وبينهم  
جميعا لحت الشقية الصغيرة التي كشفت أمرى ، والتي كانت  
تيفى - دون ريب - أن تتشفى في وجهها لوجه !

وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة : دعهم ويمسك بخراغى  
عما كنت أفعل في ذلك المكان . ومن المصورين الذين لم أجد

جوابا حاضرا ، على أننى ما لبثت أن تمالكت جاشى ، وفى غمرة  
البأس الذى ألم بى فى تلك اللحظة الحرجة ، انتحلت عذرا  
خياليا لقي نجاحا . فقد توسلت إلى الرجل فى لهجة ضارعة أن  
يرحم سننى وحالى ، وقلت إننى كنت شابا غريبا ، من أصل  
طيب ، وقد أصبت بلوثة ، واضطرت إلى الفرار من أهلى  
لانهم أرادوا أن يحبسونى . وأننى ضائع لا محالة إذا هو وشى  
بى . . . لما إذا تركنى أنصرف ، فقد أستطيع يوما أن أجزيه  
لقاء كرمه . وعلى التقيض من كل ما توقعت . أحدثت كلماتى  
ولهجتى اثرها . فاذا بقلب الرجل الرهيب يلين . وبعد أن وجه  
إلى توبيخا قصيرا ، تركنى أنصرف فى سلام ، دون أن يضى فى  
سؤالى ! وادركت من مسلك الفتاة والمجوزات — حين رابتنى  
أنصرف — أن الرجل الذى خفت منه كل ذلك الخوف كان  
عظيم النفع لى ، وأننى ما كنت لأفعل بهذه المسبوبة لو تركت  
للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن بنهنن بحديث لم أكده لى  
إليه بالا . فقد كنت أشعر — ما دام الرجل وسيفه لم يتدخل  
فى الأمر — باعتداد ، ونشاط ، وقوة تمكنتى من الإفلات منه  
ومن هراواتهن !



وسألنى الرجل ذو السيف بخنونة ، وهو ميمسك  
بفراعى عما كنت أفعل فى ذلك المكان .

وبعد أيام قلائل : بينما كنت أسير فى إحدى الطرقات . مع  
رئيس أحد الأديرة المجاورة ، كنت أصطدم بالرجل ذى  
السيف ! . . . وعرفنى الرجل : فقال يقلدنى بلهجة ساخرة :  
« إننى أمير ، إننى أمير » وإنى لجبان .  
يعود صاحب السو مرة أخرى !

بينما نكست انا راسي ومضيت في طريقي دون أن اجسر على التطلع إليه ، وانا أحمد له - في عرارة قلبي - حكمته وتسامحه . وحدثت ان المعجزات اللعبنات قد عيرته بسذاجته إذ صدق روايتي ! وكيتما كان الأمر - فانه كان رجلا طيبا ، برغم أنه من (بييمونت) ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له منيعه ، لان قصتي كانت مسافحة ، وكان اى امرىء في مكانه خليقا بأن يعيرنى بها « ولو رغبة في إثارة الضحك . ومع ان هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التى كنت أخشاه ، إلا انها جعلتنى ألزم الحذر وقتا طويلا !

وكانت إقامتى لدى بدم دى نيرسيلي قد اكسبتنى بعض المعارف الذين وثقت صلاتى بهم أملا فى أن يستطيعوا لى نفعاً . وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم ، راهب من أبناء (سافوا) يدعى السيد «جاييم» كان معلما لأبناء « الكونت دى ميللايرد » . وكان لا يزال شابا ، وقد اعتاد أن يختلط قليلا بالجمع ، ولكنه كان مغفما بالإدراك السليم ، والأمانة ، والذكاء . كما كان من اشرف الرجال الذين عرفتهم . ولم يكن ذا نفع لى فى الغرض الذى حملنى على زيارته ، إذ لم يكن لديه أى اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لى عن منصب . بيد أننى اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك . إذ ظل نفعها يلازمى طيلة حياتى . . . اكتسبت منه دروسا فى الاخلاق القوية ومبادئ الإدراك السليم . فلقد كنت ، فى ميولى وأفكارى المتقلبة ، أسرف فى الارتفاع أو أسف

فى الانحدار . . فانا إما « أخيل » أو « نيرسايتر » (١) . . كنت بطلا فى بعض الأحيان ، وتنافيا - أمة - فى أحيان أخرى . وقد آلى السيد «جاييم» على نفسه أن يردنى إلى مكانى اللائق بى ، وأن يظلمنى على نفسى فى الواتها الحقيقية ، دون ما إسرائاف أو تثبيط . كان يحدثنى عن مواهبى فبوليهما ما كانت جديرة به من تقدير ، ولكنه كان بضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعت منها وتحول بينى وبين الإنمادة منها على خير وجود الإنمادة ، ومن ثم فانه خليقة بأن نكون أقل نفعاً لى ، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كاداة تغنيى عن هذا الحظ وهذه الثروة . . . وبسط الراهب أمامى صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التى لم تكن لدى عنها سوى أفكار زائفة ، فأرائى كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكتفى من أجل السعادة - وسط تيارات القدر المعاكسة - وأن يدفع زورق حياته برغم الرياح المضادة ، لى يصل إليها . وبين لى كيف أنه لا وجود للسعادة الحقبة بدون الفطنة والدراية ، وأن هذه

(١) « أخيل » يمثل أغريقى ، هو الشخصسية الرئيسية فى « البسادة » موميوس . وكان من أشجع وأجمل أبطال الاغريق . وقد اشترك فى حرب طروادة . أما « نيرسايتر » فكان أقيح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجداً . وقد تنكح أخيل . والذي يقصد « روسو » من عبارته هنا أنه كان لا يعرف اعتدالا فى تلك الفترة من حياته . فهو أما مسرف فى الشجاعة وبيل النفس ، وأما مسرف فى بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة فى . . . عن حق أو عن باطل ؟

الغلظة أو اللدابة تتعلق بكل ظروف الحياة . وبدد محدثي إعجابي بالعظمة والأبهة الفاعرتين ، إذ أثبت لي أن أولئك الذين يتبواون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلا من المحكومين . . كذلك اتباني بشيء ، كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين : لو أتيت لكل امرئ أن يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا ، لافضح أن عدد الراغبين في التبسوط يفوق عدد الراغبين في الصعود في هذه الحياة ! وهذا الخاطر — الذي يذهل صدقه العقل ، والذي لا ينطوي على مغالاة — ظل ذا نفع كبير لي خلال مجرد حياتي . إذ ساعدني على أن أعيش راضيا بمكانتي في الحياة ! . . لقد أطلعتني هذا الراهب على أول الإنكار الصحيحة عما هو مشرف ، مما لم يتح لذكائي المتضخم أن يعلم به إلا في أكثر صوره مغالاة ومبالغة . نجعلني أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى في المجتمع . . وأن المرء إذ يحاول أن يسرف في العلو ، يفتد معرضا لخطر السقوط . . وأن تمود أداء الواجبات الضئيلة يستمرار ، وعلى خير وجه ، لا يتطلب مجهودا أقل من ذاك الذي تتطلبه أعمال البطولة . ولكن المرء يكسب من الأولى تيجيلا وغناء يفوقان ما يكسبه من الأخير . . وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته في جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم في مناسبات عابرة !

وفي سبيل تحديد واجبات الإنسان . كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات . . كما أن الخطوة التي اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتي كانت حالي الراهنة من نتائجها ، أفضت

بنا إلى الحديث في الدين . ومن الممكن أن يتصور القارئ عند هذا الحد أن السيد جاييم الفضل ، هو — إلى حد كبير على الأقل — الأصل الذي قيست عنه شخصية « أسقف سافوا » (١) ولم يكن يقتصد في صراحته وانطلاقه في الحديث . إلا في نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا في كلامه . وفيما عدا ذلك ، كانت عظمته وأحاسيسه وآراؤه هي هي لا تتبدل ، وكان كل شيء — حتى نصحه لي بالعودة إلى أهلي — يتسم بها حورته به للرأي العام منذ ذلك الحين . لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع في سرد محادثتنا . إذ أن مادتها في تناول كل امرئ ، وإنما اكتفي بأن أقول إن دروسه — التي لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره في البداية — أصبحت من بذور النفسيلة والدين التي لم تذوق قط في مؤاذي ، والتي لم تحتج إلى أكثر من رعاية بد أخرى عزيزة حبيبة ، كي تثمر وتزدهر ! ومع أن تحولتي إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن — في ذلك الحين — نحوها كاملا . إلا أن هذا لم يخرجني في شيء . وبدلا من أن أشعر بالملل من أحاديث السيد جاييم ، وجددتني أشغف بها لوضوحها وبساطتها ، ولذلك القدر من حرارة القلب التي كنت أحس أنها تزخر بها . . ولقد أوتيت طبعاً ودوداً ، وكان تعلقي بالناس دائما ، بسبب الخير الذي أدوه لي ، أقل من تعلقي بهم من جراء الخير الذي كانوا يرجونه لي . ونادرا ما أخطأ شعوري بتقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل

(١) أسقف سافوا هو أحد شخصيات كتاب روسو المعروف « إميل » .

السيد جايم . فكنت في الواقع تلميذه الثاني ، وكان لهذا الامر - في تلك الفترة - فائدة لا تقدر ، إذ حال بيني وبين الميل إلى الرذيلة التي كان تعطلي عن العمل يحضني إليها !

وفي ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت ديلا روك ، وكان هذا آخر ما أتوقعه . فان الزيارات العديدة التي قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه أباستنى منه . فكنت عن الذهاب إلى داره ، وظننت أنه نسيتني . أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عني . ولكني كنت مخطئا ، فإنه كان قد شيد - أكثر من مرة - السرور الذي كنت أؤدي به واجباتي لعمته . . . إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور ، كما أنه تكلم معي بشأنه في وقت كنت قد نسيت فيه . . . ولقد تلقاني في رفق . واثباتي بأنه رأى أن يدبر لي بالفعل منصبا - بدلا من أن يمنيى بوعود لا تقترن بتنفيذ - وأنه قد وفق في مسماها ، وسببيني في منصب يمكنني من أن أقدم إنسانا ذا قيمة ، وأن ما يتى بعد ذلك رهن باجتهادي . فان الأسرة التي سعى لي عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن احتاج إلى وساطة أخرى لديها . ثم أضاف أنني - وإن كنت ساعامل في البداية كخادم - كما كان شأنني من قبل - إلا أنني خليق بأن أطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن لا يستيقنوني في هذا المركز إذا ما استطاع خلقي وسلوكي أن يحملهم على أن يروا أنني أصالح لعمل أفضل . وخييت خاتمة الحديث بقسوة ما أوجت إلى به بدايته من آهال مشرقة ، فقلت لنفسى : « ماذا ؟ . . أظل خادما دائما ؟ ! » ، وخامرني إحساسى بسخط مرير - لم تلبث الثقة

أن محته ، فقد شعرت بأننى أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظل فيه ! (١)

وإصطحبني محدثي إلى الكونت دى جوفون رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت «سولار» الباذخ ، فاذا الروح السماء التي اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاظه . وسألني في اهتمام ، فاجبت في إخلاص صادق . وقال للكونت ديلا روك أن لى ملامح تروق للعين ، وبشر بالذكاء ، وأنه - في الواقع - لا يرى أنني تنقصنى هذه الموهبة ، ولكنها ليست كل شيء . ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه في كافة النواحي الأخرى . ثم التفت نحوى وقال : « إن البداية شاقة في كل الأمور تقريبا يا صغرى ، على أن مشقتها لن تذهب - في حالتك - إلى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع إلى لرضاء كل واحد هنا ، وهذا كل ما عليك أن تفعله في الوقت الحاضر . وفيما عدا هذا ، كن مقدما ، تجد رعاية ! . . » وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة « دى برى » - زوجة ابنه - فقدمنى إليها ، ثم قدمنى إلى الأب دى جوفون ، ابنه . . . ولاحث لى هذه البداية مؤثمة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لا يلتون كل هذه الحفاوة . والواقع أنني لم أعامل كواحد من الخدم ، بل كنت أتناول وجباتى على مائدة وكيل

(١) يمتد أن قلة صلاحيته للنصب الخادم كانت كذبة بأن لا يتن بهامه احتالا يرضى مخدوميه ، وهذا يؤدي إلى (١) حتى تلتحقين : أيا أن يرحبوا ، وأيا أن يقدروا أن مواهبه تؤمله . للنصب

أعمال الكونت ، ولم أكن أرثدى الزى المخصص للخدم .  
وعندما أرادنى الكونت دى فانريا - وهو شاب أحق خاوى  
الراس - على أن أركب فى مؤخرة عربته ، حرم جده ركوبى  
خلف عربة اى فرد . أو قيامى بخدمة أحد خارج الدار ! على  
أننى كنت - فى الدار - أكتل بالخدمة على المائدة ، وأمارس  
كافة واجبات الخدم تقريبا ، بيد أننى كنت أقوم بذلك متعلوفا  
إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين . وفيما  
عدا كتابة بعض الخطابات التى كانت تملى على - وتسجيل  
بعض الحسابات للكونت دى فانريا . فأننى كنت حر التصرف  
فى وقتى طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا الامتحان الذى لم  
أفطن إليه ، عظيم الخطورة فى الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن  
الرحمة . لان هذا الفراغ الطويل كان خليقا بأن يقودنى إلى  
ردائل ما كان لى أن أقارفا . على أن هذا لم يحدث . لحسن  
حظى ، إذ أن دروس السيد جايم كانت قد خلقت أثرا مطبوعا  
على قلبى ، وقد تولانى ميل إليها كان يدفعنى - ق بعض  
الأوقات - إلى أن اتسلل فأذهب للأصفاء إليها ثانية . واعتقد  
أن أولئك الذين كانوا يرونى بأرجح الدار سرا ، لم تكن لتخطر  
ببالهم أقل فكرة عن المكان الذى كنت أذهب إليه . وما كان ثمة  
ما هو أحكم من النصيحة التى أزعجها الراهب إلى بصدد  
مسلكى : فلقد بدأت عملى بداية تدعو إلى الإعجاب ، وأجبت  
من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرئ .  
نفسحنى الراهب - عن غفلة - بأن أخفق من اندفاع  
الشباب ، خشية أن يخف من تلقاه نفسه تدريجا « مما قد

يستمرعى الانتباه . وقال : « إن القاعدة بأن يقاس تصرفك  
بالقدر الذى بدأت به - فحاول أن تدبر أمرك بحيث يزداد  
جهدك بمضى الزمن . ولكن حذار من أن يقل مجهودك يوما عنه  
فى اليوم الذى سبقه ! » .

وإذ لم يتجشم أحد عناء اكتشاف مواهبى المسكينة ، ولما  
لم أكن قد اعتبرت ذا مواهب سوى تلك التى أضفتها على  
الطبيعة . لذلك لم يبد لى أن أحدا قد فكر فى أن يفيد منى ،  
برغم ما كان السيد جوفون قد أنبأنى به . وما لبثت أن جدت  
أمر جعلتنى منسيا تقريبا . . وفى ذلك الحين كان « المركيز  
دى برى » . ابن « الكونت دى جوفون » . سفيرا فى فيينا .  
وقد وقعت أحداث فى البلاط تركت أثرا محسوسة فى الأسرة ،  
فاذا بكل فرد يظل فى حالة انفعال لبضعة أسابيع ، مما لم يدع  
لأحد وقتا لأن يفكر فى شأنى . على أننى لم أكن قد خففت من  
حميتى فى العمل - حتى ذلك الحين - إلا قليلا . وكان ثمة  
أمر أماندى واضربى فى آن واحد : أفادنى فى أنه حفظنى من  
المغريات الخارجية . . واضربى فى أنه جعلنى أقل انتباها إلى  
واجباتى بعض الشيء !

كانت الأنسة « دى برى » شابة فى مثل سننى ، بديهة  
التكوين ، مليحة النظر إلى حد كبير ، نصرة المحيا ، ذات شعر  
حالك السواد . . ومع أنها كانت سمراء ، إلا أنها أوتيت مظهرا  
رتيقا تماز به الشفراوات عادة ، ولم يكن قلبى يقوى على  
مقاومته إطلاقا ! وكان الزى الذى ترتديه متعسفا فى الباطن  
الملكى يلائم الشباب تماما ، ويبدى قوامها الضئيل فى أبهى

مظاهره ، وابتكر صدرها وكفيتها عارية - ويجعل بشرتها أكثر  
نقطة ، نظرا للحداد الذي كانت تتسم به ثياب الحاشية في ذلك  
الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هذه  
الاشياء . وقد كنت مخطئا بلا ريب ؛ ولكني لاحظتها جميعا  
مع ذلك ، و لم اكن الوحيد الذي لاحظها . فقد كان كبير الخدم  
والوصفاء - يتحدثون عنها على المائدة احيانا - في لهجة خشنة  
كانت تؤذي شعوري بدرجة شاسية . ومع ذلك فان عتلي لم  
يفقد اترانه فيوقعتي في الحب بكل سهولة - بل انني لم انس  
نفسى ، ولم انس مكائى وميكزى - كما ان رغبائى لم تكن تلقى  
من الحرية أكثر مما ينبغي . . . وإنما كنت احب أن ارى الانسة  
دى بربى ، وان اسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن فكائنها  
وحسن إدراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحي على متعة  
القيام بخدمتها ، فلم أجاوز حدودى . وكنت أنتهز الفرص  
دائما - عندما تجتمع الأسرة حول المائدة - لتعزيز هذه  
الحدود ، فإذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة ،  
بادرت لفورى إلى شغل مكانه . ونعما عدا ذلك كنت اتخذ  
موقتي في مواجبتها ، وأحقد في عينيها لأرى ما توشك ان  
تطلبه ، وأرتب اللحظة المناسبة لإبدال طبقها . . . وائى شئ  
كنت أحجم عن أتفاته لو أنها تنازلت فألقت على أمرا ، أو  
نظرت إلى ، أو وجهت إلى كلمة واحدة ؟! . . . ولكن ، لا ! كان  
مقضيها على ألا اكون شيئا بذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ  
وجودى ! ومع ذلك فقد حدث في إحدى المناسبات أن وجهه  
أخوها - الذى اعتاد أن يكلمنى أحيانا وهو جالس إلى المائدة

- عبارة غير مهذبة إلى - فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة  
التعبير ، إلى درجة جعلت الانسة تنقبه فتحول بصرها  
نحوى - ومع أن هذه النظرة كانت خاطئة ، إلا أنها  
سحرتنى . . . وفى اليوم التالي - سبحت غرصة للفوز بنظرة  
ثانية ، فسارعت إلى استغلالها : فلقد أقيمت وليمة عشاء  
كبيرة لمناسبة معينة ، قرأيت اثناءها - لأول مرة - أن رئيس  
الخدم كان يرتدى قميصه على رأسه ، وسينه إلى جانبيه ، مما  
أدهشنى ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التى كان بيت  
« سولار » يتخذها شعارا ، والتى كانت منقوشة على الرسم  
الذى تألف منه رمز الأسرة وهى عبارة :

Tel fier qui ne tue pas

ولما كان أهل ( بيمونت ) غير متقربين في اللغة الفرنسية ، فقد  
أشار واحد من الحضور إلى وجود غلطة هجائية في الشعار ،  
وأعلن أنت يجب ألا يكون ثمة (T) في كلمة fier . وهم  
كوفت دى جوفون الشيخ بأن يجيب : لولا أن لاحظت منه نظرة  
نحوى - فرائى أبتسم دون أن أجسر على أن أقول شيئا ،  
فأمرنى بأن اتكلم - ومن ثم قلت إننى لا اعتقد أن حرف (T)  
لم يكن ضروريا - إذ أن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست  
مشتقة من ferus . ( ومعناها متكبر أو متوعد ) ، وإنما  
كانت مشتقة من ferit ، ومعناها يضرب أو يجرح . ومن  
ثم فان معنى الشعار - كما بدا لى - لم يكن : كم من رجال  
توعدوا ، وإنما . . . كم من رجال



١٦٩ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الأول

— كما كان الأمر في حالة مدام بازيل وخلال بقية حياتي — أنى لم أكن سعيدا في ختام غرامياتي ! .. وعينا صرت أبدى اهتماما بالحجرة الملحقة بخدع مدام دى برى — الأم — فأننى لم أحظ بأية يادرة أخرى ثم عن انتباه ابنتها إلى ! فقد كانت تلج الحجرة وتنادرها دون أن تنظر إلى .. كما أننى — من ناحيتي — كنت لا أكاد أجسر على أن أتجسس بعيني نحوها . بل لقد بلغ من غيائى وأرتياكى أننى عندما وقع منها قفازها وهى تمر بى ذات يوم ، لم أجسر على مبارحة مكاني . بدلا من أن أنفخ للأنفاس هذا القفاز الذى كنت أتمنى أن أكونه بقبلائي ، وتركت وصيفا فضوليا — كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور — يلتقطه ! .. ومما ضاعف انفعالى . أن تبينت أننى لم أحظ بارتضاء مدام دى برى . فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلى . بل أنها لم تعد تتقبل خدماتي البتة . وسألتنى بلهجة فائرة إذ وجدتنى في الحجرة الملحقة بخدعها — في مناسبتين — عما إذا كنت لا أجد عملا آخر يشغلنى ؟ ومن ثم اضطرت إلى تجنب هذه الحجرة . وقد تحسرت على ذلك في البداية ، ولكن الشواغل تخطت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها !

وسرى عنى برود «مدام دى برى» كرم جميعها ، الذى انتبه أخيرا إلى وجودي : ففى ليلة المائدة التى ذكرتها ، تبادل معي حديثا عقب العشاء لنصف ساعة . وبدا أن الحديث أرضاه ، نظرت لذلك . كان هذا الشيخ الطيب أرق قلبا من مدام دى فرمسيللي — وإن لم يكن موهوبا مثلي . وقد طلب إلى

واللتقت أفراد الجماعة بأسرهم نحوى ، ثم التفتوا إلى أنفسهم ، دون أن يتبسوا ببنت شفة . أبدا ما رأيت في حياتي مثل هذه الدهشة ! ولكن أكثر ما استخف زهوى ، هو أنى رأيت من أسارير الأنسة «دى برى» أنها كانت جد مسرورة . وتنازلت هذه السيدة الشابة المترفة فرمتنى بنظرة نائبة كانت مساوية — على الأقل — للأولى . ثم أدارت عينيها نحو جدها . وبدا أنها كانت تنظر ، في شيء من عدم الصبر ، المجاملة التى كنت استحققتها . والتى قدمها الجد إلى — في الحق — كاملة واقية ، وفى مظهر من الرضى جعل الحضور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه . وكانت اللحظة وجيزة ، ولكنها كانت من أعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التى لاتسبح إلا نادرا جدا . والتى تضع الأمور في نصابها الطبيعي ونعوض إهانات التدر ، وقثار للكفاءة التى لم تكن تلقى تقديرا . وبعد دقائق معدودة ، سألتنى الأنسة دى برى في صوت واهن مستحى — وهى ترفع عينيها نحوى مرة أخرى — أن أناولها بعض الشراب . ولست بحاجة إلى أن أقول إننى لم أدعها تنظر ، ولكنى ارتجلت بعنف وأنا أقتررب منها ، حتى أننى أرقمت بعض الماء على طبقها ، بل وعليها . وسألتنى شقيقها — في غياء — عن السر في ارتجافى . ولم يفلح هذا السؤال في أن يرد إلى جلدى ، بينما تضرع وجه الأنسة دى برى حتى طشى الإحمرار على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المفارقة الغرامية التى يلاحظ منها

دى جوفون - الذى كان يولئى بعض الاعتبار - عسى ان يفيدنى ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فبساعدنى على اكتساب ما كان ينقصنى حتى يهيئنى لما كانوا يعتمونه لى . ومن ثم أسرع - فى الصباح التالى - إلى الراهب . فلم يستقبلنى كخادم ، وإنما جعلنى على الجلوس إلى جانب المدفأة ، وأخذ يسألنى بأعظم لطف ، فسرمان ما تبين أن تعلمى - الذى كنت قد بدأته فى كثير من الأمور - لم يكن مكتملا فى أى شيء . وحين وجد أننى كنت - بوجه خاص - على إمام قليل باللغة اللاتينية . تكلم بقلقى مزيدا منها . واتقننا على أن أذهب إليه فى كل صباح ، فبدأت من الصباح التالى مباشرة وهكذا كنت - باحدى تلك المصادفات الغريبة التى مستظهر كثيرا فى مجرى حياتى - فوق مكانتى وتحبها فى آن واحد ! كنت تلميذا ووصيفا فى بيت واحد ! وبينما ظلمت خادما - حظيت بمدرس كان نبيل محدثه خليقا بأن يجعله أستاذا لإبناء الملوك ، ولا أقل منهم ! كان الأب دى جوفون ابنا أصغر فى أسرته ، أعده أهله ليكون أسقفا ، ولهذا السبب فان دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم . فقد أوفد إلى جامعة ( سينا ) ، حيث مكث عدة سنوات ، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بالتقاء الألفاظ ، ومن ثم فانه كان يؤدى فى ( تورين ) نفس الدور الذى كان يؤديه الأب دى دانجو (١) فى

(١) الأب دى دانجو كان من أعضاء المجمع الفلورى الفرنسى - الأكاديمى  
فرنسى - فى منتصف القرن السابق على تلك الفترة ، وقد ألف رسائل فى  
تواعد اللغة الفرنسية .

باريس . وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب ، وهو أمر جد مألوف فى إيطاليا لدى أولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية . وقد قرا إنتاج الشعراء فى اهتمام ووعى ، وكتب اشعارا لاتينية وإيطالية مقبولة . وبإيجاز . كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقى ، ويدخل شيئا من المنخيل على الركام الميوشى الذى كان راسى بحشوا به . على أنه - أما لأن ثرثرتى أعطته فكرة زائفة عن درايتى . أو لأنه لم يكن يطبق مبادئ اللاتينية المضجرة - قد جعلنى أبدأ بداية تفوق المستوى الذى كنت فيه بكثير ، وما أن جعلنى أنرجم بضع أساطير عن « فيدروس » ، حتى زج بى فى اشعار « فيرجيل » التى لم أكد أفتق منها شيئا ! ولقد كان مقدورا على دائما - كما سيتجلى فيما بعد - أن أشرع فى تعلم اللاتينية من جديد ، أكثر من مرة ، دون أن أسير فى الشوط إلى غايته . على أننى - فى هذه المرة ، اجتهدت فى حمية . فآخذ الراهب بسبغ اهتمامه على فى عطف لا أستطيع - حتى اليوم - أن أذكره دون أن يخفق قلبى نائرا ! .. صرت أقتضى شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لأتلقى العلم ولاؤدى للسيد الخدمات . ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لى البتة بأن أؤدى هذا النوع ، وإنما كنت أكتب ما يعليه على وأنسخ ما يعهد به إلى ، فكألت واجباتى كسكرتير أكثر نقما لى من دراساتى كتلميذ ! .. فأننى - بهذه الطريقة - لم أتعلم الإيطالية فى أرقى أساليب بلاغتها فحسب ، وإنما تعلمتها أيضا . واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التى كان يحل

الحصول عليها من مكتبة « لاثريو » ، والتي كانت عظيمة النفع لى فيها بعد ، عندما شرعت فى الاعتماد على نفسى فى التأليف !

تلك كانت الفترة الوحيدة فى حياتى التى كان من المعقول ان اطمع فيها فى النجاح « دون ما مشروعات خيالية ! .. واخذ الراهب - الذى كان جد راض عفى - يحدث كل شخص عن ذكائى . واولانى ابوه تقديرا خاصا . حتى لقد ذكر لى الكونت دى فانفريا انه تحدث عنى إلى الملك . . . حتى « مدام دى برى » تخلت عن مسلكها المهيمن نحوى . وبيلاجاز ، أصبحت ذا حظوة فى الدار . مما اثار غيرة الخدم الآخرين ، الذين أدركوا - إذ راوئى أنشرف بطلقى الفروس على بدى ابن مولاهم - انه لم يعد مقدرا لى أن ابقى واحدا منهم !

وبقدر ما أمكننى أن احدث عن وجهات النظر التى كانت تعالج أمرى - من مضع كلمات كانت تلقى إلى فى عجلة ، ولم أكر فيها مليا إلا فيها بعد - يبدو لى أن آل « سولار » كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزارية فى المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد أن يتولوا - بكل سرور - تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح غيبا بعد - لاعتباره المطلق على أسرته فى معاشه - مستودع ثقتها ، وبستطيع أن يخدمها باخلاص . وكان هذا المشروع من الكونت دى جونون مشروعاً نبيلاً حكيماً كريماً ، جديراً حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغنى عن الذكر أننى - إذ ذاك - لم أستطع أن أحيط بكل نطاقه ، فقد

كان فوق مستوى إدراكى « كما انه كان يتطلب فترة طويلة من التبعية والانصياع . وكان طموحى الأرعن لا يرى الحظ الحسن إلا فى وسط المعامرات ! ولما لم يكن لاية امراة شأن بهذا المشروع - فقد بدت لى هذه الوسيلة من وسائل التجاح بطيئة ومضنية . وكئيبة . . فى حين انه كان خليقيا لى أن اعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخرى ، لنفس السبب الذى ذكرته . عن عدم تدخل النساء فيها ، فان ذلك النوع من الجدارة الذى تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه . لا يتسم بالطابع الشريف الرقيق الذى يتسم به النوع الذى كان مفترضا اننى املكه !

ومضى كل شيء على أبعد حال ، فاكسبت احترام الجميع او بالأحرى انتزعتهم تقريبا ، وانتقضت فترة الاختبار ، وأصبحت مروهوا فى الدار - بوجه عام - ككتاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له الا يشغل المركز الجدير به . فان كل امرئ كان يتوقع ان يرتقى إلى هذا المركز . بيد أن مكائى لم يكن ذاك الذى قدره لى الجميع ، وقد كتب على أن لا بلغه إلا عن طريق جد وعرة . . وهذا بنفى بى إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التى امتزت بها ، والتي لا احتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارئ دون مزيد من الإسهاب .

ذلك أنه بالرغم من أن « تورين » كانت تضم كثيرين سواى ممن اعتنقوا الكتلكة حديثا ، إلا أننى لم أكن أمل إليهم ، ولم أسمع قط إلى لقاء أحد منهم . على أننى كنت قد عرفت إليهم - شخصا من أهل

« موسار » ، ولبق بـ « ذى الفم الاعوج » - وكان من رسامى التحف الدقيقة ، وذا صلة بى . وقد تبين اننى كنت اقيم لدى الكونت دى جوفون . فجاء ليرانى مع شخص آخر من جنيف يدعى « ياكل » : كنت زميلا له حين كنت اتدرب على الحرفة . وكان « ياكل » هذا مسلما . شديد المرح . راوية لللكاهات والنوادر التى كانت تبدو مستحقة لمن فى مثل سنه . ومن ثم فان لكم ان تتصوروا كيف افتتحت فجأة بالسيد باكل إلى درجة لم اعد معها اقوى على ان افارقه . . . وكان قد اعتزيم الرحيل عائدا إلى جنيف بعد وقت قصير ، فبالخسارة التى خيل إلى اننى سامنى بها ! . . . وإذ تبينت مداعبا ، رأيت ان أبعد إلى أقصى حد - على الأقل - من الوقت الباقى قبل رحيله . فلم أكن أثارق جواره اطلاقا ، أو بالأحرى انه هو الذى لم يكن يقاربنى ، لأننى - فى البداية - لم أبلغ من الطيش الحد الذى كان يجعلنى أقضى اليوم كله معه خارج القصر دون إذن . على انهم سرعان ما قبيحوا انه كان يشغل كل وقتى . فحرموا عليه ولوج الدار . مما أثار حنقى ففسيت كل شيء عدا صديقى باكل ، ولم اعد اقترب من الراهب أو الكونت ، ولم اعد اشاهد فى الدار ! بل اننى لم اكترث للوم والثائب . فأنذرت بالطرد . . . وكان فى ذلك دمارى ، إذ أغرائى بان من الممكن الا يرحل « ياكل » دون رفيق ! ومنذ تلك اللحظة لم اعد أرى مسرة - ولا مصيرا - ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة ! وما ضاعف هناعى المرتبة . ان مدام دى غاران لاحت لى فى نهايتها ، ولكن . . . على بعد سحيق ، إذ لم يكن

ليخطر ببالى قط ان اعود إلى جنيف بالذات ! . . . واخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والحدول والقرى تمر أمام ناظرى فى تتابع لا نهاية له ، وقد تجددت مفاتيها ! . . . وبدأ أن هذه الرحلة قد ابتلعت كل حياتى . فرحت أتذكر فى ابتهاج كيف سحرتنى هذه الرحلة وأنا تادم إلى ( تورين ) : فما بالك إذا ما استمتعت - إلى جانب كل سحر الاستقلال - ببهجة جديدة ، تتمثل فى صحبة صديق فى مثل سنى وميولى . اوتى روحا طروبا . . . لا سيما وأنه لن تكون ثمة قيود . ولا واجبات : ولا رقابة ، ولا اضطراب إلى الذهاب أو البقاء فى أى مكان . با لم يرق لنا ذلك ! . . . وخيل إلى ان المرء يكون احبب ولا ريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من أجل خلط طموحه . بطنة ، شاقة ، غير مؤكدة التحقق ! . . . خطط لم تكن - حتى إذا سلمنا بانها قد تتحقق يوما ما ، وببرغم كل اشتراكها وومبضها - لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقى ومن حرية الشباب !

وإذ تملكنتى هذه الفكرة الحكيمة ! أقبلت على التصرف بطريقة أفلحت فى حمل القوم على تصلى من خدمتهم - وإن كان هذا لم يتم فى الواقع دون كثير من العناء . وهكذا . ذات مساء ، أسلمنى رئيس الخدم عند عودتى إلى الدار أمرا من الكونت بفصلى . وكان هذا هو عين ما رجوت ! . . . غير اننى كنت - بالرغم من نفسى - أدرك جوارحى : وقد أضلعت إليه جورا وعقوتا حين خيل إلى اننى أحتاج القوم على تردى . . . أستطيع ان ألقى اللوم على سواى . . .

مصري . وكأنتى كنت مضطرا - بالرغم منى - إلى انتهاز  
المسك الذى كنت فى الواقع المسئول الوحيد عنه !

وقبل أن ارحل فى الصباح القالى ، أرسل « الكونت دى  
فانريا » يدعونى لمقابلته . ولما كانوا يرون اننى فقيت كل  
تعقل ، واننى قد لا ألبى الدعوة ، فقد ذكر لى رئيس الخدم  
أنه سيعطينى بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لى .  
برغم اننى كنت لا أستحقه بالتأكيد ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد  
قرروا لى أجرا ، نظرا لأنهم لم يكونوا يعترفون استبقائى فى  
منصب الخادم !

ومع ما كان عليه الكونت دى فانريا من صغر السن وضالة  
التفكير ، فانه تحدث إلى فى هذه المناسبة بما يتم عن وعى  
وعطف ، بل إننى لاكاد أقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص  
صادق ، وفى تعلق يهتو بالقلب « فاطلبنى على عطف عيه  
الراهب على ، وعلى نوايا جده بشائى . وأخيرا .. وبعد أن  
عرض على لأوضح ما كان فى وسعه ، كل الميزات التى كنت  
أضحي بها لأنتفع نحو ملاكى ، عرض أن يتوسط لى فى البقاء  
على شريطة أن أتخلى عن ذلك الشاب الشقى الذى أفسدنى .  
وكان من الجلى أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت  
- برغم حماقتى العمياء - شديد الشعور بكل ما كان مخدوس  
الشيخ بكنه لى من إشفاق ، وقد تأثرت به ، ولكن رحلتى  
الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالى ، فام  
يكن فى وسع أية مغريات أن تمحوها ! كنت قد فقدت رشدى  
تماما ، فاشتد عنادى وصلابة رايى ، وتفرعت بكرامتى .

وأجبت - فى صلف - باننى قد تلقيت أمر فصلى من الخدمة ،  
واننى ثقيلته . وإن أوان سحبه قد غلت ، واننى قد عقدت  
العزم على ألا أصبح لنفسى بأن اطرد مرتين من بيت واحد ،  
مهما تكن العواقب ! . وإذ ذاك رماني الشاب بما استحق من  
القاب ، وقد ثار عن حق ، وأمسك بكفتى فالتى بى خارج  
عرقته وأوصد الباب خلفى ! . فانطلقت مزهوا وكأنتى  
أحرزت نصرا باهرا ! وخوفا من أن اضطر إلى احتفال صراع  
ثان ، تركت للخسة أن تحملنى على الرحيل بدون أن أشكر  
للراهب كرمه !

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنونى يسوقنى إليه فى تلك  
اللحظة ، يجدر بالمراء أن يعرف إلى أية درجة يشور غواذى  
بسبب التفاهات البسيطة ، وبأى عنف يتدفق وراء الشئ  
الذى يستهويه ، مهما يكن هذا الشئ خلوا من أية قيمة ! .  
ذلك أن أغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، وأشدها  
حماقة ، تتشهى مع الفكرة التى تحلو وتغزرها ، حتى اقتنع  
بحكمة الإقبال على تنفيذها ! . أمهلك من بصدق أن إنسانا  
ما - لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره - يستطيع أن  
يشيد آماله فى العيش ، ما بقى من عمره ، على زجاجة  
فارغة ؟ . إذن فاسمعوا : كان الأب دى جوفون قد أهدانى  
- قبل ذلك بأسابيع قلائل - نافورة صغيرة من نافورات  
هيروا (١) ، اغتبطت بها . وإذ كنا لا تكف عن اللعب بهذه

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كالصنوبر  
الاستكندرية يدعى « هيرو » .

النافورة ، أثناء حديثنا عن رحلتنا خطر لبائل العاقل .  
ولى ، أن فى وسع النافورة أن تنفعا فى إطالة الرحلة . فأى  
شئ فى الدنيا أغرب وادعى لإثارة الفضول من نافورة  
هيو ؟ . وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى بنينا عليه  
مرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى أن نجعل فلاحى كل  
قرية حول نافورتنا ، فينهال علينا الطعام وكل المشتبهات فى  
وقرة عارية - فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجها شيئا ،  
وأن عدم تزويدهم المرتحلين بها ليس سوى شر من نلحينهم !  
- ومن ثم رحنا نتوقع أن نجد أعراسا ومهرجانات فى كل مكان  
مما يمكننا - دون أن ننفق شيئا اللهم إلا أنفاسنا ومياه  
نافورتنا - من أن نكسب نفقات رحلتنا خلال البيبونت (   
و ( سافوا ) وفرنسا . . بل العالم كله فى الواقع . . . وعلى  
الرثر ذلك أخذنا نرسم خططنا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم رأينا أن  
نتجه أولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الألب !

#### ٦ - من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وهكذا كانت الخطة التى شرعت نبيها ، عاجزا - دون  
ما ندم - راعى ، وأستاذى . ودراساتى ، وآمالى ومستقبلا  
كان شبيهة مؤكدة . لأبدا حياة التشرد المنتظم . . . وودعت  
العاصمة (١) ، والقصر الملكى ، والطبوح ، والزهو ، والحب .  
والنساء الحسان ، وكل المغامرات المثيرة ، التى حملنى الأمل فى

(١) كانت تورين ( يومئذ عاصمة إمارة ) بيبونت .

العثور عليها إلى ( تورين ) قبل ذلك بعام . . وانطلقت مع  
نافورنى وصديقى « بكلل » . يكبى خفيف . ولكن بقلب  
ملىء بالقبطة ، وبإل لا يفكر فى شئ سوى استتوار سعادة  
التجوال التى قصرت عليها بغتة مشروعاتى البراقة . ولقد  
جعلت هذه الرحلة الشاذة ملائمة بالقدر الذى كنت  
أتوقعه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقة التى أردتها  
تبارا ، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات  
الفنادق الريفية وخدمهن ليضع لحظات ، إلا أننا نضطر  
- مع ذلك - إلى أن ندفع نفقات إقامتنا إذا ما ههنا  
باستئناف الرحيل . بيد أن هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم نفكر  
فى استغلال النافورة كمورد جدى للدخل . إلا عندما بدأت  
نقودنا تنفذ . على أن ثمة حادثا أعفانا من العناء ، فقد انكسرت  
النافورة ونحن على مقربة من ( أبرامان ) . والواقع أن الوقت  
كان قد حان . إذ كنا قد شعرنا - دون أن نجرؤ على المصارحة  
- بأن القمع قد بدأ يذب فينا . وقد جعلنا هذا النصى أكثر  
ابتهاجا من ذى قبل « مضحكنا كثيرا من غبائنا » ، إذ فسينا  
أن ثيابنا وأحذيتنا لن تلبيث أن تبلى ، وإذا اعتقدنا أن بوسعنا أن  
نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الانتظار . . . وهكذا  
تابعنا رحلتنا ونحن فى مثل ما بدأناها فيه من حبور ، وإن يمينا  
- فى اتجاه مباشر أكثر من ذى قبل - شطر الغاية التى كانت  
موارثنا المطردة الفضوب نحتم علينا بلوغها .

وفى ( شامبرى ) بدأت أطبل التفكير . لا حسب الطبع . فندى  
أقمت عليه - فليس من إنسان الله

سريعا ، وبشكل كامل . ذم يتعلق بالماضى — وإنما بسبب الاستقبال الذى كان يرتقيني لدى مدام دى فاران ، فقد كنت انتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلى الخاص . وكنت قد كتبت إليها اتبناها بالتحاقى بالخدمة فى دار الكونت دى جوفون . وقد عرفت مركزى هناك ، وعندما ، هاتفتى أزجت إلى بعض النصائح الجلية فيما يتعلق بالسلوك الذى يجب أن اتفهمه جزاء الكرم الذى أبدى نحوى . ولقد اعتبرت السيدة أن مستقبلى بات مضمونا . اللهم إلا إذا انسدت أنا بخطأ منى . . . ترى ما الذى ستقوله حين ترانى عند وصولى ! . . . أبدا لم يخطر ببالي احتمال أنها قد توصد الباب دونى . ولكنى كنت أرهب الحزن الذى كنت موشكا على أن أسببه لها . وكنت فى خوف من ثائبياتها ، التى كانت اقضى على نفسى من أعظم شقاء ! فاعتزمت أن اتحمل كل هذا فى صمت . وأن أبذل كل ما فى وسعى لاهدىء من أساها ، فما كنت أرى لى فى الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش فى خزى منها امرا مستحيلا !

على أن الشطر الأكبر من تلقى كان بسبب زميلى فى السفر . فما كنت راغبا فى أن أثقل كاهليها به إلى جانبى ، كما كنت أخشى ألا يسهل على التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعماله — فى اليوم الآخر — بشيء من القصور . ففهم الوعد امرى — فقد كان طائشا أكثر منه غبيا ! — وقد ظننت أن تقابى سيخز قلبه ، فإذا بى مخطيء . إذ كان اللعين لا يسمح لشيء بأن يتغلغل إلى قلبه . . . فما أن أروسيها أقدامنا

على أرض ( أنيسى ) ، حتى قال لى : « ها انتذا فى بلدك » ، وعاتقتنى مودعا ، ثم نكس على قدميه ، واختفى . . . فلم اسمع منه بعد ذلك البتة ! وقد دام تعارفنا وصدقاتنا ستة اشهر فى مجموعهما ، ولكن تبعاتهما ستبقى ما حييت !

\*\*\*

ولشد ما يخفق قلبى وأنا أقترب من دارها ! . . . لقد أخذت ساقاى ترتجفان تحتى ، ورائت غشاوة على عيني ، فلم أر شيئا ، ولا سمعت شيئا ، وما كان بوسعى أن أعرف شخصا ! . . . واضطرت إلى أن اتوقف عدة مرات لانمالك أنفاسى وأسيطر على نفسى . أمكان الخوف من ألا احظى بالمعونة التى كنت بحاجة إليها هو الذى أزعجنى بهذا القدر . . . وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع فى شخص فى مثل سنى . . . لا ! هذا ما أعلنه فى صدق وكبرياء ، فما استطاع الاهتمام بالنفسى ولا استطاعت الحاجة قط — فى أية لحظة من حياتى — أن يفتحا قلبى أو يفلقا . . . ففى مجرى حياتى — غير المستقيم ، والذى تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته ، ويكثره ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز — ظللت دائما انظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء ! ولقد كان بوسعى فى أوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق — كما يفعل أى امرئ آخر — ولكنى لم أكره نفسى قط من جراء انحدارى إلى هذا الدرك . وأعقد أن قليلين هم الذين معدوا من الزغرات قدر ما سمعت ، وذرغوا من الدموع فى خياشيمهم . قدأر ما ذرعت ، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليهما مقلبا . . .

أنثت زفرة ، أو أذرف دمعاً ! .. إن نفسي - التي خلقت في حصانة ضد الحظ ، فهي لا تقايريه - لم تعرف قط استكانة إلى نعمة .. وعندما لا أفكر إلى شيء يمكن أن تمس إليهِ الحاجة ، فذاك هو الوقت الذي أشعر فيه بأنني أشقى المخلوقات ! .

\*\*\*

ما أن مثلت أمام مدام دي فاران ، حتى طمأننى سلوكها ! وقد ارتجفت لأول نبذة من صوتها : وارتعبت على قدميها . وفي اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة ، الحسنت شفني ببديها ! ولست أدري هل كانت قد سمعت أي نبأ عني ، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة أو استياء . بل قالت في صوت حنون : « يا صغيري المسكين ! أهذا أنت مرة أخرى ؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذا الرحلة . أننى مقبلة على أية حال لأنها لم تفتحه إلى ما كنت أخشاه ! » .. ثم حملتني على أن أروي لها قصتي ، التي لم تكن طويلة ، والتي رويتها بأمانة ، وإن كتبت بعض تفصيلات قليلة . نون أن أفسر على نفسي أو أستريح لها الاعتذار !

وكان تدبير المكان الذي أنام فيه مشكلة ، فاستشارت وصيفتها . ولم أجسر على أن أتبس ببنت شفة خلال الحديث ، ولكني لم أكد أسمع أن يوسعي أن أنام في الدار ، حتى كتبت أعجز عن تمالك نفسي ! .. ورايت متاعى القليل بحبل إلى الغرفة التي عيئت لي ، بمثل المشاعر التي رأى بها «سان برو»

محفته تنقل إلى مأوى عربات مدام « دي ولار » (١) . ومما ضاعف أفتباطي أننى علمت أن هذه الخلوة لم تكن أمراً عابراً ، ففى اللحظة التي كان يبدو على فيها أننى أفكر في شيء آخر ، سمعت السيدة تقول : « دعيهم يقولون ما يشاءون » ، فقد عقدت العزم - بذ ردة العناية الالهية إلى - على أن لا أنارقه ! .

وهكذا استقر بى المقام أخيراً في دراهما . على أن هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذى اتخذته بداية لتاريخ الأيام السعيدة في حياتي ، ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم . فبالرغم من أن هذا الشعور المرفق في القلب - الذى يجعلنا نغضب بأنفسنا غبطة صادقة - هو من صنع الطبيعة ، وربما كان من نتاج نظائرها . فانه يتطلب مواقف معينة تنميه . وبدون الأسباب التي تحدث هذه التنمية ، فإن الرجل الذى ولد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشيء . وربما مات دون أن يعرف قط حقيقة نفسه ! . ولقد كان هذا هو الشأن معي - أو ما يقرب منه - حتى ذلك الحين . وربما كنت مسوقاً إلى أن أبقي كذلك دائماً ! لو لم يقدر لى أن أعرف مدام دي فاران ، أو لو أننى - بعد أن عرفتها - لم أقم معها وقتاً كافياً لأن استمريء خلوة المشاعر الرقيقة الحانية التي ألهمتها . بل إننى لأجرؤ على القول بأن ذاك الذى لا يشعر بغير الحب

(١) «سان برو» و « مدام دي ولار » من شخصيات رواية «الجنيد» .



وحده ، لا يحس بلحلي ما في الحياة . فانا اعرف شعورا آخر ربما كان أقل سودة وحارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة ألف مرة ! .. وهو قد يقتزن أحيانا بالحب . ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه . وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة ، وإنما هو أشد منها عنفا في غوايته ، وأكثر حنانا في رفته . ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك . وعلى كل حال « نأني عرفت الصداقة كما لم يعرفها أي رجل آخر » ومع ذلك فأنا لم أحس بهذا الشعور في حضور أي شخص من أصدقائي . وهو شعور غامض خفي إلى حد ما ، ولكنه لا يلبث أن يتضح فيما بعد ، وفيما يتجم عنه - فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية . إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام دي فاران تقيم في بيت عتيق ، بالغ الاتساع بحيث يحتوى على غرفة بديعة تزيد عن حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس . وفي هذه الحجرة أنزلتني . وكانت تفضي إلى الدرب الذي سبق أن تكلمت عنه ، والذي تم فيه أول لقاء بيننا . وعلى خفة الجدول المقابلة : كانت البساتين والريف تبدو للعين . ولم يكن هذا المنظر غليل الشان بالنسبة للشباب الذي شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى - منذ كنت أقيم في ( بوسى ) - التي رايت فيها أبة خضرة أمام نافذتي ! كنت دائما محوطا بالجدران . وليس أمام عيني سوى سقوف الدور ، أو سيرة الطرقات الكالحة . .. فبأى طرب شعرت بسحر التجديد الذي عزز مبلى إلى المشاعر الرقيقة

الحائية ! .. لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من الوان كرم ربة نعمتي العزيزة : ولاح لى أنها هي التي وضعت كل شيء هناك ، خصيصا من أجل . فقرست نفسي عنك إلى جوارها ! وقد امتلات بهناء وادعة .. وصرت أرى راعيتي في كل مكان ، وسط الزهور والخضرة . كانت مفاستها تمتزج بمفاتيح الربيع أمام عيني بطريقة لا يلم بها إدراكي ! .. وانتفخ قلبي - الذي كان مكبوتا حتى ذلك الحين - وامتد في هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراني تجد متنفسا طليقا وسط البساتين !

ولم أجد لدى مدام دي فاران الإبهة التي رايتها في (تورين) ، ولكني وجدت نظائرها « وناقاة » ، وخيرا فياضا ، لا تقتزن بها الفطرسية والكبرياء قط ! .. كانت تهلك أطباقا قليلة العدد ، نلا صيني ولا خزف ، ولا لحوم في مخزن المؤنة ، ولا خمر أجنبية في أقبية القصر ! .. ولكن المطبخ وقبر الدار كانا مزودين بما يكفي أي امرئ ، وكانت السيدة تقدم في الاقتراح الدلفية (١) قهوة رائعة . وكان كل من يزورها يدعى إلى العشاء على مائدتها . وما من عامل ، أو رسول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن ياكل ويشرب . وكان خدماها يتألفون من وصيفة - على قسط من الجمال - من بلدة ( فريبور ) تدعى « ميرسيريه » ، ووصيف من وطنها يدعى « كلود آتبه » - سأذكر عنه مزيدا فيما بعد - وطاهية « واثنين من الحمالين

كاننا يستأجران لحمل المجفة « السيدان » (٢) في المناسبات النادرة التي كانت السيدة تؤدي فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عينا على معاشي سنوي قدره ألفا « ليرة » ، لولا أن دخل السيدة الضئيل كان - إذا أحسن تدبير انفاقه - كافيا في بلد كانت الأرض فيه سخية جدا . والنقود شحيحة جدا ! ولكن الاقتصاد لم يكن لمساء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة . فكانت تستدين ، ثم تتفجع بقدر ما تستطيع . كانت النقود تذهب في كل ناحية . والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسير !

وكانت الطريقة التي نظمت بها دارها هي عين ماكانت اثره لو عهد إلى اختيار هذا التنظيم ، ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سروري بالحياة معها ، والإفادة منها . أما الأمر الذي كان أقل مدعاة للسرور . فهو أنني كنت مضطرا إلى أن أبقي جالسا إلى المائدة وقتا طويلا ، فقد كانت السيدة لا تكاد تحتمل أن تشتم العير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تحمل إلى المائدة ، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت ، ولكنها لم تلبث أن تماكنت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المائدة انصرفت إلى الكلام ، دون أن تاكل شيئا ، فلم يكن ينقضى أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم ! وكان يومسعى -

(١) « السيدان » هي محلة مؤلفة من مئتين ذى مظلة ، يصطحب رجلان ،

وكانت من مركبات ذلك العصر .

في هذه الفترة - أن أتناول ثلاث وجبات . ومن ثم فأنني كنت دائما أفرغ من طعامي قبل أن تشرع هي في الأكل بوقت طويل . وقد اعتقدت - لكي أؤنسها - أن أشرع في الأكل مرة أخرى ! وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين . وما تسمرت إطلاقا بضمير من ذلك . وبعبارة موجزة : أسلمت نفسي للذة الشعور بالراحة . التي كانت تخابرنى عندما أكون معها - لا سيما وأن هذه اللذة التي كنت أمتثلها كانت خلوا من أى قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها ! . . ولما لم أكن قد اشركت بعد - بلقة تامة - في شؤون السيدة ، فقد رحت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام . ولقد وجدت نفسي هذه الرفاهية في دارها في أوقات أخرى بعد ذلك . ولكني كنت قد ألمت بحقيقة وضعها ، وثبتت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تسلمها ، ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التي شعرت بها في ذلك الوقت ! . . إن النطع إلى المستقبل يفسد دائما معاشي . فليس من المنيد لي في شيء أن أفتنأ بالمستقبل . إذ أنني لم أعرف البتة كيف أتفاداه !

ولقد تولد بيني وبين مدام دي غاران - منذ اليوم الأول - اكمل ود والفة ، وقد داما خلال ما بقي من عمرها . كان اسمي لديها « الصغير » ، وكان اسمها عندي « ماما » ، وقد ظللنا دائما « الصغير » و « ماما » . حتى عندما محت السنوات كل فارق بيننا تقريبا . وإني لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائجة عن لهجة أحابثنا ، وعن بساطة الأسلوب الذي كان مرعيا في سلوكنا ، وعن السلوكيات التي

قبل كل شيء آخر ! .. كانت - بالنسبة لى - أرق أم ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائما إلى ما فيه الخير لى . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلتها بى ، فإنها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر ممتنة .. وأكرتني ببهجة الظفر بأمر شابة حسناء كنت أجد غبطة في أن الاطفاها (١) .. « الاطفاها » بأدق ما في الكلمة من معنى « فما خطر لها قط أن تقتصد في قبيلات الأم ، أو في عنقاتها الرقيقة وملامفاتها ، ومن المؤكد أنه لم يخطر ببالي إطلاقا أن أسوء استغلال ذلك - وقد يقال إننا - في النهاية - ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإنى لأقر بهذا ، ولكنى أرى أن أتريث قليلا - فليس في رسمى أن أروى كل شيء في التو !

كانت لحظة لقائنا الأول ، هي اللحظة الوحيدة التي جعلتني أشعر بها بلينة بالانفعال العاطفى الحقيقى . على أن هذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة .. ولم نجسر نظراتى قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذى كان يحيط بعنق السيدة ، برغم أن سوء التستر على بدانة هذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم أكن أشعر في حضورها بأية نزوات أو شهوات ، بل كنت في حالة استجمام فائق واستمتاع ، وإن لم أدر غيم كان هذا الاستمتاع ! .. وكان بوسعى أن أقضى في هذه الحال كل حياتى الدنيوية ، بل وحياتى الأخرى ،

(١) الملاحظة هنا يقصد بها الشمس والنبيلات والنزل .

دون ما لحظة من الملل والسأم . فان مدام دي تاران عى الشخصى الوحيد الذى لم أشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطراب إلى المضى فيه ضربا من التضحية والاستشهاد ! .. ولم يكن كلامنا الهامس في خلواتنا حديثا يقدر ما كان ثمرته لا ينضب لها معين ، ولم نحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها ! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعونى للكلام . بل كانت الحاجة إلى مرضى السكوت على أكثر أروما . وكانت كثيرا ما تستغرق في شروء حالم لفرط تفكيرها المستمر في مشروعاتها . فكنت أتركها لأفكارها ، وأمسك لسائى : وانظر إليها .. وإذا ذلك كنت أسعد الرجال ! .. وكنت لا أزال أحتفظ بخيال غز ، فكنت أسعى دائما إلى مسايرتها دون من ولا تظاهر بصنيع . فقد كنت استرى هذه الخلوات بسف يتطور إلى جنون عندها كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما إن يفد أحد - سواء كان رجلا أو امرأة - حتى أغادر الحجرة وأنا أزهجر ، عاجزا عن أن أتى في حضور طرف ثالث ! وكنت أبيع في حجرتها الداخلية ، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف - الذين يلبون الانصراف - ألف مرة . وأنا لا أقوى على أن أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. لقد كان لدى ما يفوقه !

ولم أكن أشعر بقوة تعلقى بالسيدة إلا عندما كنت لا أراها .. ولا كنت هاتئ البال إلا حين أراها - فإلى غاية كآلى نسى يصبح ليلى . كانت حاجتى إلى العيش بها تزداد يوما بعد يوم .

عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع ! ولن أنسى مطلقا اننى فى يوم عيد من الاعياد مضيت للقرعة خارج المدينة . بينما كنت فى قدامى المساء .. وشعرت ان قلبى قد امتلأ بصورتها ، وبرغبة متأججة فى ان اتضى حباتى معها . وكنت من الإدراك والعقل بحيث ارى ان هذا كان مستحيلا فى وقتى الراهن . وان السعادة التى كنت استمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا فى خواطرى مسحة من الاسى . لم يكن فيها - مع ذلك - أى اكتئاب . بل كانت تخفف منها آمال مرادة .. كان صوت الأجراس - الذى كان يهزنى دائما بوجه خاص - وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار ، والمنظر الطبيعية الساحرة ، والمسكن القروية المنساعة التى كان خيالى يتخذ منها مقاما لنا .. كل هذه كانت تخلق فى نفسى تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا ، يهز اوتار قلبى إلى درجة ارى معها اننى اُنقل فى قيبوبة حالمة إلى ذنبك الوقت والمكان السعيدين ، اللذين كان قلبى فيها يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها فى انشاء لا سبيل إلى وصفه ، دون ادنى تفكير فى لذة شهوية . وما أذكر البتة اننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خاخرنى فى تلك المناسبة . وكان اعظم ما ادهشنى من ذكرى هذا الحلم بعد ان تسنى له ان يتحقق ، هو اننى الفيت الاسور تطابق تماما ما تصورته فى الخيال . وإذا قدر يوما لأحد احلام البقطة التى تراود ذهن إنسان ما ان يكون شبيها برؤى النبوة : فهو حلمى هذا بالتأكيد . فما خدعنى خيالى إلا فى الأمد الذى



تصورته ، فقد تهطلت في العلم ان حياتنا معسا امتدت اياما واعواما في سكونية صافية هابية لا يعكرها شيء .. في حين ان هذه الحال لم تدم .. في واقع الحياة سوى لحظة .. ويا لحسرتي ! .. فإن أبقي سعادة ظفرت بها ، إنما كانت حلما لم تلبث البقطة ان اغفيت تحققة في الحال !

ولن افرغ من مهني إذا أنا خضت في توصيلات كل الحماقات التي كان تذكرني لهذه الام العزيرة يحملني على ارتكابها عندما لا أكون في حضرتها : فكم كنت أقبل سريري لأنها نابت فيه يوما ، وستائري وكل اثاث هجرني لأنها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها ! .. حتى الأرض كنت انتقلب عليها ما دامت هي قد خطرت فوقها ! .. وكنت أحيانا ارتكب - في وجودها - نزوات ما كان ليؤحى بها سوى اعنف الوان الحب ! وقد حدث ذات يوم ان كنا نجلس إلى المائدة ، وما أن وضعت قطعة من اللحم في فمها ، حتى هتفت قائلا إنني لمحت شعرة فيها ، فزعت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها في لهفة وابتلعها ! ويأججار ! لم يكن بيني وبين أشد العشاق ندلها سوى مارق واحد - ولكنه جوهرى - يجعل حالتي فوق كل تصور وإدراك !

وكنت قد عدت من إيطاليا على غير ما ذهبت إليها ، بل أعلنني عدت منها كما لم يعد قط أى امرئ في منى ، فقد حملت معى - في عودتي - طهرى الجسدى ، وإن لم احتفظ بطهرى العقلى والخلقى ! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيرا لطباعى الثقلة غير المستقرة أن تغدو ملموسة محسوسة ، وقد

سبب لى تجليها لأول مرة - على غير إرادة منى - أنزعاجا بشان صحتى ، بدرجة تبين أكثر من أى شيء آخر مدى البراءة التي كنت أعيش فيها حتى ذلك الحين - وما أن اطمأننت ، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التي تعاون تلك الطباع ، والتي تفرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجى ، كثيرا من الاضطرابات والوان الإفراط ، على حساب صحتهم وقوتهم و .. حياتهم أحيانا ! ولهذا الرذيلة - التي برزح إليها الخجل والجبن - إغراء عظيم يجتذب التخييلات : ذلك هو - كما ينبغي أن يقال - حشد الجنس بأسره لإرضائها ، واستغلال الجمال للمذاها ، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته أو رضاه ! .. وتحت إغراء هذه الخلقة المهلكة : جبهت في تدمير البنية البديعة التي منحنيها الطبيعة « والتي أنحت لها الوقت لتتسق في تشكيلها . أضف إلى هذه العادة ظروف مركزى الحالى » إذ كنت أقيم في دار امرأة جميلة : أداعب طيفها في قرارة قلبى « وأراها باستمرار طوال النهار ، واحاط في الليل بأشياء تذكرنى بها : وأنام في سرير مرغت أنها كانت تنام فيه ! .. غاية بثرات هذه ! إن القارئ الذى يتأملها لنفسه يرى ولا ريب أنني كنت في منتصف الطريق إلى الموت بالفعل ! ولكن الأمر كان على نقبض ذلك تماما ، فإن الشيء الذى كان خليقا بأن يقضى على « كان عين ما انتقضى : ولو إلى حين : ففى انتشائى بسحر الإقامة معها ، وبالرغبة الجاهجة أن أنفى أيامى بقربها ، كنت أرى قديما دائما - سواء كانت غائبة أو حاضرة - أنها جثتي وأنا جثتها

حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا أكثر من هذا ! .. هكذا كنت أراها دائما ، وهكذا كانت دائما ، فلم أكن أرى سواها قط ؛ وكانت صورتها الماثلة في قلبي دائما لا تدع مكانا لأحد البتة ! .. كانت لي المرأة الوحيدة في العالم - وكانت العذوبة البالغة التي انسم بها ما كانت تلهي من مشاعر ، لا تدع لحواشي وقتا تستيقظ فيه على غيرها - بل كانت تعصمني منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول أنني كنت حقيقا « لأنني كنت أحبها ! .. ليليل من يستطع - على ضوء هذه النتائج التي لم أحسن وصفها - أي نوع كان تعلقي بها ! .. أيا أنا ، فكل ما أملك أن أقول عنه هو أنه إذا كان يبدو جد غريب ، فإنه سيبدو في عواقبه غريب !

وكننت أفنى وقتي على خير وجه ، وإن شغلت بأقل ما كان يروق لي من أشياء - كانت ثمة مشروعات تدبر ، ومفكرات تنسخ مصححة ، ووصفات تنقل ، وأعشاب تنتقى ، وعقاقير تصنع وتفسق ، وأنايبق ( أجهزة للتطهير ) تراقب .. وفي غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمسولون والزائرون - من كافة الملبغات - لا يكونون عن الوفود زرائف - فكنا نضطر إلى أن نستضيف جنديا وميدلبا وكاهنا وسيدة راقية ومطالب ماوى .. في أن واحد ! وكننت اسب ، وأزمر ، والحن ، وأتمنى أن يتخطف الشيطان كل هذه الثروة اللعينة - أما بدمام دي غاران - التي كانت تتقبل ذلك بحسن نية - فكانت غضباتي تضحكها حتى تدمع عيناها ، وكان بضاعف من ضحكها أن تراني أزداد سخطا لأنني لم أكن أملك أن أصد

نفسى عن الضحك ! .. كانت الفترات القصار التي كنت أحظى فيها بالزنجرة - لحظات ساحرة ! .. ولو أن قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الفقلاء أقبل خلال الجدال - فإن السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بأن تعطيل الربرة في تخابث - وهى ترميني بنظرات أود معها أو أضربها ! وكانت تتهاك نفسها بعفاء حتى لا تنفجر مبهتة ، إذ تراني اتجاد وأكظم مشاعري نادبا ، وأرمتها كشخص مسلوب النهى - في حين أنني كنت في قرارة فؤادي - بل ورغما عن نفسي - أرى الأمر كله داعيا للضحك !

ولئن لم يكن كل هذا يسرنى ، إلا أنه كان يروق لي ، لأنه كان يولف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجنى - ولم يكن في كل ما كان يجري حولى - ولا في كل ما كنت مضطرا إلى عمله - شيء بلائم فوقى - ومع ذلك فقد كان كل شيء يروق لفؤادي - واعتقد أنني كنت قتيبا بأن أميل إلى الطيب ، لولا أن نفورى منه سبب تلك المناظر المضحكة التي أطربتنا كثيرا .. ولمصل .. هي المرة الأولى التي يخلق فيها هذا الفن اثرا كهذا . كنت أزمه أن بوسمى إن أعرف أى مركب طيبى من رائحته ، وكان الطريف في الأمر أنني نادرا ماكننت أخطئ ! ولقد حملتني بدمام دي غاران على أن أذوق أنطع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من التفرار أو محاولة الدفاع عن نفسي ، فبالرغم من مقاومتي ومن عبوسى - وبالرغم من اصطلاك أسناني ، كنت اضطر أخيرا إلى أن أفتح فمى عند ما أرى أصابعها الجميلة - بالقرم - بالقرب منه ، فماتصتها

دارها يجتمعون في حجرة واحدة ، يسمعون جريتا وصراخنا وضججتنا ، كان أى امرئ خليقا بأن يظن أننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والاكاسير !

على ان وقتي لم يكن وقتنا على هذه الحفلات . فقد وجدت في الغرفة التي كنت أشتغلها بضمة كتب : « المنفوج » ، و « بيفندروف » ، « سالت ايفريموند » ، والقصيدة « الهنرية » . ومع اننى لم أكن أحتفظ بجنوني القديم بالقراءة ، إلا اننى كنت أقرأ قليلا عندهم لا أجد شيئا آخر انعله . وكان كتاب « المنفوج » يلذ لى بوجه خاص ، وقد اثبت انه كان ذا نفع لى . وكان الأب دى جوفون قد علمنى أن اقرا في غير إسرار ، وبمزيد من التأمل ، ولهذا أصبحت المعلقة أكثر فائدة لى . وعودت نفسى أن افكر في اللغة والاسلوب وبلاغة تركيب العبارات ، كما دريت نفسى على أن اميز الفرنسية الفصحى من التعبيرات الإيطالية . وتعلبت كيف اصصح الكلام من الاخطاء المهجائية التي كان يشاركنى في ارتكابها جميع أهل ( جنيف ) !

وكنت اتحدث إلى « ماما » أحيانا عن مطالعائى ، كما كنت أقرأ لها أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم ، وأحاول أن اتقن القراءة ، وكان هذا - بدور - مفيدا لى . ولقد ذكرت انها كانت ذات عقل مستقل ، كان ذلك الوقت بالذات في عنفوانه . وقد أبدى عدد من رجال الادب شوقا إلى الظفر بالخطوة لديها ، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التي تتم عن عبقرية . وكان لها ذوق « بروتستانتى » بعض الشيء - إذا جاز لى أن

اقول هذا - فلم تكن تتكلم إلا عن « بابل » ، وكانت تقدر القديس « ايفريموند » الذي مات في فرنسا قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرف إلى أى أدب طيب ، وأن تناقشه في طعنة . وكانت قد نشأت في مجتمع رقيق ، ووفدت على ( سافوا ) وهي بعد صغيرة . وفي الوسط البهيج الذي يعيش فيه عليه النجوم في هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم ( لود ) في الحديث ، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالعارائف والحكم الشعرية !

ومع انها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلات الملكي ، إلا انها الفتت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقائه فيه ، وعلى الرغم من الدانس الخفية المنبعثة عن الفيرة ، وبالرغم من الاستياء الذي كان يسلكها ودونها كثيره ، إلا انها لم تفقد قط معاشها . ولقد أوتيت خبرة بالذات « ومقدرة فكرية على الإفادة من هذه الخبرة » فكانت تؤلف افضل موضوع في احاديثها . وكان هذا بالذات هو الموضوع الذي أجدنى في حاجة ماسة إلى الإلمام به ، بالنسبة إلى آرائى الخيالية . . . ولقد قرأنا كتاب « لابروير » ، فأعجبنا أكثر من كتب « لاروشفوكو » الذي كان أديبا كئيبا ممضا ، لا سيما للشباب الذين لا يكتفون لرؤية الناس على حقيقتهم . وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانا في خطب طويلة ، ولكنى كنت أتزود لاحتمالها بتقبل فيها وبديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسبابها بضجرى !

أنها كانت الوحيدة التي كنت أسر برؤيتها في دار « ماما » .  
ولقد رأتني السيد « دوبون » . وحدثته قربيته عني ، فتكفل  
باحتضاني ليري ما أصلح له - فإذا ما وجدني أهلا لشيء ، بحث  
لي عن منصب !

وارسلني مدام غاران إليه في صباحين أو ثلاثة متعاقبة ،  
بحجة بعض مهام لها - دون أن تبصرني بشيء . وأفلح الرجل  
في حملني على الكلام ، وأبدى لي الود ، وتيسط معي إلى أقصى  
ما أمكنه ، وتحدث معي في مسائل غير ذات بال ، وفي كافة  
الموضوعات . كل ذلك دون أن يشعرني بأنه كان يراقبني ،  
ودون أدنى كلفة ، وكأنه وجد في صحبتي مسرة فرغب في  
القسامر معي دون ما قيود - وأعجبت به . . وكانت نتيجة  
ملاحظاته أنني - برغم مظهرى الجذاب ولامحى الدالة على  
الفتنة - كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ، عديم المعرفة  
تقريبا - إن لم أكن غبيا . . . وبعبارة موجزة - كنت محدود  
العقل من كل الاعتبارات ، وكان أرفع منصب بحق لي أن  
أصبو إليه ، هو أن أصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى ا  
هكذا كانت النتيجة التي قدمها عني لمدام دي غاران - وكانت  
هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي يحكم على فيها بمثل ذلك .  
بل إنها لم تكن المرة الأخيرة ، فكم من مرة عزز فيها رأى السيد  
« ماسيرون » .

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلفي ارتباطا وثيقا  
لا داعي معه إلى أى إيضاح هنا . ذلك أنه - اليوم -  
صراحة - أثني لا أستطيع أن أقول شيئا من ذلك .

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تنوم . وكنت أشعر  
بذلك ، فكان اغتنامي بالإشفاق من أن أراها ختته هو الشيء  
الوحيد الذي عكر استمتاعي بها ! وكانت « ماما » في وسط  
مداعباتها تدرسنى ، وترافقنى ، وتسالننى ، وترسم - من أجل  
تقدمي - مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة . ولحسن الحظ  
أنه لم يكن كافيا أن تعلم ميولي وأذواقى وامكانياتي ، بل كان  
من الضروري البحث عن غرض لاستخدامها على وجه نافع .  
أو « خلق » هذه الغرض . ولم يكن هذا بالعمل الذي يتم في  
يوم واحد - بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتي كانت  
المسكينة تتخذها إزاء مواهبى ، كانت - في الوقت ذاته -  
سببا في تأجيل لحظات تطبيقها بالذات . إذ كانت نجعلها  
تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل ، وبالإيجاز : سار كل  
شيء وفق رغباتي بفضل حسن رأيها في . ولكن هذه الحياة  
كانت مسوقة إلى نهاية . إن عاجلا أو آجلا . . . وإذا ذلك ،  
وداعا لكل أمل في الطمانينة ! . فقد جاء لزيارة مدام دي غاران  
قريب لها - يدعى السيد « دوبون » - كان رجلا عظيم الذكاء  
يجيد الفس ، وإذا عبقرية - مثل قربيته - في رسم المشروعات ،  
ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضى عليه . كان من  
المغامرين ! وكان قد اقترح على الكاردينال « دي غليري »  
مشروعا لتنظيم « يائصيب » ، بلغ من تمقده أنه لم يلق مقبولا .

نجا بعرضه على بلاط ( توريين ) ، حيث قبل ونفذ . وقد مكث  
هذا الرجل بعض الوقت في ( النيسى ) ، حيث عشق زوجة وكيل  
الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبة إلى ذوقي ، حتى



واننى - بكل حيدة وتجرد عن الهوى - لا أستطيع ان اتقبل كل ما قاله السيدان « ماسيرون » و « نويون » وغيرهما على علاته !.. فليقد اتحد في نفسى شيان متنافران تقريبا « بطريقة لا املك ادراكها : طباع حادة ، وعواطف محتدمة مسخبة .. وفي الوقت ذاته ، افكار بطيئة النمو ، بهوشة - لا تكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان . ومن الممكن أن يقال إن قلبى وعقلى لا يمتان إلى فرد واحد . فان الشعور يستحوذ على نفسى بأسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكوئنى ويعشى بصرى ، بدلا من أن يثيرنى . فإذا بى أحس بكل شيء دون أن أرى شيئا ! إن العواطف تجرمنى ، ولكنى بطيء التفكير ، لا بد لى من أن أسرى من نفسى حدة الانفعالات لى أستطيع أن أفكر . والعجيب فى الأمر هو اننى - برغم ذلك - أوثيت رأيا مؤكدا الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة فى الحكم ، إذا ما اتيت لى الوقت الكافى .. واننى لأصدر آراء عاجلة إذا تركت وشائى ، ولكنى لم انه يوما بشيء ذى قيمة فى اللحظة التى طلب إلى فيها ذلك ! وبوسعى أن أجيد النقاش عن طريق التراسل ، بنفسى التهج الذى يقال عن الاسبان أنهم ينتهجونه فى لعب الشطرنج . وعندما قرأت عن أحد دوقات « سافوا » أنه قطع رحلته وعاد ليصبح : « سائق على عنتك ايها التاجر الباريسى » ، لم أتمالك ان أقول : « هكذا انا ! »

هذا البطء فى التفكير مع فورة الشعور ، لا يلازمائى فى الحديث فحسب ، وإنما هما معى حتى فى وحدتى ، وعندما أحمل ! .. فان أفكارى تنسق نفسها فى راسى ببناء لا يكاد يصدق ، إذ أنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخبر وتصور

حتى تحركنى وتبعث الحرارة فى كيائى ، فيفسارح خفنان قلبى . وفى غمرة هذا الانفعال ، لا أعود أرى أى شيء بوضوح ، ولا اقوى على أن اكتب كلمة واحدة ، وأضطر إلى الانتظار والتريث .. ولا يلبث الانفعال العظيم أن يخف بطريقة لا انتقها ، فينقشع الاضطراب « ويستقر كل شيء فى مكانه ، ولكن .. فى بطء ، وبعد انفعال طويل مريب - إنما قدر لك يوما أن تشهد « الأوبرا » فى إيطاليا ؟ .. ففى خلال تبديل المناظر : تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة ، تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كثافة الزخارف ( الديكورات ) بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب فى كل ناحية بشكل مؤلم ، حتى ليخال للمرء أن كل شيء قد انقلب رأسا على عقب ! ثم لا يلبث كل شيء أن ينظم شيئا فشيئا ، ولا يبقى أى نقص ، ويدعش المرء إذ يرى منظرا رائعا عتبه هذه الفوضى الطويلة ! هذه العملية تقرب من تلك التى تجرى فى مخى عندما أرغب فى الكتابة . ولو اننى تعلمت أن أتريث أولا ، ثم أجنى الأشياء التى ارتسمت فى ذهنى ، صاقتا جبالها . لما تفوق على سوى قليل من الكتاب !

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التى أجدتها فى الكتابة . وأن مخطوطاتى بها فيها من كسل وححو وسطور متداخلة ، وكتابة لا تكاد تقرا ، لتشهد بالعناء الذى تكبدنيه . فليس بينها ما لم اضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبل أن أستطيع أن أضع به إلى المطبعة ! وما استطعت قط أن أنتج شيئا جديدا إلى مئذنتى وأوراقى والقلم فى يدي .

لا يفوتنى منها شيء . وعندئذ ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه ، ونادرا ما أخطئ . . . ولو أنني سيطرت على طائفتي الذهنية قليلا . فيها بينى وبين نفسى . نفى وسع المرء أن يحدس ما كنت أصبح عليه من براعة فى الحديث . حيث يجب - من أجل الكلام فى الموضوع - أن أفكر فى ألف شيء فى نفس الوقت والمكان . ولكن مجرد التفكير فى التوفيق بين هذه الأشياء - التى أوقن من أنني لابد أن أنسى شيئا واحدا منها على الأقل - يكفى لى بيت الخوف فى نفسى ! بل إننى لا أنهم كيف يجد أى أمرىء الجراة على الكلام فى جماعة : حيث لا غنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضا الحاضرين ، مع كل كلمة . . . وحيث لا بد له من أن يلسم شخصياتهم وسيرهم . حتى يستوثق من تجنبه ذكر أى شيء قد يجرح شعور أحد منهم . ومن هذه الناحية - يمتاز الذين يعيشون فى الدنيا<sup>(١)</sup> بميزة جبرى هى أنهم يكونون أكثر من سواهم دراية بما لا ينبغي أن يصمتوا عنه ، وأشد اطمئنانا إلى ما يقولون . . . ومع ذلك ، فكثيرا ما نقلت منهم هفوات ، وهفوات . فما بالك بمن يسقط فى وسطهم من بين المسحب<sup>(٢)</sup> ! . . . إنه ليستحيل عليه تقريبا أن يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! . . . وهناك مضايقة أخرى فى المسارة - أى عندما

على صفحة ذهني بينما أتمشى وسط الصخور والقبابات . أو فى الليل وأنا مستلق فى فراشى مستيقظا - وفى وسع المرء أن يقدر ذلك البطء . سيما لدى إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام . وما قدر له فى حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب ! . . . بل إن من عباراتى وجهلى ما ظلت أظلمه وأديره فى رأسى خمس أو ست ليال . قبل أن يفسدو صالحا لأن يسجل على الورق ! وهنا أيضا السر فى أنني أكثر توفيقا فى أعمالى التى تتطلب جهدا . متى فى تلك التى تتطلب خفة أسلوب معينة : كالرسائل . . . وهى خفة لم يقدر لى قط أن أتمكن من الإلمام بها . ومن ثم فإن هذه المهمة ترهقنى . فليست أكتب رسالة فى اتفه موضوع - إلا وتكبدنى ساعات من الضنى . . . كما أنني إذا حاولت أن أكتب فورا ما يعملى . لا أدري كيف أبدا ولا كيف أنتهى . ومن ثم تكون رسالتى لقوا طويلا موهشا ، يلقي المرء عناء فى فهمه إذا ما قراها !

ولا تكبدنى الأفكار عناء فى تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدنى العناء ذاته فى تلقيها . لقد درست الناس - واعتقدت أنني قوى الملاحظة ، ومع ذلك فأننى لا أملك أن أرى بوضوح شيئا مما أشهده ، وإنما أتمثل بوضوح ما أذكره ، ولا أبدى اللفظة إلا فى ذكرياتى . . . فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجرى فى حضوري ، لا أشعر بشيء ولا أتفلفل ببصيرتى فى شيء . وإنما الذى يؤثر فى هو الظاهر وحده ! . . . بيد أن كل شيء لا يلبث أن يرتد إلى ذهني فيما بعد ، فأذكر المكان ، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظروف . . .

(١) بقصد الذين يخطئون مآثنا ويقتلون المجتمعات .

(٢) بقصد الذى يعيش بعيدا من المجتمع .  
 www.dvd4arab.com

أحدثت مع شخص ما في خلوة - أجدها انكى مما سبق : تلك هي ضرورة الكلام باستمرار . فإذا وجه إليك الحديث ، كان عليك أن تجيب . . وإذا لم توجد كلمة تقال - كان عليك أن تحبى الحديث من جديد - هذا الاضطراب الذى لا يطاق ، هو وحده الذى يفترنى من المجتمع . ولست أجد ضيقاً انقطع من الاضطراب إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال . ولا أدرى ما إذا كان لهذا أى شأن من كراهيتى المميتة لكل قهر . من أى نوع . بيد أنه يكتينى أن أكون مضطراً إلى الكلام ، لكى أنطلق فى لغو لا محيص منه .

أما ما يفوق هذا شناعة : فهو أنني بدلاً من أن أستطيع أن أمسك لسانى عندما لا أجد شيئاً يقال ، إذا بى أجد نفسى - فى هذا الوقت بالذات - أكاد أجن شوقاً إلى الكلام ، لأرد الدين بأسرع ما أستطيع . . - فأبادر إلى إطلاق عبارات منلعمة خالية من أية فكرة . وتشتد سعادتى إذا كانت لا تمنى شيئاً على الإطلاق . وإذا أحاول أن أغالب أو أن أخفى غيائى ، فأننى نادراً ما أخفق فى إقهاره ! ومن ألف مثال أستطيع ذكرها ، اختار واحداً لا يمت إلى أيام الصبا ، وإنما إلى وقت كان خليقاً بى أن أكون قد اكتسبت عنده يسراً فى القول - إن كان هذا ممكناً - بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس . فعلى ذات مساء ، كنت أجلس بين سسيتين عظيمتين ورجل يحق لى أن أذكر اسمه ، وهو السيد الدوق « دى جونتو » . ولم يكن ثمة سوانا فى الحجرة ، وقد رحلت أجاهد فى سبيل ذكر بضع كلمات - يعلم الله ماذا كانت -

خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص ، كان بينهم ثلاثة فى غير حاجة - بالتاكيد - إلى تعقيبى . وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوماً لعلاج معدتها . وإذا رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن - استمزازاً من الدواء - قالت ضاحكة : « أهذا الدواء من لدن السيد ترونشان » . فنجابتها الأولى بنفس اللهجة : « لا أظنه ! » . وهنا عقب روسو الذكى فى تأدب : « أظن أنه لا يفوقه فى شيء ! » (١) . وبقي الجميع واجمين ، فلم يبق أحد باتفه كلمة أو بأصـال ابتسامة . وبعد لحظة ، اتخذ الحديث اتجاهها آخر . وما كانت هذه الفتلة لتبدو - فى أى مجلس آخر - سوى نكاحاً . أما وقد وجهت إلى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لا تحب أن تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدى - بكل تأكيد - أية رغبة فى مس شعورها ، فقد بدت شنيعة ، واعتقد أن الشاهدين - الرجل والمرأة - مانياً كثيراً لكى يكبحا الضحك . هذا مثال لفترات الذكاء التى تمنعنى من الرغبة فى الكلام عندما لا أجد شيئاً يقال . . ولن أنسى بسهولة هذا الحادث . لا لأنه - فى ذاته - مما يعلق بالذاكرة ، وإنما لأنه يجول بخاطرى أنه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتى كثيراً .

(١) كان ادواء جويوا لطيفين المدة . ومن هنا أدرك أنه لم يكن من اللياقة أن يتدخل رجل فى حديث السيدتين اللتين لم تكونا سوى : دمام دى لوكسيبورج - وهى ربة البيت - ودمام دى لوكسيبورج - وهى ابنة زوجها .

وأعتقد أن هذا يكفي لبيان كيف أننى وإن لم أكن غيبيا . إلا أننى كثيرا ما ظن بى ذلك ، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . وبما يضاعف سوء حظى أن ملاحى وعينى توحى بفكرة أفضل . وأن خيبة هذا الحس تبدى هذا الغباء للغير بشكل أبشع . . . وهذا الإسهاب فى شرح الفكرة . الذى تولد عن مناسبة خاصة . ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتى فيها بعد . فهو يتضمن ما يجلى غوامض كثير من الأمور المشادة التى شوهدت منى . والتى تمزى إلى طبعاع وحشية غير اجتماعية . ليس لدى فى الواقع شيء منها ! لقد كنت خليقا بأن أحب المجتمع كأي فرد آخر . لو لم أكن مناكدا من أن ظهورى فيه ليس فى صالحى . فضلا عن أننى أبدو نفسى شخصا آخر غير ما أنا حقيقة . ومن ثم فإن الوضع الذى اتخذته وأنا أكتب وأعيش فى عزلة . هو عين الوضع الذى يناسبنى تماما . وأينما أكون حاضرا لا سبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتى . وأو تخمينها . وهذا ما جرى لدام « دويان » . ورغم أنها كانت امرأة ذكية ، وبرغم أننى كنت أعيش فى دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتنى . هى نفسها . بذلك كثيرا . فذلك الحين . ومع ذلك ، فإن لهذه القاعدة استثناءات ، سأعود إليها فيها بعد(١) .

أما وقد استقر مجال مواهبى عند هذه الحدود . فقد بعين الوضع المناسب لى واتضح للمرة الثانية . ولم يبق من سؤال

١١ استشهد أحد هذه الاستثناءات فيما سبقه روسو فى الكراسية الرابعة عن زيارته لجلس الشيخوخة فى ١ يون مع كبير الأساقفة .

سوى : كيف أملا مكانى ؟ . وكانت الصعوبة تتمثل فى أننى لم استكمل دراستى . ولم أكن أعرف . كذلك . من اللاتينية ما يكفي لكى أصبح قسا . وكانت مدام دى غاران قد مكثت فى بعض الاوقات . فى أن اتعلم فى المعهد الدينى . وتحدثت لى رئيسه . وكان راهبا لازاريا(١) . يدعى السيد «جرو» . طيبا . ضئيل الجسم . أوشك أن يفقد ابصار إحدى عينيه . كما كان هزيبا ، أشيب الشعر . وكان أعظم لازارى عرفته ذكاء . وأقلمهم غطرسة . . وما هذا القول بكثير عليه فى الحقيقة !

وكان يتردد أحيانا على دار « ماما » . فكانت تحتفى به . وتداعبه . وتعاكسه كذلك . وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها الكورسية . وهى مهمة كان يقبل عليها راضيا . وبينما يكون منهمكا فيها : تأخذ فى الجرى . فى الغرفة . من جنب إلى آخر . لتفعل شيئا هنا . وشيئا هناك . والسيد الرئيس يتبعها - مشدودا إلى الخيط - وهو يزجر ولا ينفك يقول : « ولكن . اتبقى يا سيدتى ! » . وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير !

وتقبل السيد «جرو» مشروع «ماما» بتحمس قلبى . ففتح بئجر مواضع لإقامتى . وتكفل بتعليمى . ولم يشترط سوى مراجعة الأسقف . الذى لم يمنح هذه الموافقة فنحسب ، وإنما

رغب في دفع نفقات إقامتي : كما سمح بأن اظل في ربي المديني  
إلى أن يقضى لي بالتجراح المنشود ، بعد امتحان !

\*\*\*

أي تحول هذا !.. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت  
إلى المعهد الديني وكائنني ذاهب إلى عقوبة البية ! فباللعمري  
من مأوى حزين كتيب : لا سيما لمن يارح لتوه دار امرأة حبيبة  
.. ولم أحصل معي سوى كتاب واحد ، رجوت « مايا »  
أن تمرني به ، وكان مصدر مزاء كبير لي . ولن يتصور أحد أي  
كتاب كان ذلك !.. لقد كان كتابا في الموسيقى !.. فبين  
المواهب التي نعتها « مايا » في نفسها . لم تكن الموسيقى  
منسية . إذ كان لها صوت عذب . وكانت تجيد الغناء .  
وتعزف - إلى حد ما - على « البيانو » . وقد فضلت بطلقتني  
بعض دروس في الغناء . وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول  
الأولى . إذ أنني كنت لا أكاد أدري شيئا من موسيقى مزاميرنا .  
وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدي امرأة - وهي دروس  
لم يكن مسبيل إلى استمرارها دون ما يعسكر جوها ويتقطع  
استرسالها - أقل بكثير من أن تمكنني من السمع الموسيقي .  
أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على أنني كنت من الشغف  
بهذا الفن بحيث رغبت في أن أحاول المراسم بنفسي . ولم يكن  
الكتاب الذي اصطحبته من الكتب ~~يسهلا~~ في ذلك . لقد



ونحنه أحيانا على أن يربط لها مشداتها ( الكورسيه ) ،  
وهي مهمة كان يقبل عليها راضيا !..

ولو قدر لي أن أمكث شهرين تحت رحمة هذا الوحش ،  
 فأتى موطن من أن راسي ما كان ليحتمل ذلك . ولكن السيد  
 جرو الطيب لاحظ أنني كنت حزينا ، وأنتى لم أكن أقبل على  
 الأكل . بل كنت ممعنا في الهزال « فادرك سر أساى - إذ لم  
 يكن هذا بالأمر العسير - » وأنقذنى من براثن هذا الحيوان . .  
 وبفناقض آخر ، شديد الغرابة هو الآخر - أسلمنى إلى الطف  
 الرجال : وكان راهبا شابا من أغوسيينى (١) . يدعى السيد  
 « جاتييه » . كان موشكا على الفراغ من الدراسة في المعهد .  
 وقد شاء - بدافع من الرغبة في إرضاء السيد جرو ، وبدافع  
 من الإنسانية على ما اعتقد - أن يسلب دراساته الوقت الذي  
 وهبه لتلقنى دروسى . والحق أنني أبدا ما رايت أسارير  
 أكثر تأثيرا في النفس من أسارير السيد جاتييه . . فقد كان  
 اشقر ، تميل لحيته إلى الحمرة . وله الهيئة المألوفة لدى أهل  
 إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وأمرا . على  
 أن ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، منعمة بالود .  
 وكان في عينيه الزرقاوين الواسعتين خلاب من الرقة والحنان  
 والأسى ، تجعل من المستحيل على أى شخص أن يراء دون  
 أن يميل إليه . . وكان من الممكن أن يقال « من نظرات هذا

تضمن أغاني « كليرامبو » . ومن الممكن تصور مدى إقبالى  
 وعنادى ، عندها أقول إننى ونقت - دون دراية ولا تبديل -  
 إلى أن أترجم وأغنى . دون خطأ . اللحن الأول من أغنية  
 « الفيه وأريئيز » وكلماتها . . وإن كان هذا اللحن - في  
 الواقع - موزونا بحيث لا يستلزم أكثر من إلقاء الشعر مع  
 مراعاة المسافات والوحد - لكى يكسب وقع الحن !

وكان في المعهد « لأزاري » لعين تعهدنى . فجعلنى أكره  
 اللغة اللاتينية التى أراد أن يلقتنى إياها . وكان له شعر ناعم ،  
 أسود ، ينضج بالدهن . ووجه كزغيف من خبز الزنجبيل (١) ،  
 وصوت كصوت الجاموس . ونظرة كمنظرة البومة ، ولحبة  
 كذقن التيس . . وكانت ابنسامة ساخرة . وأطرانه مظللة  
 كأطراف الدمية . . ولقد نسبت اسمه البغيض . ولكن وجهه  
 المخيف . ذا اللطف المتكلف . ظل باقيا في ذاكرتى . لا أكاد  
 أذكره دون أن ارتجف . ولا أزال أتصور أننى القاد في  
 الردهات . رائعا في جلال قلنسوته المربعة المفسخة . مشرا  
 لى بدخول حجرته ، التى كانت أبغض لى من غرفة  
 السجن ! . . فتصور - على سبيل المقارنة - استنذا كهذا  
 لتلميذ راهب كان ينتمى إلى البلاط الملكى !

(١) نوع من الخبز يخلط تحبته بالزنجبيل .

(١) مقلعة صغيرة في دوقية « مانتوا »

الشباب المسكين ومسلكه ، أنه كان على علم بمسيره ، وأنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا !

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء . مما جعله يبدو اقرب إلى الاستذكار معى منه إلى التدريس لى . . . وكان هذا وحده اكثر من ان يكفى لان يحملنى على حبه . . . ومع ذلك . فعلى الرغم من كل الوقت الذى منحنيهِ : وعلى الرغم من كل التحبس القلبي الذى وجهه كل منا إلى دراستنا . ومع أنه سار على خير نهج ، فأننى لم احظ من اجتهاده الجَم إلا بتقدم بسيط ؛ ومن الغريب اننى ، بما أوتيت من إدراك واسع . لم اتعلم شيئا من الاساذة - فيما عدا أبى والسيد لامبرسييه - أما القليل الذى عرفته فوق ما علمنيه هذان . فقد حصلته بنفسى . كما سيتجلى فيما بعد . فان روحى التى لا تصبر على أى نوع من التمر . لا تقوى على الرضوخ لحكم اللحظة . بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون ان أنتبه . كما أننى . خوفا من ان اجعل الشخص الذى يتحدث إلى يفقد صبره . أظهاره بالفهم . ومن ثم يمضى قدما فى حديثه . دون أن اعى شيئا ! فلا بد لعظمى من ان يحدد الوقت الذى يروق له للعمل . ولا يستطيع ان يخضع للوقت الذى يحدده له الغير !

وحان وقت تنصيب معلمى « شهابا » . حسب الطقوس

الدينية المألوفة ، فعاد إلى إقليبه ، وحمل معه حشراتى ، ومحبتى . وعرفائى . وقد قدمت من أجله نذورا لم تتقبل بأكثر مما تقبلت به النذور التى قدمت من أجل نفسى . ولقد علمت بعد ذلك بوضع سنوات ، أنه بينما كان نائبا لأبرشية ، انجب طفلا من فتاة كانت هى الوحيدة التى أحبها ، برغم قلبه المسرف الرقة . وكانت هذه فضيحة شنيعة فى أبرشية كانت تخضع لانتظمة شديدة . فان التساوسة - نظرا لخضوعهم لنظم طلية - ينبغى لهم الا ينجبوا اطفالا إلا من نساء متزوجات!! . . . ومن ثم فان القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفة هذا ، وفُضَح . وجرّد من رتبته . ولست ادري ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بسوء حظه نفثى بخلوط عميقة على قلبى . وقد عاودتنى قصته عندها كتبت « أميل » . تمزجت شخصيتى السيد جانبيه والسيد جايم . رجعت من هذين القسمين الفاضلين الشخصية الاصلية لأستق سائوا ، وإينى لأغبط نفسى لان الشخصية التى خلقتها لم نل من قدر الشخصيتين الاصيلتين !

وفى أثناء وجودى فى المعهد الدينى ، كان السيد دوبون قد اضطر إلى مبارحة النيسى ، . . . فقد خطر للسيد « كورفوي » وكيل الحكومة أن يستأجر غرامه . وكان هذا كنيته

بها جرى لكلب البستاني (١) . . ذلك لأنه بالرغم من أن مدام كورفيزي كانت ذات جمال يهفو بالقلوب ، إلا أن زوجها - الوكيل - كان يعيش معها على شقاق . إذ أن الأهواء التي ورثها عن أهل الجبال الثانية جعلت زواجه غير ذات نفع له . فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما . وكان السيد كورفيزي رجلاً شريراً ، أسود كالنفار الجبلي ، خطافاً كالحدأة ، وقد انتهى به استقلاله سلطاته إلى طرده من منصبه . ويقال إن أهل الريف يتشغون في أصدانهم بالأغاني ، أما السيد دوبيون فقد تشفى بمسرحية هزيلة . وقد أرسل عدة التمثيلية إلى مدام دي ناران ، التي اطلعتني عليها فاعجبت بها ، وتولدت لدى نزوة طالب مسرحية أخرى . لاري ما إذا كنت قد ظلمت « بهيما » كما وصفني يوماً ؛ على أنني لم أحقق هذا المشروع إلا في اشامبري ، حيث كتبت « عاشق نفسه » ! ومن ثم فأننى عندما قلت في مقدمة هذه المسرحية إننى كتبتها في الثامنة عشرة من عمري . إنما كنت أكذب . إذ إننى تجاوزت عن بضع سنوات ! .

\*\*\*

(١) الظاهر أن روسو يشير بهذا إلى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره .

وفي حوالي ذلك الوقت ، وقع حادث كان قليل الأهمية في حد ذاته . ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لى ، كما أنه أحدث ضجة في العالم عندما نسبت . فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة في كل أسبوع ، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك . وفي يوم من أيام الأحد ، كنت لدى « ماما » عندما شب حريق في إحدى بنايات « الرهبان السمر » . وكان ملاصفاً لدار مدام دي ناران . وكان هذا البنى - الذى اقيم فيه غرن الرهبان - ملتبساً بالوقود الجاف ، تسرعان ما أصبح كله شعلة من النار ، وأصبحت دار السيدة في خطر عظيم . وقد لفها اللهب الذى حملته إليها الريح . وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار ، وحمله إلى الحديقة التي كانت مواجهة لتوافذ حجرى القديمة . حيث كان بجري خلفها الجدول الذى تحدثت عنه . وكنت من الاضطراب بحيث رحلت القى من النافذة بدون وعى كل ما كان يقع تحت يدي . ولو كان حجراً كبيراً من أحجار الجدار كنت - في الأوقات الأخرى - لا أكاد أتوى على رنعمه . بل إننى أوشكت أن ألقى كذلك امرأة كبيرة ، لو لم يردنى شخص ما عن ذلك ! ولم يقنع الأستاذ الطبيب - الذى كان في زيارة « ماما » في ذلك اليوم - خاملاً . بل إنه انتقل بها إلى الحديقة ، حيث شرع يصلى معها . ومع كل من كانوا هناك . . حتى إذا وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل ، وجدت الجميع غائبين



على ركبهم ، فحذوت حذوهم . وفي أثناء صلاة الرجل التقى ،  
تغير اتجاه الريح فجأة ، وفي اللحظة المناسبة ، فاذا البسة  
اللبب التي كانت تحوط الدار والتي أخذت تسمى إلى النوافذ ،  
تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء ، فلم يصب البيت بأى سوء !

وبعد ذلك بعامين - وكان السيد دى برنيكىس . الأسقف ،  
قد توفى - شرع الرهبان الانطونيون ، وهم زملاؤهم السابقون ،  
في جمع الأنباء التي يمكن استغلالها في تطويبه (١) . واستجابة  
لرجاء الأب « بوديه » أضيفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعة  
التي ذكرتها ، والتي كتبت فيها على صواب . ولكنني أخطأت  
إذ قدمت على أنها معجزة ! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلى ،  
ورأيت الريح تتبدل أثناء صلاته . وفي اللحظة المناسبة تماما  
.. وكان ينبغي أن أفكر هذا وأشده به . أما أى الأمرين كان  
سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغي لى أن أشيد به . لأننى لم  
أكن أملك أن أعرفه . ومع ذلك فأتى - بقدر ما استطيع أن  
أفكر أرائى يومئذ - كنت كاثوليكيًا مخلصًا . ومن ثم فقد  
كنت صادق الإيمان ، ولكن حب الغرائب الخارقة - وهو  
طبيعى في نؤاد البشر - وتوقيرى لهذا الراهب الوقور :

(١) التطويبى المسيحية هو أن يعلن البابا - أو البطريرك لدى  
الارثوذكس - بأن شخصا قد حقق بالتحديد في السماء ، فأصبح في عداد  
القديسين - إذا كان ميتا - أو اقتراب من القداسة ، إذا كان على قيد الحياة .

والزهو المستقر بأننى ربما كنت قد ساهمت بنفسى في المعجزة ،  
ساعدت على تضليلى . أما الشيء المؤكد فهو انه إذا كانت  
تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقى أن  
أطالب لنفسى بنصيب قبيح !

وعندما نشرت « رسائل الجبل » - بعد ذلك بأكثر من  
ثلاثين عاما - نقب السيد « فويرون » بطريقة ما عن هذه  
الشهادة ، واستغلها في تعليقاته . وجدير بى أن اعترف بأن  
هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لى إذ ذاك أن إعلانه في تلك  
المناسبة كان أمرا سارا .

وكان مقدرا لى أن أكون طريد كل المهن . فمع أن السيد  
دى جانييه رفع عن تقدمى في الدراسة تقريرا اعتبرته أقل  
ما كان يوسعه أن يقدمه ، من حيث إيساعته لى « إلا انه رأى  
أن تقدمى لم يكن متناسبا مع مجهوداتى ، وأن هذا لم يكن  
مشجعا على المضي في دراستى . ومن ثم فان الأسقف ورئيس  
المعهد فصلانى وردانى إلى مدام دى فاران كشخص لا يصلح  
ولو لأن يكون مجرد قس . وإن كان - فيما عدا ذلك - فنى  
طيبا ، وخلوا من أية رذيلة ، كما قالا . وكان هذا هو السبب  
في أنها لم تنبذنى ، برغم تعدد الأحكام المبهمة ضدى !

وأعدت إليها - مزهوا - كتابها « المرسى النفسى »  
منه . وكان لحن « الفيه وأريشيز » هو « المرسى النفسى »

في المعهد الدينى . ولقد أوحى إليهما ملى الملاحظ إلى هذا الفن ، بأن تجعل منى موسيقيا ! وكانت الفرصة مواتية . فقد كانت الموسيقى تعرفى دارها مرة في الاسبوع على الأقل . وكان رئيس فريق الكانترائية الموسيقى يدبر هذه الحفلات الصغيرة . وقد اعتاد أن يتردد كثيرا على الدار . وكان باريسيا يدمى السيد « لوميتز » ، يارعا في التلحين ، كثير النشاط . مرحا جدا . لا يزال شايئا ، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء . . لكنه كان — في مجموعه — طيبا . وقد عرفتنى به « ماما » ، فملت إليه . كما أنه لم يتر منى . وبحسب أمر الأجر ، وتم الاتفاق . وبإيجاز . ذهبت إلى داره ، حيث قضيت أحب سماء لدى . إذ أن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل « ماما » . فكان بوسعنا أن نكون إلى جانبها في أية لحظة ، وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها .

ولابد أنكم أدركتم أن الحياة في دار « لوميتز » — بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والأطفال المنشدين « الكورس » — قد رافقت لى أكثر من حياة المعهد الدينى مع رعبان القديس لازار . على أن هذه الحياة ، وإن كانت أكثر حرية ، إلا أنها لم تكن أقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون أن اتسبى استغلاله البنية . ففى ستة أشهر كاملة ، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت « ماما » أو إلى الكنيسة ، ومع

ذلك فأننى لم أشعر بشوق إلى الخروج . كانت تلك إحدى فترات حياتى التى عشت خلالها في أعظم دعة ، والتى أذكرها بأعظم اغتباط . فمن بين الأوضاع المتباينة التى وجدت نفسى فيها . أوضاع امتازت مشهور من السكنى والدعة بجهلى — حين أذكرها — أتأثر بها وكأننى ما أزال فيها . فغلبت أفكر الأوقات والأمكن والأشخاص فحسب . وإنما أذكر كل الأشياء التى كانت تحبب لى . وحرارة الجو . وغير الوسط . ولونه . وأى طابع محلى لا يوجد إلا هناك . بحيث تردنى ذكرا الحبة إلى هناك من جديد . . . مثال ذلك أن كل ما كان يتردد في دار رئيس الفريق الموسيقى « وكل ما كان الفريق يتروم به . وكل ما كان يحدث هناك . وزى الشهامة الجميل . ومسوح القلوسية ، وفيجان المرتلين ، ووجوه الموسيقيين . ونجار اعرج طاعن في السن كان يعزف على الكمان الكبير « الكوفتيلس » . وراهب صغير أشقر يعزف على الكمان العادى ، والرداء الكتمى المهلبل الذى كان السيد « لوميتز » يرتديه فوق لباسه المدنى بعد أن ينزع عنه سيفه . والقبص الكليرومى البسيط . الرقيق النسيج ، الذى كان يستتر به الرداء البالى عنفها يسمى إلى فرقة المرتلين ، والزهو الذى كنت أسير به — وأنا بمسك بصافرتى الصغيرة — لأتخذ مكانى مع العازفين على « النعجة » ، لأنشرك في حجاب مقصوده صغيرة لحنها السيد « لوميتز » خطمت لى أحلى .

الفداء الطيب الذي كان ينتظرنا بعد ذلك ، والشبهة الملحوظة التي كلما نقبل بها عليه . . هذا التابع الحافل : الذي أنتمله ، تدفنتني — في ذكره — أكثر مما فتنتني في الحقيقة مائة مرة ! ولقد احتفظت دائماً بهيل عاطفي للحن معين من «كونديتور آلى سيديرم » يرافق شعرا من بحر الغيب (١) : لأنني سمعته مرة — في يوم أحد الصوم الكبير — وأنا مستلق في فراشي ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لمعادن تلك الكنيسة . ولقد كانت الآتسة « ميرسبريه » — وصيفة « مايا » — على دراية بتسقط من الموسيقى . ولن أنسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيد « لوميتير » يحملني على أن أغنيها معها ، فكانت سيدتها تصفي إليها في طرب عظيم . وتصارى القول أن الجميع . حتى الخادم الطيبة « بيرين » — وهي فتاة ساذجة اعتاد الفتيان المرتلون أن يثيروا غيظها — هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين فكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التي كثيرا ما تتراءى لي لطيربني وتحزنني !

وعشت في ( أنيسي ) زهاء عام دون ما لوم ولا تشريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عني ، فأنني — مذ غادرت تورين — لم أرتكب حماقة ، وما كان لي أن أرتكب ما دبت تحت بصر

(١) بحر من الشعر الأعجمي تكون الغالبية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين .

« مايا » ، فقد كنت ترشدني ، وكانت دائماً تحسن إرشادي ، وأصبح نعلقي بها هو عاطفتي المشبوبة الوحيدة . وما يدل على أنها لم تكن عاطفة رغاء ، أن قلبي كان يكون عتلى وإدراكي . ومن الصحيح أن نمة إحساسا واحدا كان يتطلع — كما يتبقى أن يقال — كل مقدراتي وكفاءاتي ، فجعل في غير استطاعتني أن أتعلم شيئا ، حتى الموسيقى ، بالرغم من أنني بذلت كل جهدي . على أنه لم يكن ذنبى . . . فقد كانت العزبة الطيبة متوفرة على اثم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكني كنت شاردا ذهن ، حالما . . فكنت أتهجد : ما الذي أملك أن أفعله ! لم يكن ينقص تقديي شيء من الأشياء المتوقفة على أنا ، ولم أكن احتاج — لكي أرتكب حماقات جديدة — إلى غير موضوع أو شخص « ملهم » يوحى إلى بهذه الحماقات . . . ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسي الغبي كيف يستغل ذلك ، كما سترى مما يلي :

نفى إحدى أمسيات شهر فبراير البارد ، سمعنا طرقا على الباب الخارجي ، بينما كنا نحيط بالخفاة . وحملت « بيرين » مصباحها ، وهبطت فتفتحت الباب ، وإذا بشاب يدخل ، ويصمد معها ، ويقدم نفسه في غير كلفة ، ويوجه إلى السيد « لوميتير » تحية قصيرة ، لبقة ، ويطلب أن يتحدث عني

دفعه سوء حالته المالية إلى أن يعرض خدماته على كتاتس الإبرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق في طريقه . وإزاء هذه الكلمات من « الموسيقي الفرنسي » ، خفق قلب « لوميتير » الطبيب . فقد كان يتدله في حب بلده وفنه . واحتفى بالمسافر الشاب . وعرض عليه مأوى الليلته ، وهو ما كان يبدو في أمس الحاجة إليه ، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة . وأخذت اتحصه وهو يتدفنا ويسمر في انتظار العشاء . كان تصور الغاية . عريض المنكبين . وكان ثمة عيب — لم أدر كتبه — في قوامه . دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كن — إذا صح التعبير — ذا طهر محدودب . مع استواء لوحى الكتفين . كما اظن أنه كان يعرج قليلا في مشيته . وكان في ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر مما أبلاه القدم ، فتهلل . . . وتيمص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشى ترين صدره ، وطياتين (١) كان بوسمه أن يدس ساقيه معا في أى منهما ! . . كما كان يتقى الصقيع بقبة صغيرة يستطيع أن بدسها تحت إبطه ! . . ومع هذا الزى المضحك ، فإنه كان على شيء من التبل لم تكن هيئته تكفه . كانت طلعه رقيقة بشوشة ، وكان ينكح بطلاقة

١: الطباقي . وقام يملو الحذاء ويمشي الساق ، وقد اشتهر باسمه الأعجمي « جيت » أو « ملزك » .

ولباقة . ولكن في تواضع جم . . كان كل شيء فيه يتم عن شاب ماجن — وإن كان طبيب التريسة — لم يكن يستجدي كالمسولين . وإنما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى « فيننور دى فينييف » . وقد وفد من باريس . وضل الطريق . . وأنه نسي — إلى حد ما — دوره كموسيقي . وأضاف أنه كان ذاهبا إلى ( جرينوبل ) ليقابل تريبا له عضوا في البرلمان .

وثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الكلام عنها . كان يعرف كبار المعازين جميعا ، وكافة المؤلفين الذائعي الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وهسان النساء طرا ، والسادة العظماء بأسرهم ! كان يبدو ملها بكل شيء يقال . ولكن ما أن بثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه بيمض الفكاهات التي تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال ! . . وكنا في يوم السبت ، ومن المقرر أن نعزف في الكاندرائية في اليوم التالي ، فاقترح عليه السيد لوميتير أن يشترك في الفناء هناك . . « عن طيب خاطر ! » . . فسأله عن طبقة الصوت . . « الطبقة العليا » . ثم مضى يتحدث عن شيء آخر ! . . وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة . وأذهل تصرمه هذا « لوميتير » ، فهمس في أذني : « لم أسمع قط من هذا المصنف علامة واحدة من العلامات الموسيقية » .

ما أخشى أن يكون كذلك « . ورحلت أرقبه في قلق ، حتى إذا بدى الغناء ، خفق قلبي في قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به . ومرعان ما تبينت ما طمأنني ، إذ أنه غنى قطعته بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك ، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة ! وبعد القداس ، تلقى السيد فينتور النهائي ، جزافا من الكهنة والموسيقين ، فكان يجيب عنها مبتكها ، ولكن في كثير من الكياسة دائما . وعائقه السيد لوميتر بحاراة ، وكذلك نعلت أنا ، وقد أبصر أنني كنت مقبلا ، فبدأ أن هذا سره !

وإنى لوانق من أن القارئ سبقرني على أنني وقد أولعت بالسيد باكل — الذي لم يكن يرضى كل شيء سوى تروى جلف — كنت حريا بأن أشغف بالسيد فينتور الذي أوتي ثقافة وتربية ومواهب وفكاه وخبرة بالذوق ، والذي كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب : . . وكان هذا عين ما حدث لي ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأي شاب آخر في مكاني . بل إن سهولة حوونه كانت خليفة ما ن تردد كلما كان المرء أسلم رأيا في إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتن بها . وليس من شك في أن « فينتور » قد أوتي كفاءة ، وكفاءة نادرة في مثل سنه ، تلك هي عدم الانفعال إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح أنه كان

بتمسحق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الأشياء التي كان على إلمام طيب بها ، والتي كانت كثيرة العدد . . وإنما كان ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فإذا ما حانت انتهرها دون تليف وانساع ، فكان عذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه ، لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهّن بالوقت الذي يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه . . كان في حديثه مداعبا « مرحا » لا ينضب له معين ، ذا جاذبية خلابة . . ينسم دائما ولا يضحك أبدا ، ويتكلم بآرق لهجة عن أشد الموضوعات جنافا ، فيجعلها مستساغة . . حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحدث به ، وكن يشعرن بأن من الخلق بهن أن يظهرن له الغضب . فلم يجدن القدرة على ذلك ! . . ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات . ولست اعتقد أنه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إنباسا ومرحا لا حد لهما في مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والقرأ . وكان من الميسر أن يبقى محصورا في وسط الموسيقيين طويلا وهو الذي يملك مثل هذه المواهب المستحبة ، في بلاد تقدرها وتحبها !

ولقد كان ميلي إلى السيد « فينتور » أكثر رشدا في أسبابه . وأقل انحرافا عن الصواب في نتائج . . . . . وأطول بقاء من حبي للسيد باكل ! . . . . .

اسمعه ، وكان كل ما يفعله يبدو لي رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لي آيات منزلة . ولكن انفتاني به لم يذهب إلى الدرجة التي لا أطيق معها فراقه . فلقد كان لي في الجيرة وقاء عاصم من هذا الضبط (١) . وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئهم . وإن كانت جيد صالحة له ، إلا أنها لم تكن تصلح لي . فلقد كنت أهو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه . بل أنه كان حربا بأن يسخر مني من أجله ! ومع ذلك ، فلقد وجدت أن أربط هذا الود . بذلك الذي كان يسيطر علي . فتحدثت عنه إلى « ماما » في وجد وحرارة . كما أن « لوميتز » حدثها عنه في إطناب ، فرضيت بأن يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موافقا على الامتلاق . إذ أنه وجد « ماما » متحذقة . بينما وجدته هي ماجنا ، وخشيت علي من مثل هذه المعرفة السيئة ، فلم تكذب بأن حرمت علي إحضاره إلى الدار مرة أخرى . بل أنها راحت تبين لي - بوضوح قوي - الأخطار التي أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى أنني ازدت تحفظا في اندفاعي نحوه ، ولحسن حظ أخلاقي وإدراكي ، لم تثبت أن افترقا بعد قليل !

\* \* \*

كان للسيد « لوميتز » ما لأبناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ . . على أنه كان يزهد إذا ما جلس إلى المسائدة ، أما أثناء عكوفه على العمل في مكتبه ، فقد كان لابد له من أن

(١) بقصد بدم دي ثلران . إذ كان بينهما مجاورا لدار السيد لوميتز .

يشرب . وكانت خادمته تعرف ذلك تماما ، فكان إذا ما أعد ورقه للكتابة ، وجعل مكانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة ! . . وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن وآخر . فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يشمل . وكان هذا في الحق شيئا يدعو للراء ، إذ أن « لوميتز » كان غنى طيبا بقطرته ، وطروبا ، حتى أن « ماما » لم تكن تدعوه إلا بـ « قطي الصغير » ! . . وكان - لسوء الحظ - مشغوبا بموهبته الموسيقية ، فكان يسرف في العمل ، وبالتالي في الشراب . وقد أثر هذا على صحته . ثم على طباعه في النهاية ، فكان في بعض الأوقات كثير الهواجس ، سهل الاستثارة . وكان عاجزا عن أية خشونة أو غلظة ، عاجزا عن أن يقصر في منح كل إنسان حقه من الاحترام ، فما قال يوما سبة ، ولو لصبي من المرتلين . وكذلك لم يكن أحد ليقصر في احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا ! . . ولكن سوء حظه تمثل في أنه كان قليل الذكاء ، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات ، ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب !

ولقد نقد مجمع أساقفة جنيف القديم - الذي كان كثير من الأمراء والأساقفة ينتشرون بدخوله - بهاء القديم ، في مجره . ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلا بد دائما - للانضمام إليه - من أن يكون المرء من السادة ، أو من حاملي درجة الدكتوراه من « السريون » ، وإذا كان ثمة فخر مجاح بعد ذلك المستند من الكفاءة الشخصية : فذاك هو الفخر المستند من المولد . هذا إلى جانب

أوتوا رجالا مدنيين في خدمتهم . كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالي . وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون «لوميتر» المسكين في كثير من الأحيان ، لا سيما المنزل الذي كان يدعى السيد الأب دى قيدون . والذي كان في كافة النواحي الأخرى موفور الأب ولكن سديد الزهو ببطل أصله ، فقد كان لا يولى «لوميتر» دائما حقه من التقدير الذي تؤهله له مواهبه . ولم يكن هذا ليحتل راضيا الغرض من شأنه . ولقد وقع بينهما في «أسبوع الآلام» - من ذلك العام - نزاع أشد احتداما من ذي قبل ، بسبب ترتيب الحضور في مأدبة عشاء اعتاد الاستف أن يقيمها أرجال الكنيسة ، وكان «لوميتر» يدعى إليها دوما . فقد أبدى له المنزل بعض الإزدراء الصريح . ووجه له كلمات تاسية لم يستطع أن يتحملها . ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يمر في الليلة التالية . ولم يستطع شيء أن يثنيه . ورغم أن مدام دى فاران - التي ذهب إليها ليوذعها - بذلت قصارى جهدها لتحويله عن عزمه . فما كان بوسعه أن يقبل عن لذة الثار لنفسه من طائفته ، بأن يوقعهم في مازق في عيد الفصح ، وهو الوقت الذي كانت تهمس فيه الحاجة إليه . على أن الحالته كانت أشد بواعث حيرته . فقد أراد أن يتحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ، لأن الإلحاح كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع .

ولقد فعلت «ماما» ما كان ينبغي أن تفعله - وما كنت أنا الآخر أفعله لو أنني كنت في مكانها - فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله على البقاء ، رأيت أنه قد صمم على الرحيل

مهما يحدث . فتحولت إلى التطوع لمساعدته في كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه . وإلى لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه . إذ كان «لوميتر» قد وقف نفسه - كما ينبغي أن يقال - لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما . سواء فيما يتعلق بفنه . أو فيما يحتاج إلى عنايته . وكان التحمس القلبي الذي اعتاد أن يبديه في أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها . ومن ثم فأنها - بما أبدته من رغبة في مساعدته - إنما كانت تؤدي لصديق - في مناسبة حرجية ، ما يقابل كل ما نمله من أجلها في مناسبات كثيرة متفرقة - خلال ثلاث أو أربع سنوات - وإن كانت قد أوتيت نفسها لا تحتاج - لكي تؤدي مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرها بأنها التزامات عليها . لذلك استدعنتي ، وأمرتني بأن أرافق السيد «لوميتر» حتى (ليون) على الأقل ، وإن اضل بالزما له أطول وقت يكون فيه بحاجة إلى . ولقد اعترفت لي فيما بعد بأن الرغبة في إحصائي عن «فيفور» كانت ذات شأن كبير في هذا الإجراء . وتشاورت مع «كلود أنيه» - خادمها الأمين - بصدد نقل الصندوق ، فكان من رأيه أننا بدلا من أن نستأجر دابة لحمله من (أنيسي) - مما قد يعرضنا للاقتضاح - يجب أن نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستأجر حملا من إحدى القرى لنقله إلى (سيسل) ، حيث تصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأي خطر . وقد أخذنا بهذه النصيحة ، فرحلنا في المساعة السابعة من مساء اليوم ذاته . وانضمت «ماما» كبس فتوة - أخطأ الحرف - المسكين . بمبلغ لم يكن عديم النفع له .

وحمل كلود أنييه والبستاني وإيلى الصندوق — بقدر ما استطعنا — حتى أول غريه ، حيث أعفانا منسه حمار . . وبلغنا إيسيل ، في الليلة ذاتها .

واعتقد أنني أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتا لا أشبه غيرها تنسى في شيء . حتى لأبشوا شخصا آخر . ذا شخصية مخالفة لشخصيتي . وهما كم مثلا لذلك : فان السيد « ريديليه » — راعي كنيسة إيسيل — كان من مساومة كنيسة القديس بطرس . ومن ثم كان يعرف « لوميتز » ، كما كان من الذين يبتغي على هذا أن يتواري عنهم . ولكني رأيت تنقبض ذلك . فنصحت بأن نذهب فتقدم نفسينا إليه بحجة ما . ونسأله ماوى لليلتنا ، وكاننا في ( إيسيل ) بموافقة من « المجمع » ! واستسأغ « لوميتز » هذه الفكرة التي نجعل ثاره ساخرا . لاذعا ، ومن ثم سمعنا متجلدين إلى دار السيد « ريديليه » الذي أحسن استقبالننا . وفكر له « لوميتز » أنه كان في طريقه إلى ( بيلاي ) بناء على طلب من الأسقف . ليدير موسيقاها في عيد الفصح ، وأنه يتوقع أن يعود بعد أيام قلائل . أما أنا فقد كان على — لكي أدمم هذه الإكاذيب — أن أسكب مائة أكنوية أخرى ، بشكل طبيعي ، حتى أن السيد « ريديليه » — إذ رآني فتى جيلا — أبدى لى الود وعانقني ألف مرة . وحظينا بحفاوة طيبة ، وبمضجعين مريحين . ولم يدر السيد « ريديليه » إلى أى حد رفع قدرنا ، وافترقتنا كأحسن أصدقاء في العالم . بعد أن وعدناه بأن نبعث وقتا أطول في عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لاهتمامنا . وأصارحكم أنني ما أزال أفعل الشيء ذاته كلما فكرت في ذلك

الحيلة . فليست تصور البتة حيلة مأكرة أكثر إحكاما ولا أسعد مصيرا منها . وقد كانت جديده بأن تمنعني نفسينا طيلة الرحلة ، لولا أن « لوميتز » — الذي لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف — أصيب برثين أو ثلاثا بنوبات كانت تقضى عليه . وكانت شديدة الشبه بالصرع . وقد زج بى هذا في مازق أفزعني . وحلقتنى على التفكير في الخروج من الأمر كله بقدر استطاعتي !

وذهبنا إلى ( بيلاي ) لتقضى عيد الفصح . كما قلنا للسيد ريديليه ، ومع أن أحدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقي الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع سرورا بالغ . فقد كان للسيد لوميتز صيت ذائع في فنه ، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاه رئيس موسيقي ( بيلاي ) فخرنا بعرض أبداع العانة عليه . وسعى للحصول على تقرير ناقد مثله ، فقد كان لوميتز خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفا دائما ، منحررا من الغيرة ، بعيدا عن الرياء . كان أرفع مكانة من كل رؤساء فرق المرتلين الإقليميه . وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك . حتى أنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم ، أكثر منه كرميل !

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام — على خير حال — في ( بيلاي ) ، استأنفنا الرحيل . ومضينا في طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل . واذ بلغنا البرن ، نزلنا في فندق « توتردام دى بيتيه » . وفيما كنت أنظر إلى السيد الصندوق — الذي استطعنا بفضل اكنوية فقرنا ، أن نأخذ منه



على مركب في نهر ( الرون ) بمعونة راعيتا الطبيب : السيد ريديليه - ذهب السيد لوميتر لزيارة معارفه ، ومنهم الأب كانون ، ( أحد الرهبان السمر ) وسوف يرد ذكره فيما بعد ) ، والراعي دورنان . كونت دي ليون . وقد تلقاه الأثنان في إكرام ، ولكنهما قدرا به فيما بعد ، كما سيقتبين القسارى ، في الحال . فلقد نفذ حسن حفل في دار السيد ريديليه !

بعد يومين من وصولنا إلى ( ليون ) ، كنا نجتاز شارعاً صغيراً ، بالقرب من غندقنا ، وإذا لوميتر بصاب باحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجة أفزعنى . ترحت أصيح وأصرخ مستنجداً ، وذكرت اسم الفندق . راجيساً نقله إلى هناك . وبينما التف الناس حوله - متحمسين لمعونة رجل سقط في الطريق فلقد الوعى وقد أخذ الزبد بغور على قمه ، إذا به بمنى بهجر الصديق الوحيد الذى كان من حقّه أن يعتد عليه . إذ أننى انتهزت اللحظة التى لم يكن فيها أحد يفكر فى امرى ، وتسلكت حول ركن الشارع ، ثم اختفيت . وإنى لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث . ولو كان لدى كثير من هذا النوع ، لهجرت هذا المؤلف الذى بدأنه .

لقد بقيت آثار من كل الذى ذكرته حتى الآن . فى الأماكن التى مشيت فيها ، ولكن الذى ساورده فى الكراسة التالية « يكون مجهولاً تماماً . . إلتها أعظم حقايق حياتى : وقد كان من حسن الحظ أنها لم تنفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه . ولكن رامى كان قد فقد أقرانه ، ثم استترده من طامه ذاتهم ، وإذا ذاك كفتت عن الحماقات ، أو التى لم تعد رغبة منى



ومضينا فى طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التى فكرتها من قبل ..

سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتي ! وهذه الفترة من شبابه  
هي إحدى الفترات التي تضطرب فكريا في رأسي ، إذ أنه لم  
يمر بهى خلالها من الأحداث شيء مشوق لقلبي بدرجة تكفى  
لأن أحتفظ له بذكرى واضحة . ومن ثم فمن العسير إلا  
أرتكب بعض أخطاء أخط فيها بين الأزمنة أو الأماكن ، أثناء  
مثل هذه الروحيات والغفوات ، وفي خلال التطورات العديدة  
المتتابعة . . . إننى أكتب معتبدا على ذاكرتى تماما ، دون  
ما مذكرات ، ودون ما مواد تعيننى على التذكر . . . وفي حساباتى  
أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك  
شفرات وفراغات لا أملك أن أملاها إلا بروايات مهوشة كذلك  
الذكريات المتبقية لها . ومن ثم فأننى معرض للخطأ أحيانا .  
كما أننى قد أرتكب الخطأ ثانية - في مسائل غير مهمة - إلى  
أن يحين الوقت الذى أملك فيه عن نفسى معلومات واثق . أما  
في كل ما له أهمية حتمية من الموضوعات ، فأننى مطمئن إلى  
دقتى وأمانتى . اللذين ساحرص عليهما دائما في كل شيء . .  
وللتأريء أن يثق من ذلك .

\* \* \*

ما أن غادرت السيد لومبتر : حتى استقر عزمى . فكرت  
عائدا إلى ( أنيسى ) - وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا  
إلى درجة كبيرة ، من أجل سلامة إقامتنا . وقد صرفنى هذا  
الانشغال - الذى استغرق كل اهتمامى - أبدا عن التفكير في  
العودة . على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعينى من التلق ،  
حتى عاد وجدى إلى سيطرته وسلطانه . فلم يهف بقلبي أو

غرونى شيء سوى أن أعود إلى « ماما » . كان صدق تعلقى  
بها وورقته قد أجتبا من غواذى كل حباقات الطموح ، ولم أعد  
أرى مسعادة إلا في العيش معيا ، ولا سرت خطوة دون أن  
أشعر بأننى كنت أبعد عن هوائى . ومن ثم عشت إليا بأسرع  
ما كان ممكنا . وكان سفرى متعجلا . وذهنى شاردا . إلى  
درجة أننى وإن كنت أذكر بكثير من السرور رحلاتى الأخرى ،  
نلت أملك أنه ذكرى لهذه الرحلة ، اللهم إلا مغادرتى ليون  
ووصولى إلى ( أنيسى ) . . . ومثلا الذى يتصور أن تخبو هذه  
الأخيرة من ذهنى ! . . فعند وصولى - لم أجد بدام دى فاران  
.. كانت قد رحلت إلى باريس !

ولم يقدر لى قط أن أعرف سر هذه الرحلة . . . ولقد كانت  
هذه السيدة خليفة بأن تذكره لى : لو أننى الحجت : لهذا ما  
أتق منه كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل منى مضولا  
إزاء أسرار الأصحاء : إذ أن قلبي لا يغم بغير الحاضر ، وهو  
يمتلئ به تماما : فلا يبقى فيه ركن خال لأى شيء من الماضي ،  
فيعا عدا المتع السالفة ، التى تؤلف بعد ذلك لذتى الوحيدة . . .  
على أن الذى اتخيله - من القليل الذى أتباتنى به « ماما » -  
هو أن الثورة التى قامت في ( تورين ) بسبب نزول ملك سردينيا  
عن عرشه ، جعلتها في خوف من أن تغدو منسية ، غشاهات -  
بفضل حيل السيد دويون - أن تسعى للحصول على نفسى  
ما كان لها من امتيازات ، من بلاط فرنسا الذى كانت كذا .  
ما تقول لى أنها تفضله على بلاط ملك سربيا ، أن لا  
في غيرة الشئون الهامة الكثيرة التى

الفرنسي - لا يظل تحت رقابة صارمة . . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الغريب حقا أنها لم تقابل - عند عودتها - بوجوه عابسة ، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار ، ودون انقطاع . ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية : إما من قبل الأسقف - الذي كانت له بعض شئون في البلاط الفرنسي - وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا ، كانت نعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة ! . والمؤكد - إذا كان الأمر كذلك - أن اختيار مدام دي فاران كرسول - لم يكن بعيدا عن الصواب ، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أية مفاوضات . سيما وأنها كانت لا تزال شابة . . وجبيلة !

## الكراسة الرابعة

٦ - من سنة ١٧٤١ إلى سنة ١٧٤٢

وصلت فلم أجدها . فتصور مدى دهشتي وأساي ! . . إذ ذاك - بدا ندمي على التخلص من السيد « لوميتير » يتخذ شكلا محسوسا . لم يلبث أن ازداد حدة عندما سمعت بها أصابه من نحس ، فإن الصندوق الموسيقي الذي كان يحتوى على كل ثروته . . هذا الصندوق الثمين الذي انقذ بكثير من العناء . انتزع منه عند وصوله إلى ( ليون ) ، بناء على أمر الكونت « دورقان » الذي كتب إليه مجمع التساوية بطلعه على التتريب . . وعيضا طالب « لوميتير » بثروته . بوسيلة معاشه ، بفنّاج عمله ليلة العبر ! وكانت ملكية الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاع قضائي على الأقل . بيد أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر في الحال - بحكم قانون الأقوى ! - وبهذا نفذ « لوميتير » المسكين ثمرة مواهبه . . جهد شبابه ومعين شيخوخته !

ولم يكن ينقص الضررة التي تلقيتها شيء كي تصبح هضبة ، ولكني كنت في سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر . نسرعان ما ابتدعت لنفسى أسباب المراء . . فرحت أتوقع أن ألتقي عما قريب أنباء من مدام « فاران » ، رغم أنني لم أكن أعرف عنوانها ، كما كانت هي تجهل أنني رجعت . . أما بصدد التخلص من السيد « لوميتير » ، فأنني بعد التخلي عنه - . . . فيه ذنبا بالغا - فلو كنت ناهيا له . . .

الوحيدة التي كانت تتوقف على . ولو انني بقيت معه في فرنسا لما شفقت من علته . ولما انقذت صندوقته . ولما فعلت سوى أن أضاعف ثقافته دون أن املك له نفعا . . هكذا رايت الامر . إذ ذاك . وإن كنت اراد اليوم على النقيض . فإن التصرف الخسيس لا يكرهنا عند ارتكابه ، وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل . لأن ذكره لا يخدم قط !

وكان الدور الوحيد الذي استطعت أن أقوم به للحصول على أنباء « ماما » ، هو أن انتظر . وإلا غابن كنت أبحث عنها في باريس ، وبأي نفقات كنت أقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان أكثر ضمانا من ( انيسى ) لمعرفة مقرها ، إن عاجلا أو آجلا . ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكي أسأت التصرف إلى حد كبير . إذ انني لم اذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذي كلفني من قبل - والذي كان بوسعه أن يكتلني من جديد - فان راعيتي لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهمم . وكذلك لم أعد اذهب إلى المعهد الديني . إذ أن السيد «جرو» لم يعد هناك . . ولم أر أحدا من معارفى ، وإن كنت قد تمنت أن اذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة ، لولا انني لم اجرؤ قط . . بل إنني ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سعيت إلى السيد « فينتور » ، الذي لم افكر فيه البتة منذ رحيلى ، ورغم شفقتي به ، فوجدته متألقا مكرما في ( انيسى ) بأسرها . والنساء يتزاحمن عليه : وقد اتقذني هذا التوفيق حيا تهما ، فلم أعد أبصر سوى السيد « فينتور » . بحيث أوشك أن ينسبني « مدام دي قاران » . ولكي اتخذه من دروسه ويمر

من اليسر . عرضت عليه أن يشركني معه في مسكنه . فوافق . وكان يسكن لدى إسكافي لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته - بلهجته الريفية - سوى « العاهرة » ، وهو اسم كانت أعلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد « فينتور » أن يسعى لإطالتها وهو يتظاهر بالرغبة في أن يفعل العكس . إذ كان يوجه إليها - بلهجة هادئة ، وليكنته الإقليمية - كلمات تحدث أعظم أثر . . وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرد الضحك . . . وهكذا كانت فترات الصباح تنقضى دون أن يقطن إليها المرء . فإذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة : تناولنا لقحة ، ثم يذهب « فينتور » إلى الأوساط التي كان يقشعها . حيث يتناول عشاء . . أما أنا فكانت أمشي وحيدا ، مفكرا في براعته البالغة ، وأنا أعجب بمواهبه الفذة وأعبطه عليها : لأعنا طالعي المنحوس الذي لم يكن بغنى بى إلى مثل هذه الحياة الهائلة ! . . آه ! ما أقل ما كنت أعرفه عن الحياة الهائلة ! إن حياتي بالذات كانت خليقة بأن تكون أكثر بهجة مما كانت مائة مرة ، لو انني كنت أقل غباء . ولو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو أفضل !

ولم تكن مدام دي «قاران» قد صحبت معها سوى «أنيه» . بينما تركت « مرسيري » وصيفتها التي تحدثت عنها من قبل ، والتي وجدتها تشغل مخدع سببتها . وكانت الأنسة «مرسيري» غداة تكبرني تلباء ليمت بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل . . نقاة طيبة من بنات ( نيبورجوا ) بريئة من الخبث ، ما عرفت لها من عيب سوى أنها كانت

تجتنبني . وإنها كانت تحبني بشرة مسمونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديمة . وجو من الرقة والظهر يشمل الشخص بأكمله . وذوق ضاسف في الحركة والقول ، وثوب غال بديع الصنع . وحذاء من صفيان . وأشرطة و « دانتيل » ، وشعر أنيق النصف . وقد اعتدت دائما أن أفضل من أوتيت كل عذا . ولو كانت أقل الفتيات جمالا . . . والواقع أنني أنا نفسي أرى في هذا التفصيل أمرا يدعو إلى الضحك ، ولكن قلبي يهفو إليه على الرغم مني !

\*\*\*

حسنا . . . لقد سئمت لي هذه الميزات مرة أخرى ، ولم يكن على سوى أن استغلها . لكم أحب أن أتع - من أن إلى آخر - على اللحظات البهيجة في شبابي . . . ما كان أحلاها لي . وما كان أقصرها وأندرما . . . ولقد استمتعت بها بأفخس الأثمان . . . آه ! إن مجرد تذكرها يثر من جديد في قلبي نشوة طاهرة أنا في ميسيس الحاجة إليها لتجديد جراتي ، ولتدفع الهجوم عن بقية سنى حياتي !

ففي ذات صباح . بدا لي الفجر من الجمال بحيث أنني ارتديت ثيابي في عجلة ، وأسرع إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس . واستمرت هذه المتعة بكل فتنها . وكان ذلك في الأسبوع التالي لعيد القديس يوحنا ، والأرض في أبهى زينتها ، وقد كساها العشب والزهور . . . وكانت الشمس تشرق على نهاية غريدها . فبدأتها كنت تستمتع بالأمور في

نعمى سيدتها . فأخذت أكثر من زيارتها . إذ أنها كانت من المعارف القدامى ، وكان مرآها يفكرني بمن كانت أعز مني لدى . وبين أحبيتي من أهلها . وكانت لها صديقات عديدات يبنين ألفة تدعى « جيرو » . من بنات « جنيف » . شاعبت أن تهولني ، برغم نقائصي . فكانت تلح دائما على « ميرسيريه » أن تصطحبني إلى دارها . وقد تركتها تفعل لأنني كنت أحبها - أعني ميرسيريه - ولأنني كنت أجد هناك غنيات أخريات ارتاح إلى رؤيتهن . أما عن الألفة جيرو - التي كانت تبدي لي كل ألوان المضايقات - فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النور الذي كنت أحسه نحوها . . . كنت أجد عناء - إذا ما قربت من وجهي أنها الأعجب الأسود الملوث بالسعوط - في أن أكيح نفسي عن البصق عليه ! بيد أنني تشبعت بالصبر . إذ كنت إلى جوارها أنعم كثيرا بالوجود وسط هؤلاء الفتيات اللاتي كن يتبارين في الاحتفاء بي ، لها بدائع التعلق للأنسة جيرو ، أو التقرب إلى شخصها . ولم أكن أرى في كل عذا صداقة . ولقد تراءى لي فيها بعد أنه كان في ومعي أن أرى ما يزيد على الصداقة . ولكن هذا لم يخطر ببالي . . . ولا أنا أوليته أي تفكير !

وإلى جانب ذلك . فإن الصانكات والوصيفات وعائلات المتاجر لم يكن يستهوينني البتة ، وإنما كنت أصبو إلى الانسبات المراقبات . . . إن لكل امرئ أحلامه الخيالية . وقد كانت تلك أحلامي دوما . ولست أرى في ذلك ما رآه « هوراس » . على أنه من المؤكد أن أبهة المكانة والمنصب لم تكن هي التي

إطلاق أصواتها .. بل إن الطيور جميعا راحت تشجو مودعة الربيع ، متفنية ببولد يوم بديع من أيام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التي لم يعد المرء يراها في سنى هذه ، والتي لا يراها المرء إطلاقا في هذه البلاد الكثيبة التي أقيم فيها اليوم (١) .

وابتعدت عن المدينة دون أن اشعر . واشتدت حرارة الشمس ، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير . ثم سمعت خلفي وقع حوافر جواد ، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا في محنة . وإن راحتا تفهقتان من أعماقهما . والتفت ، فاذا مداء باسمي ينبعث ، فاقتربت .. ووجدت فتاتين من معارف . هما الأنسة دي « جرافينريه » والأنسة دي « جالى » . اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لأنهما لم تكونا فارسيتين ماهرتين . وكانت الأنسة « دي جرافينريه » شابة من ( بيرن ) ذات ملاحظة طليغية ، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذي تتسم به سننها ، فحذت حذو مدام دي « فاران » - التي كانت تتردد على دارها لماها - على أنها لم تكن ذات مورد للعيش ، فلم تملك سوى أن تغتبط بأن تربط نفسها بالأنسة دي « جالى » التي شعرت ببودة نحوها ، فأغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملا . وكانت الأنسة دي جالى تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا . كانت

(١) كان « روسو » وهو يكتب هذا الجزء من اعترافاته يعيش في ( وولون ) بمقاطعة ( سافواورد شاير ) بإنجلترا .

على قدر من الرقة والترفه لا قبل لى بوصفه ، وكانت في الوقت ذاته دقيقة القسرات ، بديعة القوام ، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة .. وكانت كل منهما مثقوفة بالآخرى حبا . ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلا ، دون أن يقوى أى عاشق على تعكيره !

وقالت لى أنهما كانتا تقصدان ( تون ) ، القصر العتيق الذي كانت تمتلكه السيدة جالى .. والدة الفتاة - ثم طلبتا مساعدتى في حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمر الذي لم تقويا عليه . وهمت بأن أسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين اشغقتا على من الركالات . وعلى نفسيهما من الوقوع .. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى ، فآخذت بمقود جواد الأنسة دي جالى ، ثم جررته خلفي ، وخضت الجدول الذي وصل مأوه إلى ركبتى .. وإذا ذلك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . وإذا تم ذلك ، همت بأن أحيى الأمتين ثم أمضى في طريقي كائى أحقق ، ولكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم خاطبتنى الأنسة دي جرافينريه قائلة : « لا ، لا ، ما هكذا يفلت المرء بنا ! لقد أصابك اللبل وأنت تؤدي لنا خدمة ، فأصبح من واجبنا - نحو ضميرنا - أن نأتي معنا . إذ أنك أسيرنا ! » .

وخفق قلبي . وتطلعت إلى الأنسة جالى ، فأضافت وهي تضحك لما بدا على من ارتباك : « أجل ! أجل .. أسير حرب ! أركب خلفها ، فنحن مسئولتان عنك ! » . فقلت محزون : « ولكن ، يا آنسة .. إننى لم أحظ بشيء أشد من أن .. »

فماذا تريدنا قائلة إذا ما رايتني ؟ .. وأجبت الأنسة دى جرافينرييه : « إن أمها ليست في آتون ! - فقد جئنا وحدنا ، وسنعود في المساء . وبوسعك أن تعود معنا ! » .

وما كان للكهرياء أن تحدث في كيانى تأثرا أسرع مما أحسسته هذه الكلمات .. ففكرت إلى سهوة جواد الأنسة دى جرافينرييه وأنا ارتجف غبطة . وكنت كلها اضطرت إلى أن أحيط خصرها بذراعى لأحفظ توازنى . خفق قلبي بعنف لم تأتئ أن لاحظته . فقلت إن قلبها - هو الآخر - كان يخفق ، لأنها كانت في خوف من الوقوع .. وكان قولها - في مثل هذا الموقف - بمثابة دعوة لى كى أتحرى بنفسى صدقه . ولكنى لم أجرؤ قط .. ولقد ظلت ذراعى - طيلة الرحلة - تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود . ولكنه حزام لم يتزعزع عن موضعه لحظة ! .. وكمن امرأة ممن يقرآن هذا ، نحس من نفسها رغبة في أن تعرك أذننى .. ولن تكون مخطئة في ذلك !

وأطلق يهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لسانى ، فلم نسكت حتى المساء . بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا ! ولقد استطاعت أن تسريا عنى الحرج . فاذًا لسانى لا يقل نشاطا من عيى ، وإن اتخذ أسلوبا غير أسلوبيهما . ولم يكن الحديث يتوقف قليلا إلا في بضع لحظات كنت أجد نفسى فيها على انفراد مع إحدى الشابتين . ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود ، فون أن نسمع لنا بوقت نفترى فيه سبب ارتياكنا !

وما أن بلغنا آتون . وجفت ثيابى . حتى تناولنا الفطور . وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة اليلمة : مسألة

إعداد الغداء . فكانت لشابتان تتوقفتان من حين إلى آخر - وهما عاكفتان على الطير - لتقبلا أبناء حارسة المزرعة .. بينما كان غاسل الأطباق المسكين - أنا ! - يحلق فيهما ويكسح جهاج نفسه . وأرسلنا إلى المدينة في طلب المؤن وكل ما يكفى لغذاء شئى . لا سيما الحنوى . ولكنهما نسيتا التنبذ لسوء الحظ ! ولم يكن هذا التسيان بمستغرب من فتيات لا نشربان الخمر قط ، بيد أننى استنات إذ كنت أعول على معونته في استمداد الجرة . ولقد استأنا هما الأخريان كذلك ، ولعل استئناهما كان لنفس السبب . وإن كنت لا أظن ذلك . وكان مرحهما العارم الفائت هو البراءة ذاتها ! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بى قيا بينهما ؟ .. ولقد أرسلنا في البحث عن نبيذ في كافة البقاع المجاورة ، فلم يعثر على شئ منه البتة ، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لا يقيمون الخمر . وإذ احتنا تعربان لى عن أسفهما ، قلت لهما أن لا داعى لأن تتجشما هذا العناء . وإنيهما لم تكونا بحاجة إلى نبيذ لكى تسكراني ! .. وكانت عذه هى المجاملة الوحيدة التى جرؤت على قولها طيلة النهار . على أننى اعتقد أن الماكترين قد شهدنا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة !

\*\*\*

وتناولنا غداءنا في مطبخ المزرعة . وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين ( دكتين ) إلى جانبى المائدة . وضيئهما بينهما : على مقعد مخفض ذي ثلاث قوائم . وبأله من غداء .. أية ذكرى طافحة بالماضى ! وماذا كان يومئذ فى ضمير وراء ملاء أخرى . إذا كان يومئذ فى ضمير

هذه وصفتها ، بأخسى الأمان !... ابدأ ما تقدر للوجبات في منازل باريس الصغيرة أن تداني هذه الوجبة . ولست أقول هذا عن بجعتها نحسب . ولا عن طريها نحسب . بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك !

وعندنا بعد الغداء ، إلى شيء من الاقتصاد . فبدلاً من أن نحسب القهوة التي تبقت من الإفطار . احتفظنا بها لتناولها مع القشدة والفطائر التي أحضرتها الفتانان معها . ولكي نرضي شهيتنا ، ذهبنا إلى البستان لنأخذ من « الكريز » طوى نختم بها وجبتنا . فتسلقت الشجرة ورحلت القى للفتاتين بمناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان إلى البذور ( النويات ) خلال الأغصان . وحدث في إحدى المرات أن بسطت الأنسة جالي مزلتها . وطوحت براسها إلى الخلف . وثبتت في مكانها . فما كان مني إلا أن أحكمت الرماية وأنا التي بمنقود من الكريز ، فبوى في صدرها !... وانطلقت الضحكات !... وقلت لنفسى : « ليت شغنى كانتا من الكريز !... لكم أنا على استعداد لأن أرمي بها إلى نفس المكان عن طيب خاطر ! »

وهكذا انقضى النهار في مريح استرسلنا فيه بانقضى تحرر ، مع التزام أقصى حدود الاحتشام على الدوام !... فما من كلمة بيبهة تحتل تأويلاً ، ولا ملحاة انكحة شاردة . . . ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة . بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه ، وكنا نصدر في أفعالنا وأقوالنا عن إحياء ظلوينا !... وقصارى القول أنه بلغ من حيائي - الذي قد يسببه الفرجاء ! - أن أقصى مغازلة أفلتت مني هي أن قبلت يد الأنسة جالي مرة

واحدة ! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة . إذ كنا وحيدين . وكانت أنفاسي تنبعث في تهدج . كما كانت عينها منكستين . . . وبدلاً من أن يجد معنى قولاً . إذا به يلتصق بيدها التي لم تلبث الفتاة أن سحبتها في رفق - بعد أن انطبعت عليها القيلة - وهي ترمقني بنظرة لم تنم عن أى انفعال . . . ولست أدرى ما كنت خليقاً بأن أقوله للفتاة . لولا أن قبلت صديقتها على المفرقة ، فسلاحت لي - في تلك اللحظة - بالغة الدمامة !

وأخيراً ، فطنت الفتانان إلى أنه لا ينبغي الترفيه في العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل . ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذي يمكننا من العودة . فأمرعنا بالرحيل . بنفس النظام الذي كنا عليه في المجيء - ولو أنني وجدت جراً ، لكنك قد غيرت هذا النظام ، إذ إن نظرة الأنسة جالي كانت قد أثارت غواذى . . . بيد أنني لم أجسر على أن أقول شيئاً ، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هي هذا التغيير ! ورحنا نقول - خلال انطلاقتنا - إن اليوم قد انقضى سراعاً ، ولكننا بدلاً من أن نشكو من قصره . أجبعنا على أننا أوتينا معجزة إطلالته بفضل أسباب اللبؤ التي عرفنا بها كيف نملؤه !

وفارقتهما عند البقعة التي التقتانني عندها ، تقريباً . . . ولكن . بآية حسرة افترقنا ! وبأى سرور رسمنا الخطة للقاء آخر !... إن الاثنتي عشرة ساعة التي قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة ! وإن الذكرى العذبة التي أوتيناها بذلك اليوم لم تكبد الشابتين الميتين شيئاً ، ولكي الودعة الجنون



— التي كانت تنتهي بهذه القبلة على اليد — بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم في غرامياتكم التي قد تبدأ بمثل هذه القبلة !

\*\*\*

وعاد « فينتور » إلى البيت بعد عودتي بتليل ، إذ كان قد تأخر كثيرا في الذهاب إلى مضجعه في الليلة السابقة . وفي هذه المرة ، لم اشعر بسرور رؤيته كما لو عفدتني . كما أنني كتبت عنه النهج الذي قضيت عليه يومي . فان الانستين كانا قد تحدثنا إلى عنه شيء من الازدراء ، وبدأ لي أنها استعانتا إذ عليتا أنني كنت في مثل هذه الرعاية السيئة . فقال هذا من مكانته لدى : سيما وان كل ما كان يشغلني عن التفكير فيهما بدأ لي غير مستحب . على ان فينتور ما لبث ان ردني إلى نفسي وإليه ، بان أخذ بتكلم عن موقفي ، إذ غدا أخرج من أن يستمر . فمع أنني لم أكن أنفق غير القليل جدا ، إلا أن كبسي بدأ بفرغ ، ولم يكن لي مورد . . ولم يكن ثمة نساء عن « ماما » ، فلم أدر ماذا أفعل ، وشعرت بالتقاصر شديد إذ رايت صديق الأمانة جالي بهبط إلى مستوى المتسولين !

وانبأني فينتور بأنه قد نحدث عني إلى الضابط القضائي (١) ، وأنه اعترى ان يصطحبني لنناول العشاء عنده في اليوم التالي ، وأن هذا الرجل كان في مركز يمكنه من ان يخدمني عن طريق أصدقائه . . فضلا عن انه كان من خيرة من يحسن التعرف إليهم ، كان ذكيا واديبا ، ذا طباع جد ملائمة . وكان

التي ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل في قيمتها متعا أكثر بهجة واحدا . . متعا لم يكن لها بقاء في ظلال تلك الرابطة . فلقد تحابينا في غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين في أن نتحاب دائما بهذا الشكل . وان لسذاجة الخلق لنشوتها التي تعادل تماما أية نشوة أخرى ، لأنها لا تعرف راحة ، ولا تنفنا تحتدم باستمرار !

أما بالنسبة لي . فاني أدرك ان ذكرى مثل هذا اليوم أكثر تأثيرا في نفسي . وغفلة لي . وترددا على غواصي من ذكرى أية متعة تذوقتها في حياتي ! وما كنت أدري تماما ما الذي كنت ابتغيه من الفتاتين الساحرتين : ولكنهما أطريقتني معا كل الطرب . ولست أقول ان قلبي كان خليقا بان ينقسم بينهما قسمة عادلة : لو قدر لي ان أسيطر على أموري ، فقد أحسست بشيء من الإيثار والتفضيل : كان يسعدني ان أحظى بالأنسة جرافينرييه عشيقته : ولكنني لو خيرت لأثرت — فيما اعتقد — ان أتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا أو ذاك فقد بدأ لي إذ غارتقتهما أنني لم أعد أقوى على الحياة بدونهما معا . فمن كان منبئى بأنه لم يكن مكتوبا لي أن أراها في حياتي مرة أخرى ، وان هذه كانت نهاية حبنا الذي لم يمر سوى يوم واحد !

إن الذين يقرأون هذه المسطور لن يتألموا أنفسهم من الضحك من مفارقتي الغرامية ، وملاحظة ان أكثرها تطورا كانت تنتهي — بعد كثير من التهديدات — بقبلة على اليد . . ولكن ، لا تغفروا يا قرائي ! نلعلني نعمت من تلك الغراميات

موهوبا ، بقدر المواهب لدى الغير . ثم اطلعتني - وهو يعزح التواني بالخطر من الامور ، جريا على عادته - على مقطع بديع من الشعر ، وصل من باريس ، وكان يرود في لحن بلحدي « اوبرات » وريه ، ذاع في ذلك العهد . ولقد أعجب السيد سيمون - وهو اسم الضابط القضائي - به ، غاراد ان ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة ، ردا عليه .. وطلب إلى فينتور ان ينظم مقطعا هو الآخر ، فملكته نزوة اوجت إليه بان يحيلني على ان انظم بدوري واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا - حسب قوله - في اليوم التالي ، كما كانت المحفات تتتابع في « القصة المضحكة » (١) .

وإذ عز على النوم - في تلك الليلة - نظمت المقطع بقدر ما استطعت ، وكان لا بأس به ، إذا قدرنا انه كان أول ما نظمت من الشعر ! بل انه كان أفضل - أو على الأقل ، ارق - مما كنت خليقا بان انظم في اليوم السابق ، إذ ان موضوعه دار حول موقف عاطفي كان قلبي قد فتق له . واطلعت فينتور - في الصباح - على مقطعي الشعري ، فراه بديعا ، ودسه في جيبه دون ان ينبئنني بما إذا كان هو قد نظم مقطعه .. وذهبا تناول العشاء في دار السيد « سيمون » ، الذي أحسن استقبالنا . وكان الحديث طليا ، وما كان من الممكن ان يكون غير ذلك ، وقد دار بين رجلين

(١) منظر في الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) ، أروغ

فكئين واسمعي الاطلاع .. أما أنا ، فقد قمت بدوري المعتاد ، إذ رحت اصتني وأنا ممسك لساني . ولم يقل أحد منهما شيئا عن أي مقطع شعري ، وكذلك لم أقل أنا شيئا .. ولم يرد ذكر - على قدر ما عرفت - للمقطع الذي نظمته !

وبدا على السيد سيمون انه ارتاح إلى مسلكي ، وكان هذا قصارى ما عرفه - تقريبا - عني في هذا اللقاء . وكان قد رآني من قبل عدة مرات بدار السيدة « دي غاران » ، دون ان يوليئني اهتماما يذكر . ومن ثم فأنني أحسب معرفتي به منذ ذلك العشاء .. المعرفة التي لم تكن ذات نفع للموضوع الذي كان يشغل بالي ، ولكنني اذنت منها - فيما يبعد - منافع أخرى ، تجعلني اذكر السيد سيمون بسرور . وما ينبغي ان أرجىء الحديث طويلا عن شكله الذي يستحيل على أي امرئ ان يكون غفرا عن الرجل ما لم اتحدث عنه ، سيما إذا راعيننا ما كان للسيد سيمون من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها ..

لم يؤت السيد الضابط القضائي - بالتأكيد - من الطول قديمين (١) . وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ، وطويلتين في نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بان تبدياه طويلا ، لو اتهمنا كانتا رأسيين ، ولكنهما كانتا متفرجتين كساقى فرجسار

(١) كتب «روسو» في مخطوطات الطبعة الأولى ان طول سيمون كان قديمين ، ثم شرب عليها بالثمن وكتب « ثلاثة أقدام » .. لكنه لم يثبت هذا التعديل في النسخة الثانية من المخطوطات ، وهي الآن في متناول الجميع .

( برجل ) مفتوح على سعته ، ! أما جسمه ، فلم يكن قصيرا محسب ، وإنما كان نحىلا وضئيلا بدرجة لا سييل إلى وصفها . ولا بد أنه كان يبدو - إذا ما تجرد من ثيابه - كالجرادة ! أما رأسه - الذى كان عادى الحجم ، وله وجه مليح التكوين ، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان - فقد كان يبدو كراس زائف أقيم على أرومة ثبقت من جذع شجرة ! . . . ولا بد أنه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكساء ، إذ كانت قلنسوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه إلى قدمه !

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معا باستمرار كلما تكلم ، ويتباينان بشكل يبدو - فى أول الأمر - طريفا ، ولكنه لا يلبث أن يغدو كريها ! وكان أحدهما جهوريا عميقا ، وهو صوت رأسه ، إن جاز لى أن أقول هذا . أما الآخر فكان واضحا ، حادا نفاذا ، وكان صوت جسده ! وكان - إذا ما التزم الحذر - تكلم بتحفظ بالغ ، وتظم نفسه ، فيستطيع أن يتكلم باستمرار بصوته العميق . . . ولكنه لا يكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صوته صفيرا منبعا من نغم عال . . . وكان يجد عناء بالغا فى العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت !

ومع هذا المظهر الذى وصفته ، والذى لا مبالاة فيه إطلاقا ، كان السيد سيمون مؤدبا - راوية للطرائف ، شديد العناية بلباسه إلى درجة الحذقة . ولما كان راغبا فى أن يبدو فى أعظم

مظاهره ، فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الصباح وهو فى السرير ، لأن الذى كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدي - فى بعض الأوقات - إلى مناظر مضحكة ، أعتقد أن ( أنيسى ) لا تزال تذكرها !

ترى كيف أبعد « روسو » عن الفتاتين الفاتنتين :  
جرافينرييه وجالى ؟ وما الحيلة الماكرة التى دبرتها  
الآنسة جيرو - العجوز الشوهاء - لإقصائه عنهما ؟  
وما المتاعب والمغامرات التى خاضها حتى استطاع أن  
يلتقى بمدام دى فاران مرة أخرى ؟ وكيف قبلت « امه ! »  
هذه أن تصبح عشيقته ؟

إن « روسو » يحدثنا عن كل هذا ، فى الكراسات  
المقبلة من اعترافاته ، التى تقدمها « مطبوعات كتابى »  
فى الجزء الثانى من « الاعترافات » - كما يحدثنا عن  
نزواته وأهوائه وتجاربه ، ثم عن ذهابه إلى باريس ،  
حيث بدا نجمه فى التالىق .



Looloo

www.dvd4arab.com



## مطبوعات كتابي إصدار جديد

### عزيزي القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطمع الأستاذ «سلامة موسى» في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

«اعترافات جان جاك روسو من الكتب التي يجب أن نترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ...»

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقي ، في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة روسو ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب روسو ، الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل ..»

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة ، كاملة ، لها باللغة العربية ، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان جاك روسو» ، ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل روسو ، في هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حامى مراد

